الدكتور عبد السلام العجيلي

جوهرة الفرات

الإعداد والتوثيق

د. علي القيّم

أمير ثقافة.. وزير عصبة الساخرين

●الدكتور رياض نعسان آغا

وزير الثقافة

كان آخر حديث لي مع العجيلي -رحمه الله- قبل أيام من رحيله، حدثته بالهاتف لأطمئن على صحته، فجاء صوته واهناً، ولم يستطع متابعة الحديث، فأكملته مع أسرته، وعزمت على أن أزوره في الرقة، ولكن القدر الذي اختطفه حرمني من وداعه شخصياً، وكنت شديد الإعجاب به، ومنذ أن تشرفت بمهمة وزير الثقافة، عزمت على أن أزور الرجل الذي شغل هذا الموقع قبل أربعة عقود ونيف، ولم يغادره في ذاكرة الناس قط، فقد بقي العجيلي -رحمه الله- أميرَ ثقافةٍ ومؤسسَ إبداعٍ في وجداننا، ومن الطرائف أنه سُمِّي وزير عصبة الساخرين في الخمسينيات، حين أسس مع سعيد جزائري وحسيب ومواهب كيالي وآخرين عصبة الأدب الساخر، وكان بدهياً أن يختاروه وزيراً بينهم، وهو الذي خاض غمار السياسة يافعاً، فقد تم انتخابه نائباً عن الرقة في البرلمان السوري لأول مرة عام ١٩٤٧، وقد غادر البرلمان ليشارك في جيش الإنقاذ أملاً في تحرير فلسطين التي بقيت جرحاً نازفاً في أعماقه، حتى جاءت (أزهار تشرين) مُدْمَاةً في الرواية التي كتبها بعد عقود بتكليف رسمي لتكون فيلماً سينمائياً عن الحرب، ولم تحظ الرواية

أن يكتب كلَّ ما كان يجول في أعماقه وهو مُقيد بحدود احتياجات فيلم سينمائي، والمفارقة أن الفيلم الذي قيَّد إبداعه لم يُنْتَج.

ولقد عرفت العجيلي عن بُعْدٍ أكثر مِمَّا عرفته عن قرب، فقد قرأت بعض رواياته، وأحببت براعته في السرد، ورقته في الوصف، وبساطته في تقنية قصصه ورواياته، وحرصه على القِيَم فيما يكتب، وأحسب أنه كان شديد الحذر من رقابة مجتمع الرقة الصارمة، فقد انتقد مجتمعه دون أن يُصَادِمَهُ، وكان يعالج مشكلاته في أدبه بذاتِ الرِفْق الذي عالج به مرضاه، حيث بقيت عيادته الطبية ملاذ البؤساء والبسطاء من الناس وكان بعضهم لا يثق بأحدٍ من الأطباء كما يثق بالعجيلي، فهم ينتظرون عودته من رحلاته حتى يعودوه فيجدوا عنده الدواء وأمل الشفاء.

كان العجيلي يعرف الحدود الأخلاقية التي يُمكن له أن يتحرك بحرية في ساحاتها الواسعة، ولا بد أنه كان مؤمناً بأهمية تلك الحدود، ولكنه لم يكن يصادر حرية الشباب فيما يرتضون من قيم وأفكار وأخلاق، وهو يقدم بعض رؤيته عبر شخوصه، فعلى حدود الأسلاك التي تقف عندها القلوب يُفصح عن منظومة قِيَمٍ يحافظ عليها مجتمعه، يقول (أحمد) أحد شخصيات الرواية (علينا أن نترك لهؤلاء الشباب دنياهم، إنها لهم فليفعلوا بها ما يشاؤون) ولكن سعيد في رواية (أجملهن) يقول لسوزان (في أعماقي رواسب من التربية تقول لي إن كل جنس خارج الشرعية

وقد جمع العجيلي في شخصيته الفريدة عدة شـــخوص في شـــخص واحد، فهو الطبيب الذي تخرج مع جيل الرواد من الأطباء من جامعة دمشق العريقة عام ١٩٤٥، وهو السياسي الذي خاض الانتخابـــات البرلمانية وهو في السادسة و العشرين من العمر، وهو البدوي الـــذي بقيت الصحراء فضاءه الفكري في الصفاء والسعة والعمق في التأمـــل والسراح، وهو المديني الذي انغمس في حياة العواصم وعرف أســـرار مجتمعاتها ودخل بيوتها، بل انغمس فيها حين سكن في العاصمة وتزوج منها، وهو الوطني الذي لبَّى نداء الوطن مجاهداً في فلسطين، وبقيـــت قضايا الأمة قضاياه الشخصية في كل ما كتب، وهو العروبي الصافي في انتمائه إلى أمته، الفخور بقوميته، ولم يكن انضـــمامه إلى حكومـــات الانفصال حين شغل وزارات الثقافة والإعلام وكُلِّف بوزارة الخارجية رفضاً لمشروع الوحدة، وإنما كان يبحث مع الباحثين في زمن الانفصال عن عودة سليمة للوحدة مع مصر على أسس متينة غير قابلة للتصدّع، وغير جائرة في الممارسة، وهذا شأن كثير ممـــن تفـــاعلوا مـــع فتـــرة الانفصال وكانت فترة حوار مع مصر، وقد عبَّر عن تلـــك التجربـــة الهامة في حياته في روايته الشهيرة (قلوب على الأسلاك) مثلما عبر عن انتقاده لفساد الحياة السياسية السورية في أواخر الخمسينيات في روايته الأشهر (باسمة بين الدموع).

وبمقدار ما كان العجيلي كاتباً محلياً بكل ما تعنيه المحلية من انغماس

أغنتها رحلاته العديدة وطوافه في عواصم العالم، فاكتنز ثقافة شـــاملة واطلاعاً عميقاً على الآداب الغربية والشرقية، ولكن الينبوع الثر الذي ما انفك يغرف منه إبداعه، كان مجتمعه السوري الغني بتنوعه وثقافته وعراقة حضارته.

ونحن في وداع العجيلي لا نُودع كاتباً روائياً أو شاعراً أو طبيبـــاً، وإنما نودع كذلك رائداً ضخماً من رواد النهضة في بلدنا وفي الـــوطن العربي، رجلاً فذاً ينتمي إلى جيل موسوعي الثقافة والمعرفة، جيل حفظ التراث العربي الإسلامي وأغناه بمعارف العصر وعلومه، وغرس قيمه في نفوس الشباب الذين حملوا الراية من بعده. ولئن كنا نأسى على فقـــد مجتمعنا السوري هذا الرائد الضخم فإن ما يُعـــزِّي أســـرته الأدبيـــة الواسعة محلياً وعربياً وعالمياً أنه عاش حياة ملأى بالعمل والإبداع، فقد ملأ عقود القرن العشرين بأدبه الصادق الصافي صفاء باديته، وشـــغل الناس بقضايا عصرهم وقد عالجها برؤية الطبيب الحكـــيم، والمبـــدع الشفاف، وقد دخل قلوب الناس بتهذيبه الجم، وخلقه الحَيِيّ، قبل أن يدخل إلى عقولهم بثقافته العالية الرفيعة، وأدبه العميق الراقي.

رحم الله فقيدنا وأسكنه فسيح جنته، وعوَّض الأمة عنـــه مبـــدعين يحملون راية ثقافتها وشعلة إبداعها.

وإنَّا لله وإنَّا إليه راجعون.

جوهرة الفرات

- **د.علي القيّم**

منذ عدة أشهر، وقبل الحادث الأليم، الذي وقع له في فندق أمية، مقر إقامته عندما يزور دمشق، زارني الأديب الكبير والصديق العزيز الدكتور عبد السلام العجيلي في مكتبي وعلائم الإرهاق بادية على وجهه السمح النبيل، وبعد أن استراح قليلاً قال: يا أخي علي يبدو أن وقت الرحيل قد اقترب، وحان الموعد لنترك المكان لغيرنا، قلت: يا أستاذنا الكبير لا أحد يستطيع أن يحلَّ مكان أديب وإنسان ومبدع كبير مثلك، فقد كنت وما زلت الرائع الشامخ المتجدد، الشخصية الفريدة الثرية المناضلة، التي حملت الهمّ العربي في الحِل والترحال والسياسة والأدب والطب..

قال: أشكرك على المجاملة، ولكن الشاعر قال يوماً:

لعمرك ما ضاقت البلاد بأهلها

ولكن أخلاق الرجال تضيق

قلت: ومن قال يا سيدي أن أخلاقنا ضاقت بك، فأنت والله مثالاً رائعاً للإنجاز والمنجز في الحب والفكر والأدب، وقد مارست فعل الحياة بعفوية وحب ووفاء وصدق وإخلاص للقيم.. كنت الفارس الذي لم تترجل يوماً عن حصانك.. كنت العاشق الكبير لمدينة الرقة إذ لا يذكر اسمك الكبير إلا وتذكر هذه المدينة الغافية على ضفاف نهر الفرات، ولا تذكر حتى ينهض اسمك مع ذكراها، وأنت دائماً مثال الإنسان الرائع الذي نعتز بك ونفتخر.. أنت العقل الذي نفكرّ والقلب الذي نشعر به، والوجدان الذي نستضيء به.

قال: يا أخي علي، الزمن لا يرحم، جسمي أصبح واهناً، نظري تعب، وسمعي

بعد هذا اللقاء بأيام، تعرض فارس الحرف والكلمة، إلى حادث في فندق أميّة.. لقد وقع من السرير، وكسرت ساقه، ونقل من فندق أميّة، إلى مستشفى أمية، وزرته مرات عديدة حتى سمح له بالمغادرة إلى مدينة الرقة، و لم تنقطع الاتصالات الهاتفية التي كنت أطمئن من خلالها على صحته وأحواله، وكان دائماً يشرفني بطلب الحديث معي، رغم اعتلال صحته وتراجع قدرته على الكلام.. وكان الرحيل..

رحل الجسد الواهن، وبقيت أعماله ومآثره وإبداعاته الأدبية الرائعة، التي ستظل مضيئة كما "قناديل اشبيلية" رحل الحكواتي الأخير في العالم، ولكن رمال البادية السورية ستظل تردد حكايات رواياته وأحاديثه في العشيات، وفي الرحلات، وخواطر السفر، ومقامات (أبي البهاء) وأحاديث الطبيب التي نثرها في كل الوديان والبراري والقرى والمدن.

* * *

يا للموت الذي لا مفرّ منه.. لقد أخذ منّا في السنوات الأخيرة، سعد الله ونوس، محمد مهدي الجواهري، نزار قباني، عبد الوهاب البياتي، فاتح المدرس، محمد عمران، عبد الرحمن منيف، غالب هلسا، ممدوح عدوان وغيرهم.. وها هو يسحب بقوة الشاعر الكبير والأديب محمد الماغوط، والروائي والأديب والطبيب الكبير الدكتور عبد السلام العجيلي، ويتم دفنهما إلى مثواهما الأخير في يوم واحد.. رحل "الماغوط" صاحب القلم الساخر المحفزّ للعقل كي يخرج من أسره.. عاشقاً مات الرجل.. لم يأبه كثيراً لمن اختلف أو اتفق معه.. رحل و لم يغادر مبادئه.. رحل و لم يخن وطنه.. رحل ومازالت روحه في أوج يقظتها، وما برح هو على سخريته وغضبه وتمرده وطرافته.. وكان شاعر المستقبل بمقدار ما هو شاعر الواقع والحاضر..

بالتطوع في جيش الإنقاذ لنجدة فلسطين، وليس انتهاءً بالعمل الدبلوماسي والثقافي.. كانت مسيرة حافلة بالأسفار والمعرفة والعطاء والتواصل والإبداع.. لقد تحدى "العجيلي" التعب، وغالب الإنهاك، بالأدب والحكايا الناقدة الطريفة، المبطنة بالسخرية والمرح..

في الأشهر الأخيرة، عندما كنت أتصل به، كان يشكو أديبنا الكبير من تعطله عن الكتابة، فيده لم تعد تساعده على حمل القلم، ويتذكر بأسف أمير قلعة شيزر أسامة بن منقذ، أحد الفرسان والعلماء الكبار في سورية في العصور الوسطى، مؤلف كتاب "الاعتبار" الذي أعلن جسده إضرابه عليه، بعدما عاش أكثر من ثمانين عاماً، تخللتها عدة حملات على الفرنجة فيردد شعره:

متعجب لعجز يدي عن حملها قلماً

من بعد ما حطم القنا في لبّه الأسد

فقل لمن يتمنّى طول مدتّه

هذه عواقب طول العمـــر والمدد

عبد السلام العجيلي، كان بطبعه يحب الأشياء الشاقة، الخوف من الفشل، ساعده على تداركه.. عاش الحياة، حلوها ومرّها، كتب وكتب فارتقى بالكلمة السردية إلى آفاق مميزة معبرّة، عن الكتابة يقول:

"كان همّي الأول منذ بداياتي الأدبية هو أن أنفث ما في صدري من إحساس، وما أفكر به فأكتبه وأستريح كل الراحة حينما أضع ما أفكر فيه، وما أحس به على الورق وينشر، ولا يهمني أن أُعرف، وهذا ما دعاني إلى أن أبدأ كتاباتي الأدبية طيلة عشر سنوات تحت أسماء مستعارة..

بدأت كما بدأ كل الأدباء، وأجيز فأقول: كبار الأدباء بدؤوا شعراء، ذلك لأن الإنسان في مطلع حياته قليل التجربة، جياش العاطفة يصيغ أفكاره ومشاعره في

كبيراً ملهماً قادراً على أن يطوّع الشعر، وأعترف أنني لا أحمل طينة الشاعر الكبير".

ولكن "العجيلي" عرف جيداً كيف يصوغ رواياته وقصصه وحكاياته ومقالاته الأدبية الساخرة، لقد عرف دوماً بأن في كل قصة نقطة بارزة يحسن البدء بها ويحسن القفل بها.. لقد عرف بنفحه الواقعي، وارتباط أدبه بالحياة، وكان من فصيلة الأدباء الكبار الذين ردموا الهوّة بين الحياة والحكاية.

* * *

كانت مدينة الرقة، حاضرة بقوة في أكثر كتابات الدكتور عبد السلام العجيلي، ففي جوّها الريفي، ذي الطابع البدوي عاش ومارس مهنة الطب خلال أكثر من ستين عاماً، وبالرغم من مغريات الحياة الكثيرة في حلب ودمشق، والأسفار المتعددة وفترات العمل السياسي التي كانت تبعده عن مدينته الأثيرة، فإنه بقي مخلصاً لها ووفياً لأهلها ولحياتهم الاجتماعية.. لقد سجّل عنها وعن أهلها حكايات وروايات ومقالات ومحاضرات كثيرة.. في بعضها كان يحرص على تصوير الواقع وألوان الحوادث التي وقعت له من خلال ظروف العمل، كما فعل في "عيادة في الريف" التي كانت تدوين لحكايات صادقة، نقلها بمضحكاتها ومؤسياتها، فجاءت تعبيراً عن البيئة التي أقام فيها.

لقد اتخذ "العجيلي" الأدب متعة مجردة منذ بدايات حياته الحافلة بالعطاء، عن ذلك يقول: "ففي طور التلقي، أعني أيام الصبا والدرس، كنت أقف أمام لذّاته موقف المنفعل، وحين استطعت أن أعبّر عما في نفسي من خواطر، بالأسلوب الأدبي ظللت أجد الأدب مصدر متعة، وإن تغيّر موقفي منه إلى موقف الفاعل المعطي.. أما مشاغلي التي كنت أسميها مشاغل جادة فكانت كل شيء غير الأدب، كانت الدراسة العلمية، والصراع مع المرض في أجساد المرضى ونفوسهم، ومعاناة

وأتخفّى، ثم أعتذر بأني هاوٍ وأني إذا وجدت فائضاً من الوقت فأني أفضل أن أتمتع بالأدب، متلقّياً ومعطياً، على أن أتحدث فيه أو عنه..".

ماذا كانت النتيجة؟! لقد كتب هذا الأديب الكبير أكثر من /٤٥/ كتاباً مطبوعاً، وقد وجدناه قد أبدع وحاضر ونشر وتعامل مع وسائل الإعلام المختلفة، أكثر من كثير من المنصرفين إلى الأدب أو من العاملين معه في الميادين المتصلة به، ووجدنا أنه عرف بالأدب الذي لم يتعمد الانتساب إليه أكثر بكثير مما عرف بالطب، وفوق ذلك وجدنا أن هذا الذي أراده متعة وتزجية وقت قد استأثر بالزبدة التي تبقت من كل ما أراده ونتاجاً مثمراً.. عن هذا يقول في كتابه "أحاديث العشيّات": "وهكذا وجدت أن أدبي، الذي ظننته لهواً زائلاً، قد أصبح قيمة ثابتة، وزال أو تضاءل كل ما عداه، لقد تمسكن الأدب فتمكن، وكان خادماً مسخراً فأصبح سيداً متملكاً".

لقد كتبت "العجيلي" الكبير بكثير من الواقعية والشفافية وأحياناً السخرية، فعبّر عن واقعه المعاش وعن أحاسيسه وقام بتصوير ما أراد تصويره من عوالم واقعة أو متخيّلة، بأساليب شتى، وبأنماط مختلفة، وكان في كل ما كتب أميناً لبيئته الجغرافية والاجتماعية، ومعرفته وتجاربه التي طورت ونسجت موهبة الأديب فيه..

في الأدب نراه يتصف بسعة الخيال وبحثه عن الكمال، واستطاع أن يخلق بموهبة الهاوي ما يقصر الواقع عن خلقه وما لا تسمح بكينونته قوانين الكون السائدة.. لقد كتب عما يشعر بأنه ينقصه أو ينقص العالم الذي يعيش فيه.. كتب الأدب الذي تثيره نوازع الأماني إلى الكمال، أو الذي تحركه دوافع النقمة على النقص، فكان مبدعاً وكبيراً وشامخاً ومدهشاً في أدبه وحياته وإنسانيته.. إنه بحق –كما قال الرائع نزار قباني إلى الأديبة العزيزة كوليت خوري"أروع بدوي عرفته المدينة.. وأروع حضري عرفته البادية".

إلى العجيلي والرقة

• **محمد نجيب السيد أحمد**

في رحاب الرقة –درة الفرات- وفي ربوعها الفسيحة، وعلى ضفاف فراتها الفياض، وفي حياض سدها العظيم، وبحيرة الأسد الصافية، وبين أحضانها الدافئة، وتحت سمائها الزرقاء، ومع أهلها الطيبين، سلالة يعرب وقحطان وعدنان. أهل التراث العربي الرائع والفروسية العربية الأصيلة، تَيَسَّرَ لي فيضٌ من المعرفة عن الصديق الدكتور عبد السلام العجيلي، وهو سليلُ أسرةٍ عربيةٍ عريقةٍ متجذرةٍ في أعماق التاريخ. نسْرٌ حَلَّقَ في فضاء البادية والحاضرة، مُطِلاً على ماضيها الحافلِ بالتراث والأمجاد، وحاضرها الزاخر بالحركة والحياة، واستشراف آفاق مستقبلَها الواعد والمزدهر، وتعززتِ الصلةُ وتوطدتِ الصداقة بيننا، واتسعتْ دائرةُ المعرفة إلى موسوعةٍ مكتملة الجوانب، خلصتُ منها إلى تَمثُّل وصفِ صديقه الشاعر الكبير نزار قباني له بأنه: أروع بدوي عرفته المدينة، وأروع حضري عرفته الصحراء. كما أنني لا أجاوز الصواب إذا قلت: من زارَ الرقة و لم يَزر العجيلي فكأنه ما زار الرقة. وهي التي قيل فيها: أن تزور الرقة مرة خير من أن تسمع عنها ألف مرة.

ذلك أنَّ جدلية التكامل بينهما نابعة من فهم أصيل لمفهوم المواطنة، تجلت أكثر ما تجلت في متانة الصلة المبنية على أنَّهما خلقا لبعضهما، فهو منها وإليها، وهي في عقله وقلبه ووجدانه، قولاً وفعلاً، وهي موضع مقولة: من لا خير فيه لأهله، لا خير فيه لشعبه وأمته، ومن لا يحب موطنه الصغير لا يحب وطنه الكبير.

وانطلاقاً من أن الثقافة موهبة واجتهاد، والفكر عقيدة وإيمان، فقد كان من روائعه ذلك التكامل بين ثقافته وفكره وبين سلوكه وممارساته، وترسيخ القيم والمثل العليا بكلّ أبعادها، والتفاني في ترجمتها إلى واقع حي، فكان الطبيب الحاذق

عبق الآباء والأجداد، ومن عظمة التاريخ، ومنارات حضاراته، حيث تتجسد الرسالة المقدسة التي صاغت وجدان العرب، وتألقّت بهدي الإسلام، وأسهمت في سمو الإنسانية.

وتتألق روعته التي تلفت الأنظار، وتزين قامته الشامخة، بذلك التواضع الذي غدا مضرب المثل، ومعقد الأمل، وموضع الرجاء، حيث تجلى فيه سمو موقعه، وعلو مكانته، ورفعة مقامه.

مصدقاً لحديث الرسول الكريم: مَن تواضَعَ لله رفعه.

والأروع في هذا أنَّ مصدر سعادته وراحته يكمن في تواضعه ورضاه، وصدق الشاعر حين قال:

تواضع تكن كالنجم لاح لناظر على صفحات الماء وهو رفيع

في رحاب هذا التواضع تفانى في خدمة الناس كل الناس، وتواصل بطبه وأدبه مع الناس جميع الناس، خدمة وخيراً، جهداً وعطاءً، كما كان حريصاً على ألاَّ يشطَّ به المزار وألاّ يطول به البعد عن الأهل والديار، والناس والوطن، وكيف لا يكون كما أراد، وهو المؤمن بأنَّ له أمَّين: أمه التي أنجبته وأمه التي ستحتضنه، ولقد أبلغه الله مراده وحقق له أمنيته الغالية، يوم احتضنته الرقة في أرضها الطيبة، وبين أهلها الأوفياء، وصدق شاعرها مصطفى الحسون حين قال:

أمَّان للإنسان، أمٌ أنجبت والأرض أم بعدها تستقبل

في هذا الإطار يظل الإنسان الحق، هو ذلك الإنسان الذي يمثل عصره خير تمثيل، ويجسد رؤاه وأحاسيسه أحسن تجسيده ويرسخ القيم أفضل ترسيخ، من خلال الارتباط الوثيق بالموطن: أهله وأرضه، مائه وهوائه، متمثلاً قول الشاعر:

ولي وطن آليت ألاّ أبيعه وألا أرى غيري له الدهر مالكا

وحبَّبَ أوطانَ الرجال إليهم مآرب قضَّاها الشباب هنالكا

حياته كلها، وحيث ألقى عصا الترحال، ذلك أنَّ خلود الذكر الحسن للإنسان، يكمن في مقدار نتاجه النافع، وطيب أثره الباقي، وسيرته الحميدة، وفعاله الخيرة، وثمار جهده وعطائه، وصدق الشاعر في قوله:

وإنَّما المرء حديث بعده فكن حديثاً صالحاً لمن وعى

فتحية من القلب إلى العجيلي الابن البار في حضوره وغيابه، وحله وترحاله.

وتحية من القلب إلى الرقة الأم الطيبة في صباحها ومسائها، وليلها ونهارها.

قال الله تعالى في سورة هود الآية(١٠٨):

(وأما الذين سعدوا ففي الجنة خالدين فيها)

صدق الله العظيم

* * *

عاشق الرقة

- **د. حسين جمعة**

رحل الأديب الطبيب عبد السلام العجيلي مثل كل البشر الذين كتب عليهم الفناء؛ وهو القائل: "أنا كإنسان مدرك لأمرين: ضآلة شأني كمخلوق بشري في الوجود ليس إلا ذرّة على كوكب هو تابع لشمس تابعة لمجموعة سديمية نعلم بعقلنا القاصر أن الكون المدرك من قبلنا يحتوي ملايين مثلها؛ والأمر الثاني هو كبريائي كإنسان، وهو الذي يدفعني إلى الكفاح وبذل كل جهد في سبيل غايات سامية".

رحل العجيلي الذي وُلد على ضفاف الفجر الفراتي الجميل لمدينة الرقة عام (١٩١٨م) وهو القائل فيها: "لا تمنعوها فهي عشيقة الفرات ورقته المدللة وفراشة الأمن بعد كل معركة من معاركه والحياة"، والعجيلي تجذر فيها حياة فما غاب عنها إلا لمهمة، ولكنه سرعان ما كان يطير إليها شوقاً ولهفة، إنه المحب لها حتى النخاع، والمنتمي لأرضها حتى الثمالة فجُبل فيها مماتاً.

رحل العجيلي صباح يوم الأربعاء ٢٠٠٦/٤/٥م عن عمر يناهز (٨٨) عاماً، ووري جثمانه الطاهر ظهر اليوم نفسه، وقد شّيعته القلوب والأحداق من أبناء بلدته الوفية وسارت وراء جنازته المهيبة.

رحل العجيلي الأديب الطبيب، والسياسي الأريب الذي كان كنزاً معطاءً ونبعاً ثراً ارتوت من ثقافته نفوس عطشى لكل نادر وثمين، فكان التوهج المتألق للأدب والبذل.

رحل العجيلي في شهر الخالدين والعظماء، شهر البذل والتضحية والعطاء، شهر نيسان الذي أبى إلا أن يجمع في أيامه واحداً بين المجاهدين الأبطال الذين صاروا رمزاً للبطولة والحرية في (١٧/ نيسان)وبين الأدباء الأفذاذ من كتَّابنا ومثقفينا.ففي

ذكرى لحالات التفرّد والشموخ والمجد لعصر أخذ العمالقة يتهاوون واحداً إثر الآخر وكأن هؤلاء العظماء الذين رافقوا عيد الجلاء في ١٧/٤ أبوا إلا أن يكونوا ذكرى له.

كان العجيلي -رحمه الله- ملء العيون والأفئدة في أنحاء العالم كله ابتداء من دراسته في الرقة وحلب إلى تخرجه من جامعة دمشق طبيباً سنة ١٩٤٥م ثم نائباً لبلدته عام ١٩٤٧م فصاحب مناصب وزارية ثلاثة في الثقافة والخارجية والإعلام عام ١٩٦٢م، علماً أنه شارك في حرب فلسطين سنة ١٩٤٨م وكتب عن مشاركته هذه مجموعة قصصية. كان ينتمي إلى جيل فتحَ عينيه على أحداث كبرى ثقافية وسياسية واجتماعية، فكان يعيش في قلب حركة متلاطمة الأمواج تتصارع فيها التيارات الفكرية والسياسية والفنية والأدبية؛ وتتباين في توجهاتها بين الانجذاب إلى الماضي وبين الحلم بالثورة والتحرر فما وقعت إلا في كل ما كان سائداً ولم تخرج من انتكاسة إلا سقطت في أختها على حين كان يرقب الفجر الآتي بوقار الشيخ الحكيم دون أن تعنيه المحاكاة العمياء للمثاقفة مع الغرب وهو المتضلع فيها.. طفق يختط لنفسه عالماً فريداً من الثقافة والكتابة لا يحمل إلا جوهر الانتماء الأصيل ولا يتنفس إلا من رئة القيم والمبادئ الخيرة للإنسانية، كانت نظراته تشرئب إلى آفاق المثاقفة الرحبة مع الآخر يفيد ويستفيد ولا يذوب فيه، إنه المثقف الأديب الذي صقلت الأحداث تجاربه، وجعلت لأدبه بريقاً خاصاً تسكنه المودة والرهبة في آن معاً، وهو القائل: "إني أحاول أن أكون أديباً على الورق فقط"، "الكتابة عندي نوع الحين وما أحدث الناس به أحدث الورق، وأحضّر كثيراً، وأبقى ساكتاً لمدة طويلة، ولكن متى انفجرت أنطلق وأسكت الآخرين وكتابتي نوع من الحديث وأنا متحدث من الدرجة الأولى".

كان العجيلي شاهداً حقيقياً على تطور الأدب العربي الحديث فله ثلاث عشرة

١٩٧٤م) و(قناديل إشبيلية وساعة الملازم والخائن)، ومن مجموعاته القصصية (أحاديث الطبيب ١٩٩٧م) و(مجهولة على الطريق ١٩٩٧م) وله عدد من الروايات منها: (باسمة بين الدموع ١٩٥٨م) و(رصيف العذراء السوداء) و(قلوب على الأسلاك) و(ألوان الحب الثلاثة)، وله عدد من الدواوين الشعرية أولها ديوانه (الليالي والنجوم) وأصدره عام (١٩٥١م) وكتب أدب الرحلات مثل (حكايات من الرحلات)، و(دعوة إلى السفر)، و(خواطر في السفر) والمقالات منها (في كل واد عصا١٩٨٤م) و(جيل الدربكة) و(ادفع بالتي هي أحسن)، والمحاضرات مثل (السيف والتابوت، وأحاديث العشيات؛ وسبعون دقيقة حكايات).

وله مقامات ومقابلات، وذكريات أيام السياسة، ومنوعات أخرى، وله كتب على هامش الطب منها (عيادة في الريف وحكايات طبية، وأحاديث الطبيب)، وبهذا ناهزت كتبه على(٤٥)كتاباً، ما جعل شهرته تطبق الآفاق ومن ثم يُترجم إبداعه إلى مختلف لغات العالم (١٤) لغة منها الفرنسية والإنكليزية والإيطالية، والروسية والإسبانية، ولعلَّ أول ترجمة كانت سنة ١٩٥٥م إلى الفرنسية.

كرم غير مرّة آخرها حين كرّمه السيد بشار الأسد فمنحه وسام الاستحقاق من الدرجة الأولى سنة ٢٠٠٥م مع كوكبة من رفاقه.

- كتبت حوله دراسات كثيرة في شتى أنحاء الوطن العربي والعالم.

كانت لقاءاتي معه عديدة في أماكن متفرقة، لكن أكثرها إثارة ذلك اللقاء الذي ضمّنا في مجمع اللغة العربية في مكتب أستاذنا الجليل الدكتور محمد إحسان النص (يوم كان نائباً لرئيس المجمع)، لم يكن هذا اللقاء إلا تعبيراً عن صدق الإنسان وانتمائه إلى روح الإنسانية العليا في دماثة الخلق وتواضع العالم، قد حدثنا عن جانب من أدب رحلاته ليس باعتباره معززاً لتقاليد الكتابة عن رحلاته، ولكن باعتباره يمثل حالة من وعي العالم من حوله، وباعتباره حالة من الكتابة الرفيعة التي

تأجج مشاعره المرهفة وتتقلب على خيال مبدع ولا سيما حين يسرد بعض ذكرياته. كان يعرض ما يحكيه في حالة من العشق الرومانسي الذي يغري بكل ما هو ثمين فاستحق التقدير والخلود.

* * *

أروع بدويّ عرفته المدينة

وأروع حضريّ عرفته البادية..

- **كوليت الخوري**

وآه كم أنا حزينة يا عبد السلام... لماذا غيّرت عادتك يا صديقي الكبير؟

كنتَ كلّما سافرتَ إلى أيّ مؤتمر من المؤتمرات الكثيرة التي كنتَ تُدعى إليها في أنحاء العالم... ... أو إلى أولادك الأحبّاء الذين يدرسون في جامعات الغربة...

كنت تأتي إليّ في دمشق...

أنا المحطّة الأخيرة قبل السفر...

وكنت تجد الأهل والأصدقاء والأحبّاء عندي في انتظارك..

فنتحدّث حول آخر الأخبار الأدبيّة والسياسيّة... وننتقد ونُثني... ونحتجّ أو نحبّذ...

ونبني من إيماننا بالوطن وتصوّراتنا والكلمات عالماً أفضل...

وكان الجميع يشكرونك سلفاً لأنّك في رحلاتك ترفع اسم سورية عالياً...

وكنّا نوصيك بالعودة إلينا سريعاً...

لماذا غيّرت عادتك يا صديقي الكبير؟

هذه أوّل مرّة تسافر فيها دون أن تودّعني!!!...

* * *

وآه كم أنا حزينة...

كنتُ أَعرف في الفترة الأخيرة أنّ أحوالك الصحيّة سيّئة... وأنّ الأمل بالشـــفاء مفقود..

كنتُ واثقة من أنّنا لن نستطيع مجدّداً أن نجتمع كالعادة... ولن نتمكّن كالعادة من أن نبني بإيماننا وتصوّراتنا والكلمات... عالماً جديداً...

فأنت يا صديقي الكبير... من عالم راسخ متين... يعرف كيف يَثبُتُ في مكانه... لا يتبدّل... رغم الزلازل...

يعرف كيف يتابع سيره الطبيعيَّ الواثق ...رغم الرمال المتحركة...

وجودك دعم للطيّبين في الأيّام الصعبة... والحصنُ الوطنيُّ عندما يصيب التقلّبُ بعضَ النفوس الضعيفة...

ماذا أقول؟

مجرد وجودك كان يشعرني باطمئنان... فأنت الأدب الجميل الراقي في زمن الصرعات... أنت الصديق الحقيقي في زمن يغلب عليه التملق والرياء والمصلحة...

أنت الإنسان الأصيل الذي مهما تبدلت الأيام ودارت، معه أو عليه، يبقى السند الأكيد المضمون...

ورغم فارق السن الكبير بيننا... كنت أحسّك أقرب إليّ من أبناء جيلي... يا شيخ الشباب... يا أرشق الشباب... ويا أحلى من الشباب يا صديقي الكبير...

* * *

كنت لم أبلغ العشرين من عمري عندما خابرني ذات يوم في أواخر الخمسينيات نزار قباني... كانت المصادفة قد جمعتني بالشاعر الكبير قبل شهرين... واستطاع، على تموجات شعره، أن يجعل المصادفة تستمر...

سألني:

- ماذا تفعلين ؟ هيا هيّئي نفسك... سترافقينني إلى محاضرة ...

وحين سألته عن سبب اهتمامه بتلك المحاضرة ومن هو المحاضر... أجابني معاتباً:

- أراكِ تكتبين في الصحف... و تنظمين الشعر وتؤلفين القصص... ومع ذلك أنت تجهلين تماماً الحركة الأدبية المعاصرة...

هيّا معي لتستمعي إلى أهم أديب وكاتب قصة في بلادنا... هيا... لأعرّفك إلى

وعرّفني نزار إليك... أنت المحاضر الكبير... وكان معنا الدكتور الأديب إبراهيم كيلاني... أستاذي في الثانوي...

فوقفت مرتاحة سعيدة بين العمالقة الثلاثة... الذين سرّهم وربما سلاّهم وجود هذه الصبية الصغيرة بينهم... تحدّثهم ببساطة مثل الكبار... عن الأدب والشعر والسياسة!...

وبقيتمُ... العمالقة الثلاثة تحيطون بي... "زمنا رغدا..."

ثم حمل نزار أصدقاءه ودمشق في حقيبة أشعاره... واغترب...

وخبّأ أستاذي إبراهيم كيلاني ذكرياته في أوراقه واعتكف في البيت...

وبقيتَ وحدك تتردد على الدوام إلى دمشق لتطمئنّ في الدرجة الأولى عن مسير حياة تلك الصبيّة الصغيرة التي كبرت... وكبرت معها صداقتك...

كبرت وتوطدت... حتى أصبحت أنت فرداً عزيزاً من أفراد أسرتنا الصغيرة..

وأصبحت أنا، كما كنت تقول ضاحكاً، أنتمي لعشيرة العجيلي الكبيرة العزيزة...

* * *

منذ ذلك التاريخ البعيد البعيد...

وصداقتنا متينة كإيماننا بهذا الوطن...

صادقة مثل كتاباتنا...

وصافية.. كدموعي المنهمرة..

كيف السبيل إلى إيقافها يا دكتور ؟...

* * *

فقدت الكثيرين من الأحباء في الفترة القريبة الماضية...

شباناً... كانوا مثل أولادي...

ورجالاً مميزين كانوا أصدقائي...

لكنّ غيابك أنت يا دكتور ...زعزعني!
لأنه جعلني فجأة أشعر بأن هؤلاء الذين في صدري هم عالمي...
وبغيابك أنتَ... أدركتُ أن عالمي هو الذي يرحل... ... هو الذي يرحل...
يا الهي كم هو موجع غيابك يا صديقي الكبير... يا عبد السلام...

* * *

بين إبراهيم وإسماعيل!؟

• **محمد أبو معتوق**

لكي تكون نهراً..عليك أن تجاور نهراً، هكذا ولد عبد السلام العجيلي وهكذا عاش وهكذا مات.

وكأن الرقة ومنذ قرن..أعلنت أنها لن تكتفي بالفرات وحده ليروي ظمأها.. فابتدعت من مخيلتها المتباينه، مخيلة الخصب الذي يجاور البرية واليباب ابنا لها لتباري به فراتها المقدس الذي يخاله الظامىء والمتيمَّ وكأنه نهر ينحدر من السماء.

وقد أخلص العجيلي للأمانة التي حمَّلته إياها الرقة (الرفيقة- الرافقه) فنهض ليبشر بخصال الماء والصحراء وكان صاحب العين التي تلمح كل زائل من الكائن والمكان.. في محاولة لتحويله إلى حكاية أو صورة أو نص، وكأنها بذلك تحاول أن تعيده آنية للحياة.

وقد استطاعت الرقة منذ عقود بسبب ما فيها من حراك ثقافي واجتماعي ناهيك عن السياسي.. أن تتحول إلى عاصمة للقصة القصيرة في سورية.

ولعل شرارة هذا التحول تبدت بظهور قصص العجيلي الذي يتمكن بفضل جبلته ومثابرته أن يؤسس ملامح السرد التقليدي ودعائمه في سورية من قصة ورواية.. متصدياً لصياغة البواكير الحكائية والفنية لهذا السرد مجترحاً الوظائف والملامح والموضوعات، التي تفتن المتلقي وتثير انتباهه وإعجابه، وتدفع سواه لمجاراته فيه وكان العجيلي الراحل ذا حضور مؤثر، وحركة وعلاقات ومعارف واضطراب في الأرض واتصال بالعواصم.

في الوقت الذي ظهرت فيه مؤلفات العجيلي وانتشرت وترسخت وترسخت عبرها ومن خلالها ملامح السرد التقليدي بدأت بشائر الحداثة ونذرها تطل برأسها

وكانت حداثة الإخلاصي حداثة من النوع الرهيف اللين.. ولم تكن من الحداثات التي تطالب بدوال المدارس واندحار الأجناس والأساليب السائدة، وكانت العلاقة وديَّة وطيبه بين الرجلين.. ولم يكن يحس أحدهما بأنه يهدد الآخر وإنما يساهم معه في تلوين المشهد الإبداعي في سورية وإثرائه. ومن خلالهما ترسخ مشهد السرد والقص وتجذر ولم تكن بوادر العاصفة قد ظهرت بعد إلا بظهور تيارين سياسيين وثقافيين هائلين.. هزّا أركان حياة إلا نتلجنسيا السورية وأعادا تشكيل ملامحها هذان التياران هما.. تيار(الماركسية)المكتفية بذاتها ومعتقداتها والناظرة بحزم واستعلاء وخصومة إلى ماعداها.

وتيار(الوجودية) المتحالف مع (الفرويديه) وطرائقها ومفاتيحها التي تصدت لكشف عورة النفس والتصدي للمخبوء والمستور في.. وكان لظهور هذين التيارين أصداء وزوابع.. وقد شكلت بيئة الرقة المتباينه حيث الماء يجاور الصحراء، مناخاً ملائماً لوجود هذين التيارين وكان أشد المتلقفين لهذين التيارين وأكثرهم ضراوة الأدباء الشباب في الرقة.. الذين وجدوا في حضور العجيلي ومكانته وقامته تهديداً لهم.. ورغبة منهم في ترسيخ حضورهم وتأثيرهم اندفعوا لتشكيل ما يسمى بجماعة(ثورة الحرف) وقد انتظم في سلك هذه الجماعة مجموعة من الأسماء اللامعة في أيامنا وهم.. عبد الله أبو هيف وإبراهيم الخليل وإبراهيم الجرادي والمرحوم رشيد رمضان وخليل جاسم الحميدي وآخرون.

لقد حاولت جماعة ثورة الحرف أن تنقلب على كل ما هو تقليدي في الكتابة والسرد وكان في مقدمة هؤلاء ..عبد السلام العجيلي واضعة نصب أعين أفرادها ليس الانقضاض على الأساليب القديمة في التعبير فحسب، وإنما على التشكيلات الطبقية كافة التي صدرت عنها، وبذلك تشكلت في الساحة الثقافية والإبداعية في سورية عموماً وفي مدينة الرقة خصوصاً وفي ساحة الإبداع القصصي تحديداً، بوادر

من جهة وجماعة ثورة الحرف كممثلين للتجديد والتحديث والتغيير من جهات متعددة.

وهكذا وجد الأدب الروحي للقصة والرواية في الرقة نفسه طرفاً في معركة لم يعد نفسه لها.. ولم يكن يرغب في خوضها، غير أن المفهوم أمعنوا في شنها والتشهير بصاحبها، وطرفها الأكثر تحذراً وحضوراً.وتم في هذه المواجهة تحويل عبد السلام العجيلي إلى كبش إسماعيل..(كبش فداء) لها. واتخذ الشباب المتحمسون والعقائديون قراراً مبرماً بالتضحية بالعجيلي على محرقة هذه المعركة. ليس تصديقاً لنبوءة وإنما تأكيداً على خلاف وتباين ومغايره.

وهكذا وبقصد أو من دونه. امتلأت ساحة الأدب في سورية وبقية بلاد العرب بأصداء هذا الصراع وبدأ الحراك الثقافي اللاهب.. يذر بقرنيه على الصفحات الأدبية والسورية منها خاصة وبسبب هذا الصراع تحولت الرقة ليس لعاصمة للقصة السورية فحسب.. وإنما عاصمة لضحاياها ..ليس لأن المعارك كانت لافحة، ولكن لأن أطرافها كانوا على جدارة وموهبة وكانت الحماسة والبحث عن أضحية عظيمة هما القصد والغاية. ومما أصبح إواره هذه المواجهات ظهور حليف نقدي لثورة الحرف تحت اسم النقد الإيديولوجي..

حيث ظهر كتاب(الأدب والإيديولوجيا) بوصفه أعلى تجليات هذه الحرب، وأكثرها إراقة للدماء.

وقد انشغل مؤلفا الكتاب.. بالمنشأ الطبقي للأديب ولم يشغلا بإبداعه، وعلى ذلك صار عبد السلام العجيلي ممثلا للأدب الإقطاعي المدحور.. ووليد إخلاصي ممثلاً للأدب البرجوازي البغيض، دون الانتباه إلى الحقائق التي أكدها التاريخ.. هذه الحقائق التي برز من خلالها أدباء المرحلة الاقطاعية في روسيا كدستويوفسكي ونحو تحول وليد منوف وتولستوي وأدباء الواقعية الفرنسية كـــ (بلزاك- وزولا-

والبورجوازية في أبرز تجلياتها عن ولادة أدباء في مكانته هؤلاء الأدباء الاقطاعيين وشأوهم.

ورغم هذه المعارك الطاحنة، فقد نهض الأديب العجيلي رغم جراحاته مطوحاً بالسكين.. دون أن يسلها لينال بها من أحد أبنائه الغاضبين.

وهكذا وبعد أن اتسعت الرؤيا وهدأ أدار المعركة نظر الأبناء إلى الشيخ الجليل.. فوجدوا فيه أباً محباً كما هو إبراهيم.

فهرعوا نحوه واحتموا تحت جناحيه كما يفعل الأولاد بعد ضياع وتغرب وحنين..

وهاهم الأبناء ذاتهم يقيمون ندوة في مدينة الرقة احتفاءً بالعجيلي الرائد، الذي ينساب بين عيون قرائه ومحبيه كنهر جليل وقد قالوا كلمتهم فيه.. لم تكن أيها العجيلي وقوداً لمعركتنا وإنما كنت الشعلة التي منحتها الضوء لتنهض وتعيش، فلا تمت.. لا تمت يا عجيلي.. وإن فعلت.. فستظل بين ظهرانينا حياً مثل ماء زلال وحلم عظيم.

* * *

الطبـــــيب.. الأديـــــب.. الإنســـــان

● **د. ماجد أبو ماضي**

لن أتحدث عن العجيلي من ناحية تطور مراحل حياته ودخوله في محراب الأدب، بل سأتطرق إلى تسليط الأضواء على سماته النفسية وأخلاقياته وإنسانيته.. فالعجيلي الإنسان يتمتع بصفات تجعله في مصافي الرجال العصاميين الذين استطاعوا لأن يكونوا مثلاً يحتذى به وقوة يُسار على هديها..لقد كان طبيباً كريماً ومحباً صادقاً، ومتواضعاً مع مرضاه والناس بشكل عام وهذا ما لمسته منه عندما توجهنا إلى المكان الذي قصدناه من خلال لقاءاته مع الناس في الطريق عندما كنت في محاضرة في الرقة قبل عام تماماً، هذا التواضع يكسبه الشموخ، كما أنك تشعر بكلامه عذوبة الفرات وبهدوئه هدوء الرزانة.. وخير ما يعبر عن تواضعه وجمالية كلماته قوله :"أنا كإنسان حائر بين أمرين، أو على الأصح مدرك لأمرين: ضآلة شأني كمخلوق بشري في الوجود ليس إلا ذرة على كوكب هو تابع لشمس تابعة لمجموعة سديمية، نعلم بعقلنا القاصر أن الكون المدرك من قبلنا يحتوي ملايين مثلها، والأمر الثاني: كبريائي كإنسان والذي يدفعني إلى الكفاح وبذل كل جهد في سبيل غايات سامية، إن إدراكي لهذين الأمرين يعد الفكرة الشاملة التي ينبعث منها موقفي كأديب في هذه الحياة".

لقد نذر هذا الإنسان حياته لخدمة وطنه ومجتمعه سواء في مهنة الطب أم الأدب، ففي الطب كان يعالج المرضى للمحافظة على الإنسان من جهة، والأدب لتفريغ مشاعره وأحاسيسه الإنسانية التي تملأ حياته من جهة أخرى، فتواشج الأدب مع الطب لينتج لنا طبيباً بارعاً وأديباً مبدعاً عبر عن قضايا أمته ووطنه، لذلك غدا

يرتكز على واقع محقق لأن اسمه موجود ومعروف في جميع الأوساط فلم يكن يسعى إلى الظهور فالشهرة.. ودليل ذلك كتابته بأسماء مستعارة، وتهربه من الانضمام إلى التجمعات الأدبية، كل ذلك لأنه كان يكتب الأدب كهاو، لكن الآخرين سعوا إلى تقديم الصفة الأدبية على بقية صفاته، وإذا تساءلنا عن غزارة كتابته الأدبية، فمردها إلى سهولة الكتابة عنده فلديه الكثير مما يريد قوله ولديه زخم كبير من المشاعر والأفكار التي يريد تفريغها في الكتابة، من أجل ذلك لا يلزمه وقت طويل لكتابة الأدب، فكل شيء مهيأ ومتوفر وهناك انسيابية وليونة في التعبير فلا يوجد عناء في ذلك ولا يتطلب منه الأمر وقتاً طويلاً، فهواية الكتابة لدية هواية سامية ونبيلة.. أما عن مواقفه الوطنية والقومية فكانت همه الشاغل وهاجسه المستديم، فقد ألف كتاباً خاصاً عن تجربته عندما انخرط في جيش الإنقاذ سماه "جيش الإنقاذ .. صور منه.. كلمات عنه" تحدث فيه عن هذه التجربة عندما دخل فوجه"فوج اليرموك الثاني" إلى فلسطين من الحدود اللبنانية وتمركز في شمال فلسطين " قلعة جدين قرب عكا" وكان في الفوج ثلاثة أطباء أحدهم عبد السلام العجيلي، وقد أعادنا في كتابه هذا إلى جذور القضية الفلسطينية ليقوي النفوس ويزيد من الوعي ويستنهض الهمم لأمة يراد لها أن تستسلم للواقع وترضى به وترضخ له من خلال وجود الاحتلال على أرضها والتفرقة تدب بين أبنائها والعمل على تقسيم المقسم وتفتيت المفتت، وكان رأيه في ذلك أن " ليست قوة الآخر ما تغريه بالعدوان عليك بل هو ضعفك أنت، فالعرب يمتلكون كل ما يؤهلهم ليكونوا أقوياء لكنهم أهملوا هذه الإمكانات، وتنازلوا عنها، أو خافوا من استخدامها، إن ضياع القيم الأخلاقية وضعف الإيمان بهذه القيم وإيثار المصلحة الشخصية والمنفعة العاجلة أدى إلى التناحر فيما بيننا وإلى التفكك مكان التوحد الذي يصنع القوة منذ صغره وانطوائيته على نفسه التي لازمته طيلة سنين حياته لم تقلل هذه الصفات من

لنفسه، و لم تكن تجعله يتعالى عليهم وينظر إلى من علو.. بل نراه يشرك الناس بما يحس ويفكر، هذا هو سر العجيلي الحقيقي الذي قدم من أعماق البادية ومن ضفاف الفرات ليقدم بسلوكه الإنساني- وليس بأدبه فقط- نموذجاً رائعاً للإنسان المكافح والذي لا تلين له قناة مع الحياة، فكان عصامياً في كفاحه، طموحاً في أهدافه وقدوة للأجيال القادمة التي ستأخذه نبراساً لإنسان صنع من اللاشيء أشياء يحتذى بها فكان كما قال الشاعر نزار قباني " أروع حضري عرفته البادية، وأروع بدوي عرفته الحاضرة". رحمك الله وآواك في جنات الخلد .. فإن غبت جسداً فستبقى بيننا من خلال آثارك وأعمالك الخيرة وكتبك وأفعالك الحميدة، وما لنا إلا أن ننحني أمام شموخ شخصك وعظمة إبداعك وارتقاء مؤلفاتك وتواضع شخصيتك، لن أقول وداعاً.. لأنك أعظم من الوداع.

* * *

الرائد لا يكذب أهله

- **بشير عاني**

"لنتصوّر أنفسنا في بلدة صغيرة على تخوم البادية السورية ليس لنا ما نُسلّي به أنفسنا به الوقت غير أصائل وأمسيات رطبة الظل ندية النسمات نقضيها مجتمعين في مقهى صغير نتبادل أطراف الحديث ويقصُّ كل منا على الباقين ذكريات حياته الماضية في مدن كبيرة يكُسبها بعدها عن البلدة الصغيرة التي نحن فيها سحراً ليس لها وحنيناً لم يكن ".

هكذا كتب جورج طرابيشي مرة عن الأديب عبد السلام العجيلي، ونحن هنا لسنا بصدد الحديث فقط عن الراحل العجيلي إذ لن يكتمل الكلام ما لم نلتفت إلى البيئة والمناخات الخاصة التي أحاطت ومازالت بالرقة والتي كان لها دورها البارز في إنجاب حكواتي بارع كالعجيلي، مثلما كان لها الدور نفسه، فيما بعد، في تقديم أجيال ناجحة من القاصين والشعراء.

والرقة، هذه المدينة المفتوحة لاحتمالات كثيرة أهمها السحر والميثويولوجية مازالت ببساطتها المعتقة في النفوس قابعة في حضن البداوة رغم أيادي المدنيِّة التي تشدها من قميص أيامها منذ عقود طويلة.

الرقة،هذه التي أغوت الملوك والشعراء ورجال الفكر والسياسة على التمرغ فوق عشبها منذ هارون الرشيد ومن قبله هشام بن عبد الملك.. ومنذ ربيعة الرّقي وأبي تمام وأبي النواس وغيرهم..

"رقّة" التاريخ هذه التي أغوت كل هؤلاء منذ عهود طويلة، هي نفسها التي تمارس الإغواء حاضراً وتستدرج العظماء والكبار إلى رملها وعشبها وزواريبيها

تاجه وصولجانه، والعودة إليها، لتمدّده على ركبتيها، تُهدهده، تُدلّله، حتى آخر أنفاسه..

ياللرقة.. كم كان لها، هذه الصغيرة، المُلفَّعة بالنسيان، أن تُحدّد، في لحظات ما، أقداراً ما لسورية..؟!

أجل.. فمنها سيعود قائم مقامها، الجنرال رمضان شلاش (ضابط ديري الأصل، غادر الجيش التركي لينخرط في ثورة الشريف حسين) عشائر الفرات في ثورة ضد الوجود الإنكليزي.

فيها أيضاً سيروّض الفرات، ولأول مرة في تاريخه، من خلال السدّ الذي سيدخل البلاد في مشاريع كبيرة كالاستصلاح والتنمية الزراعية..

ومنها أيضاً سيطلق شاب مغمور اسمه عبد السلام العجيلي العنان للحكاية الأدبية في سورية مستحقاً، فيما بعد، كل هذا اللغط حوله مدحاً وتعريضاً، وهكذا هو حال الروّاد دائماً. والرائد لا يكذب أهله، من هنا كانت الرقة بناسها الطيبين، بتبدِّيها، بطينها، وزواريبها وبيوتها المكتظه بالطيبة ورائحة العائلة، بخرافاتها وأساطيرها وعوالمها المسحورة، نبتة في النسيج الأدبي الذي حاكه العجيلي على مدار نصف قرن تقريباً، بل إن هذه كانت أولى الالتقاطات النقدية للأديب إبراهيم الجرادي حيث يكتب في مقدمة كتابه الذي أعدّه عن العجيلي"إن الخرافة والأساطير والمعتقدات الشعبية استثمارات مشروعة ومخزون صالح كبير، يمتح منه مبدعو الواقعية الاشتراكية والواقعية الرومانسية وتظهر ظلالها الكبيرة في إبداعات ماركيز وايتماتوف وغيرهما كعناصر توسيع لدائرة القص وإغناء لمحمول الحكاية كمنافذ احتمالات لحلول إبداعية مفتوحة..".

إن العجيلي مكسب لبيئة في صياغتها الأدبية مثلما هي بأساطيرها وخرافتها وحكايا مواقدها، مكسب فني، أسلوبي في صياغتها ومضامينها لاسيما وأنه منحاز

البحث عن معنى الحياة وجدواها، عن الغامض وأسرار ظواهره التي تستعصي على التفسير.

منذ الأربعينات والعجيلي يلتقط الرقة قطعة قطعة ليُعيد تشكيلها في مشهد أدبي حيّر النقاد في توصيفه، فهو واقعي، رومانسي تارة وهو تقليدي تارات.. وهو أيضاً غيبي، قدري ميّال إلى الغرابة والخيال العلمي..

والعجيلي كاتب إشكالي طارده النقاد حتى داخل جدران عيادته في الرقة، تفحّصوا تجربته، مدحوه واهموه، ولكن، وفي كل ما كتبوا عنه، كانت قلادة الريادة على صدره، وكانت الرقة عصاه التي يتكىء عليها ليواجهه بها ركام الكلمات، كيف لا وهو الذي هجر دمشق بمغرياتها، مستقيلاً من الوزارة ،رافضاً فرنسا وسفارتها، ليعود إليها.. إلى هذه الصغيرة الساحرة "إن لي سفارة تنتظرني في الرقة ..إنها عيادتي..".

أما عن برجه العاجي الذي يعيش فيه، فكان ردّه على المتهمين بسيط جداً: "تعالوا وانظروا في أي برج أعيش، أنا عائش في برج من الوحل. الرقة بلدتي وأنا أغوص في طينها.."

والعجيلي، ورغم شهرته الواسعة ،ورغم سبع روايات وثلاث عشرة مجموعة قصصية وتسعة عشر كتاباً في أدب الرحلات والملاحظات الاجتماعية والسياسية وديوان يتيم في الشعر، ظلَّ يصرُّ على عدم منح الأدب من نفسه وحياته أكثر مما فعل، وظلَّ يصرُّ على وضع نفسه في حقل الأديب الهاوي، بل إنه يفضّل صفة الطبيب على صفة الأديب .

إلاّ أن النقد الأدبي يرى ما لا يراه العجيلي في نفسه، إذا اعُتبر الرجل واحداً من رواد القصة القصيرة في سورية، كما نُظر إلى مجموعته القصصية الأولى "بنت الساحرة" كمنعطف حي في تاريخ القصة القصيرة في سورية، إذ يكتب د.حسام

سورية، فحين صدرت هذه المجموعة لم تكن هناك سوى تجارب أولية لكتاب رواد مثل علي خلقي ومحمد النجار ومعروف الأرناؤوط ووداد سكاكيني وأديب نحوي وشكيب الجابري وفؤاد الشايب، ومن هنا لابد للمرء من التأكيد باستمرار على أن مجموعة بنت الساحرة تحتفظ بقيمة تاريخية كبرى إضافة إلى قيمتها الفنية..".

ليكتب النقد ما يشاء، هذا هو ردُّ العجيلي الذي ظلَّ على الدوام، مصراً على طرح وجهة نظر مخالفة حول مفهوم الريادة التي لم يرها أبداً متحققة فيه" إن الرائد هو الذي يفتح طريقاً لمن يأتي بعده، وأنا في الواقع لم أفتح طريقاً إلا لنفسي.. الرائد الحقيقي هو فؤاد الشايب..".

إذا كان هذا هو رأي الأجيال اللاحقة من كتاب القصة في سورية، وفي الرقة خصوصاً سيما وقد برز العديد منهم مؤخراً كما صارت لهم تصورات وأفكار خاصة في أدب العجيلي وتأثيراته، وفي الأدب عموماً، هذا ما سنسعى لاحقاً لمعرفته ووضع أيادينا عليه.

* * *

نموذج يستحق الاقتداء به

- **وليد إخلاصي**

أشهد أن العجيلي ليس بحاجة إلى شهادة منا، فالشيخ عادة هو الذي يشهد علينا، إلاّ أنني أريد أن أقول في الرجل ما يجب للأجيال الجديدة من المثقفين والكتّاب من ضرورة أن يذكروا دوماً ما هو عنه وفيه، فلا أظنه باحتلاله واحداً من منابر القدوة في حياتنا إلاّ ويستحق رتبة المشيخة الأدبية بامتياز.

وأشهد أن بلداً كالرقة تستحق أن يكون لها العجيلي ابناً ورمزاً، وأن أرضاً كسورية تنبيء خصوبتها عن ولادة إنسان اسمه عبد السلام العجيلي خير أمٍ لخير ابن.

لقد خرج العجيلي من عمق الصحراء السورية نقياً كذرات الرمل فيها وقد تحولت إلى تربة أزهر العلم في طياتها، ليصبح طبيباً يداوي الجراح والألم، وما لبثت روحه أن تفتقت عن حكواتي قدره أن يشهد على عصره، كما أن اهتمامه بالآخرين تفجر ليمارس السياسة فترة من حياته فيكون عيناً لها على الوطن وعيناً على ذاكرة زمن يلهث هرباً من ضياع-وكانت (الرقة) بلده على بساطة أرضها التي اكتوت برياح الغبار الموسمية قد حملت في عمقها المحمّل بالتاريخ جنين كائن أطلّ على الحياة وقد كُتب له أن يكون واحداً من رموز عصرها الحديث.

وكأنما قدّر للعجيلي في حياته أن يكون رسول رحمة لآلاف المرضى من أهل المدينة وبدو صحرائها المتناثرة من حولها، فكانت عيادته محجاً للذين يطلبون العلاج والدواء أكان سحراً تشع به رعاية الطبيب أو أقراصاً تنبض بالشفاء، وسنجد أن أطفالاً قد ولدوا لنساء البدو قد حملوا اسم عبد السلام تبركاً بشيخ الحكمة الذي تحولت عيادته إلى صدر حنون يقصده المرضى من كل فجّ عميق، وكأنما ضعف

وهو يوزع تمام العافية، ولتبين لنا أنه قد حمل في الزمن الحاضر اسم عبد السلام العجيلي، فما أعجب التاريخ في تناسخه.!

أكانت تلك كل الحكاية، أم أن الزمن وهو أعظم الرواة له إضافة؟

بلى فقد اشتعلت في صدر الشاب جمرة الوطن ليلتحق في أيام النكبة الأولى بجيش الإنقاذ الذي هبّ لنجدة فلسطين التي ألتف على جسدها اخطبوط الصهيونية بأذرعه الشرسة، فاندفع العجيلي بإيمان راسخ أن روحه قد خلقت للدفاع عن وطن العروبة المهدد من غرباء ينتمون إلى عصابة حملت العداء لكل البشر، و لم تكن المعركة عادلة فكانت عودة العجيلي الخائبة مع من تبقى من المعركة بداية الإصرار بانتماء ليس للبلد الذي ولد فيه فحسب بل إلى الوطن الذي يمتد في أعماقه إلى أقصى الحدود التي تنطق العربية بكلامها وأحلامها.

و لم تكن حكاية الزمن هي التي تحتل كل مساحة العجيلي، بل إن العجيلي الذي شدّه الأدب إليه في أيام فتوته قد استيقظ الجوع إلى المعرفة عنده، فجعل يلتهم آلاف الصفحات من كتب التراث ومن دواوين الشعر في أزهى عصوره ومن حكايات وأمثال وسير، فتكونت لديه ثروة مبكرة من مخزون الأدب والحكمة، كان له الأثر في تفجير موهبته الخفية، وها هو ينظم الشعر كتابة وارتجالاً ثم ما لبثت حكايات قرأها أو اخترعها أن دفعته إلى كتابة القصص والروايات كحكواتي عصري ولكنه أصيل، فأضاف إلى مخزون القصّ العربي الحديث أهمية بالغة، والتي لا يميز فيها الواقع الملموس من المتخيل والمخترع، فكان واحداً من أهم البنّائين لصرح الأدب الحكائي في الثقافة العربية.

ومن طرف آخر وبالرغم من ارتباطه القدري بالإبداع الأدبي فإن العجيلي سيجد نفسه بعد أن لمع حضوره كنائب في البرلمان ممثلاً للشعب الذي نال استقلاله حديثاً، وهاهو بعد سنوات بات وزيراً للثقافة وكذلك وزيراً للخارجية، وما زالت

ستتأكد أهميته لاحقاً وذلك عندما تحوّل إلى ذاكرة وطنية ظهرت في الأعمال التي كتبها عن السياسة السورية في مرحلة دقيقة من حياتها.

وأذكّر بحكايات رحلاته في أرجاء مختلفة من العالم، فقد رسم بها حقائق عوالم زارها بألوان الدهشة والكشف عن وقائع قدمت لنا صوراً بالطيف التاريخي الذي أتقن العجيلي استخراجه من أبعاد اللغة وأسرارها، وأذكّركم بحكايات سجل فيها بفنية يحسد عليها انطباعاته الطبية وقد تخفت تحت قناع (عيادة في الريف)، فلا هو كاتب مذكرات فحسب بل إنه باحث إنساني حقيقي حسبت حكاياته ظاهرة أدبية/ طبية تفتح الأفق أمام حضور جنس أدبي..إلا أنه لم يقتصر في مغامراته الكاشفة عن ذلك الجنس بل كان في محاضراته يبتدع جنساً أدبياً آخر.

وحكاية المحاضرات التي كثر الطلب عليها كما لم يحدث مع كاتب آخر، وقد كان العجيلي يتحدث في المحافل والأوساط الثقافية في أكثر من بلد عربي وأجنبي فتجتمع عليه الأبصار وتتعلق به الآذان، فيختلط على جمهوره أمر المحاضرة التي جاء بها، هم يتساءلون إن كان العجيلي يكشف عن أمور جديدة كباحث جاد أو أنه يبتدع وسيلة مبتكرة للقص أو أنه يلبس الموضوع الجاد عباءة الحكاية المخترعة.

في محاضرة قديمة له بعنوان (الدم المطلول) روى العجيلي وقائع حادثة اجتمع فيها على التقادم ثلاثة رفاق، تحدث الأول عن شاعر اشتهر بالتجديد وقد اخترق حدود القصيدة المألوفة بمواقف شعرية سبقت زمنها فكان مخلصاً لعالمه الذي يعيشه عبر إبداعه، وحدث أن وجد الشاعر ذات صباح قتيلاً في مكتبه وقد اخترقت جسده رصاصات آثمة، أما الثاني فقد حدثهم عن صديق له يعمل طبيباً أعطى خبرته دواء للناس وخفف عن مرضاه أوجاعهم بعلم ودراية حولت عيادته إلى مقصد للناس بعد أن اشتهر في المدينة الكبيرة كنطاسي بارع، وذات يوم استيقظت المدينة على نبأ مصرع الطبيب وقد تضرجت جثته بالدماء وتلوث نقاء عيادته

من معارفه الشيوخ قد قضى بلا معنى في اعتداء عليه دون أن يراعي المجرم المجهول حرمة السنين التي يحملها العجوز على كتفيه.

وسيتبادل الرفاق الثلاثة نظرات التحسر على فقدان أولئك وهم الشاعر والطبيب والشيخ العجوز، وسيلعنون سوء الحظ الذي يلحق بالإنسان مهما كانت صفته أو موقعه، إلا أن المحاضر سيكتشف في نهاية مقولته عن حقيقة لم تخطر على بال مستمع، فالرفاق الثلاثة كانوا يتحدثون أصلاً عن شخص واحد، وما كانوا ليشيرون إلاّ إلى شخص اجتمعت فيه صفات الشعر والطب والشيخوخة، والذي لم يكن سوى (على الناصر) الذي كان طبيباً من حلب وقد اشتهر ببراعته في الطب وبموهبته الشعرية الحداثية بالرغم من أنه تخطى عتبة السبعين من العمر، وكانت المحاضرة مرثية صادقة قدّمها العجيلي عن صديق له. وكانت تلك المحاضرة نموذجاً لما يمكن أن نسميه بالمحاضرة .القصة وهي بظني أقرب ما تكون إلى الحداثة في القص النثري، فكأن الحكواتي في داخل العجيلي أسفر عن حقيقته في تغلغل الفن في نسيج ثقافته التي يصعب الإمساك بها بعد أن اختلط الطب بالوفاء بالموهبة بحكمة الإنسان المتبصر في روح العجيلي المتوقد. وأشهد أيها السادة الحضور أن العجيلي الإنسان، فله حديث آخر وأتحدث الآن باختصار عن العفة التي يتسم بها وكأنه وضع قاعدة لنفسه ستنسحب على ما يجب أن يكون عليه المثقف الحقيقي من خلق رفيع في العزة وفي التعاطف مع الآخرين وفي الارتباط بالبيئة التي أنجبته وبالسماء التي ظللته وكأنه جاء إلى الحياة ليصبح نموذجاً يستحق الاقتداء به وها نحن نشهد الآن على ذلك.

* * *

سأخالف وصيته

● **سعاد جروس**

لم يأت عام حزين وماطر، كما جاء هذا العام، بدأ بيوم عاصف ومطر موحل، مبشراً بحزن غريب عن ربيعه، حمل إلى سورية وفاة قامتين من قاماتها الباسقة، **محمد الماغوط وعبد السلام العجيلي.** لم نكد نستوعب خبر الأول وانغماسنا في معمعة تحضير أقلامنا لتشييعه، حتى حلَّ خبر العجيلي مباغتاً وصاعقاً، وسابقاً أيضاً الماغوط إلى المثوى الأخير، وكأنه استغل فرصة انشغالنا كي يحرمنا عناء تأبين لا يحبذه، موصياً أهله بجنازة عادية وبسيطة، لا خطابات ولا قصائد، موت هادئ كطبيعته. وهكذا لم يقيض للذين أحبوه من خارج بلدته سوى متابعة مشاهد الجنازة في التلفزيون، محرومين نظرة الوادع الأخير، والتعبير حتى بالكلمات عن واجب لا بد من قوله في هذه المناسبة.

رده كان قاسياً على تقصيرنا تجاهه. كان يجب أن نكون أكثر قرباً منه في ساعاته الأخيرة، لكن خطأ ما حدث، وظننا أنه سيجتاز أزمته الصحية الأخيرة كما اجتاز سابقاتها، ربما لثقتنا العمياء بقدرته على التغلب على المرض، وأيضاً لسوء تقديرنا أعباء عمر قارب الثامنة والثمانين، إذ طالما ضللنا بشبابه وحيويته، فخلنا أن الشيخوخة مرتبطة بالعجز والوهن، ولم يكن عاجزاً ولم نره واهناً؛ أو أن أعراض الشيخوخة لا تأتي دفعة واحدة، وإذا جاءت فهي تمتد طويلاً، لكنه كان يعاني الأوجاع ويخفيها عنا.

اعتقدت أن ابتعاده لن يطول، وقريباً سيخبرني أنه في مقهى الشام مع ثلة أصدقاء مقهى "البرازيل"، فأسأله عن جدول أعماله في دمشق وأين موقعي فيه، فيحدد موعداً لي في اليوم التالي، وكالعادة أتأخر، وكالعادة يؤنبني ممازحاً بمثل

فأسأله إن كان قد كتب إجاباته عن أسئلتي، وقبل أن يفرد أمامي الأوراق، يرد علي واصفاً بعضها بأنها كأسئلة المخابرات، ومع ذلك كان يجيب عنها متسائلاً، ما الذي سأفعله بحوار طويل لا يتسع له سوى كتاب؟**!.**

كان الحوار فعلاً مشروع كتاب، و لم يبخل عليَّ، فقد مدّني بمجموعة كبيرة من الصور إضافة إلى مقالات وقصائد ووثائق لم ينشرها، طالباً مني عدم نشرها قبل وفاته. وكان كلما ورد ذكر الموت يوصيني بألا أحزن على فقده .وعادة أبادره بضحكة عابثة لإخفاء ذعري، قائلة له، أمثالك يا دكتور لا يموتون، أنت جزء من ذاكرتنا الوطنية التي لا يجب أن تموت.

تمنى العجيلي موتاً بأسهل الأسباب ,يدهمه وهو في أتم العافية. وكان يبرره قائلاً بابتسامة: **"لقد شبعت من الحياة، عشتها بكل ما فيها، وما عدت أرغب في المزيد".** في حين كنت تواقة لأعرف المزيد عنه، والإمعان في خصاله الفريدة، والتتلمذ على شخصه النبيل، وتأمل كيف تكون القناعة كنزاً لا يفنى حين تفتح الحياة ذراعيها فتمنح المكانة والشهرة والمال؟**!** أليس لغزاً أن يدير العجيلي ظهره لسخاء الحياة هذا، كرمى لعين مريض أو محتاج إلى المساعدة، بل ويعلمنا كيف يكون الإنسان القيمة الأكثر ثباتاً في عالم تتداعى فيه القيم والمبادئ.

هل ذهب زمان العجيلي؟**!** الزمن يذهب أما العجيلي فيبقى، إذ مازلنا بحاجة إلى تجربته في الحياة والأدب الآن أكثر من أي وقت مضى، والتعلم من حكمة تنضح من تجربة نضال عنيد في سبل الحياة. فهو النائب الذي تخلى عن كرسيه ليلتحق بجيش إنقاذ فلسطين، والطبيب الذي لم يتخل عن مرضاه وكان له دور أساسي في مكافحة شلل الأطفال والقضاء عليه تقريباً، وهو الذي أعطانا درساً في اتساع البلدات الصغيرة والنائية للطموحات الكبرى. فاستحق وصف أهل الرقة لجنازته أنه "مات على سروج الخيل". مضى معززاً مكرماً، محمولاً على الراحات.

الساعة التي كنت أخشاها جاءت، ساعة أضطر لكتابة مقالة حزينة عنه، أتمنى ألا تشبه التأبين، هذا رجل لم يرحل بعد، رجل ما زال يعلمنا في غيابه مثلما في حضوره معنى الطموح حين يكون المنجز الحقيقي هو الالتزام بالناس وقضاياهم والترفع عن الصغائر، والقدرة على العطاء، دون انتظار مقابل، وكيف يكون الإنسان إنساناً بكل ما في الكلمة من معان سامية، فيقوى بجوهره ومواقفه، لا بسلطة ولا جاه ولا مال، إن جاءت أو ذهبت.

وإذا كان لي أن أخالف وصيته، فأرجو أن يسمح لي أن أحزن عليه، حزني على أقرب الناس إلى قلبي، رحلوا من قبله وما زالوا إلى جانبي.

* * *

أول من صمم علماً عربياً للبنان

الكفاح العربي

طاف يوم الأربعاء الماضي ظهراً موكب تشييع جثمان الطبيب والأديب الكبير عبد السلام العجيلي في شوارع مدينة الرقة وهو في طريقه إلى مثواه الأخير في مقبرة حطين، تتقدمه أكاليل الزهور لتعوض غياب الخطابات والقصائد التي أوصى بأن لا تتلى في جنازة أرادها عادية جداً، ومع هذا لم تأت وفق رغبته، فمكانته المرموقة لا تسمح بذلك، خصوصا أنه ارتقاها عبر حياة غنية امتدت مع بدايات تأسيس الدولة السورية الحديثة من سنة ١٩١٨ التي شهدت دخول الأمير فيصل ولغاية اليوم. وللعجيلي حكاية مع تحديد عام ولادته، فهو إما ١٩١٩ أو ١٩١٨، لأنه لم يكن في منطقته سجلات ثابتة للمواليد، فاختار التاريخ الأول لضيق منه بالذين يحاولون إنقاص ما يقدرون على إنقاصه من أعمارهم، و"كأن فرق سنة واحدة يهب الشباب لمن فارقه". لذا ليس غريباً العام ١٩٤٣ أن يعدل مواليده إلى العام ١٩١٢ بدلاً من ١٩١٨، ليتمكن من الترشح لأول انتخابات نيابية في العهد الجديد، بعد نيل سورية لاستقلالها الشكلي تحت الانتداب الفرنسي، والوعد بإجراء انتخابات نزيهة. لكنه أخفق وأعاد المحاولة في الدورة التالية العام ١٩٤٧ ليصبح أصغر نائب في البرلمان، محققاً وهو طالب في السنة الثانية كلية الطب لعائلته الرغبة في الحصول على كرسي في مجلس النواب الذي فشل جده لأمه، ومن ثم والده بالحصول عليه في انتخابات سابقة. عُرف العجيلي مبكراً بنشاطه الطلابي، كرئيس للجنة الطلابية في ثانوية التجهيز بحلب، وكذلك أثناء دراسة الطب في المعهد العربي بدمشق. ويُذكر أنه تقدم التظاهرات أواخر العام ١٩٤٣، انتصاراً لرجالات لبنان الاستقلاليين ممن اعتقلتهم السلطة الفرنسية آنذاك "الرئيسين بشارة

اللبناني قبل الاستقلال هو العلم الفرنسي مضافاً إليه شجرة أرز في مربع في زاويته العليا. أما العلم الذي ارتجله العجيلي، فكان علم سورية نفسه، وقد وضع ثلاث أرزات حمر، مكان النجمات الثلاث الحمر على الشريط الأبيض بين اللونين الأسود والأخضر. ذلك العلم لم يمثل لبنان سوى في ذلك اليوم.

قبل مباشرته للعمل النيابي، افتتح عيادة خاصة في بلدته، ثم ترك الطب والبرلمان لينضم إلى جيش الإنقاذ، إثر صدور قرار تقسيم فلسطين. وبعد قيام حسني الزعيم العام ١٩٤٩ بأول انقلاب عسكري في سورية، نأى العجيلي بنفسه عن السياسة، ليمكث في عيادته وينصرف إلى الكتابة لغاية قيام حكومة الانفصال العام ١٩٦١، وقد جرى تكليفه العام ١٩٦٢ بين شهري نيسان "ابريل" وأيلول "سبتمبر" بثلاث وزارات، الثقافة والإعلام والخارجية.

في بلدته عرف كطبيب مداوٍ، لكن خارجها عرف كأديب رغم حرصه على أن الأدب كان مجرد هواية، وفعلياً كان أكثر من هواية، عبر من خلاله عن قضايا الأمة والمجتمع بنفاذ وقدرة مع أمانة وإخلاص من العسير أن تجتمع في شخص واحد، كما اجتمعت فيه.

بدأ العجيلي شاعراً وتكرس قاصاً مجيداً وجرب في الرواية وأصبح أحد فرسانها القلائل، واحترف فن المقالة، ليترك لنا أكثر من ٤٥ كتاباً. وقد أدت خصائصه النفسية المتجسدة في سلوكه الشخصي وفي كتابته إلى سوء تفاهم مع الآخرين، فحين كان اليمين غالباً في البلاد، نُظر إليه على أنه يساري، وحين تغلب اليسار رآه كثيرون يمينياً، لأنه لم يرفع عقيرته بشعار معين ,ولم ينحز إلى طرف، وتخلف عن الانتساب لأي تنظيم مؤثراً الابتعاد عن كل ما رآه غير لائق بقيمة الفكر.

حافظ العجيلي على حريته مبتعداً عن التقولب دون أن يعني ذلك الفوضوية أو العدمية، فلم تستهوه يوماً المظاهر الكاذبة والمحاباة والمجاملة، ولم تغره السلطة ولم

لكنه ما أحب يوماً مكاناً أكثر من الرقة. أخلص لأهلها، وكان يقول دوماً إنه لو خير بين الرقة ومكان آخر في العالم لاختار العيش في الكونغو، لأنه بطبعه يهوى الحياة الصعبة. لم يتطلع إلى كسب مادي أو على مقام، ولم يطمح إلى لعب أدوار كبرى؛ كان دوره الأكبر هو حياته التي عاشها طبقاً لمبادئه وأخلاقياته، وكان منسجماً مع نفسه، فلم يدعِ ما ليس فيه، واستطاع أن يكسب احترام الكثيرين، ليس في سورية فحسب بل وفي البلاد العربية والأجنبية أيضاً؛ وبقي طموحه، تأدية واجبه بقدر الإمكان، ولم يكن قليلاً فقدم الكثير قولاً وعملاً. وعلى عكس الكثيرين، لم تشكل المظاهر والمناصب والجوائز سوى أشياء لا لزوم لها، كانت بالنسبة إليه قبض الريح وباطل الأباطيل.

* * *

العجيلي.. في الرواية والقصة

• **محمد قرانيا**

نشر العجيلي قصصه مع أترابه من الرعيل القصصي الأول، من أمثال فؤاد الشايب، وشكيب الجابري وعلي خلقي ومحمد النجار وليان ديراني وسواهم، وقد سكت هؤلاء عن الكتابة في وقت مبكر، بينما ظل العجيلي يتابع الكتابة مطوراً فنه، مما جعله يستحق التقدير ويستحوذ على الإعجاب، فكان أن أصدر مجموعاته القصصية بنت الساحرة ١٩٤٨ وساعة الملازم ١٩٥١ وقناديل إشبيلية ١٩٥٦ والحب والنفس ١٩٥٩ والخائن ١٩٦٠ والخيل والنساء ١٩٦٥ والمتتبع لهذه المجموعات يجد خيطاً دقيقاً يربط بينها ويشدها إلى الروح العربية. بعيداً عن المؤثرات الدخيلة التي شابت هذه المرحلة الزمنية، وله من البيئة البدوية التي عاش فيها خير معين لإذكاء الروح العربية، مما حدا بـ"رياض نجيب الريس" في كتابه "الفترة الحرجة" إلى القول: "عبد السلام العجيلي فارس من فرسان البادية. أتى المدينة سائحاً، وعاش فيها ووعاها فأغناها بقدر ما أغنته، وخرج منها أميراً من أمراء القصة، عنده حسن إلقاء المحدث الذي يعرف كيف يكتب، وكيف يمسك بتلابيب القارئ المستمع، وهو يكتب بعربية البادية الأصيلة الواثقة من نفسها".

وإلى جانب مجموعاته القصصية، فقد أبدع قصة طويلة أو رواية قصيرة بعنوان "**رصيف العذراء السوداء**" ثم كانت روايات "**باسمة بين الدموع**" و"**قلوب على الأسلاك**" و"**أزاهير تشرين المدماة**" و"**المغمورون**" وتعد رواية "باسمة بين الدموع" ناضجة فنياً في زمن صدورها، وتصور جانباً من حكايات هذا الشعب في بلدنا، في أول انفتاح اجتماعي على العالم بعد الإستقلال، كُتبت بأسلوب فني رشيق مزج فيه الكاتب بين مفهوم الفن للفن والرومانسية والواقعية، وهو في كتاباته لم يلتزم

لقد مرّ الأدب الحديث بمرحلة ضياع أو فقدان الهوية، والعجيلي في كل ما كتب بقي مشدوداً إلى أصالته، لذلك كان يلح على القول:"في عصرنا، تكاد تكون مستحيلة عزلة المثقف العربي في برجه العاجي، منصرفاً إلى لذائذ المعرفة، أو إلى متعة الإبداع الفني، فالقضايا العامة من محلية وقومية وإنسانية تنفذ إليه مع خبزه اليومي"..

إنه شعور الإنسان الحساس الذي يرسم الصور بعفوية، ومن دون أن يكون للقلق العصري مجال للتلسط على فكره وأدبه:"إن كتابتي طبيعية وسهلة خالية من التعقيد.. أطرح فكرتي طرحاً مباشراً دون إشارات أو قيود، لأنني أملك حريتي الكاملة بما أريد.. كوني غير محترف بالأدب، أحاسيسي هي التي تسيطر عليّ، أرفدها بالتجربة وظروف العمل..".

والتجربة وظروف العمل تكشف عن رافد هام من روافد أدبه، وترصد هذا العطاء الغزير لديه، إذ إن لكل مريض قصة لدى طبيبه، وكل قصة تحمل ألواناً من الظلال، وتوحي بألف فكرة، وقد نوّع في عطاءاته التي نقلت جوانب من البادية والمدينة السورية والأوروبية، وهذا ما عبّر عنه مارون عبود بقوله:"لا تغرّك قيافة الدكتور العجيلي الفرنجية.. فهو يخفي بداوة قلما نجد لها نظيراً في الصحارى، وكما لم تخفَ بداوة المتنبي في شعره بعد ما عاش في القصور، كذلك لا تخفى بداوة العجيلي في أشهر العواصم الأوروبية التي عاش فيها..".

برع العجيلي في أدب الرحلات، فقد أجاد هذا الفن وبلغ فيه مكانة مرموقة، وله من رحلاته وأسفاره الزاد الوافي، ولم ينفعل بما كان يراه ويسمعه في البلاد الأوروبية التي يزورها، والتي طغت على أدبها موجة الضياع والتشرد والقلق.. وهو القائل" إنني صادق مع حرفي.. والصفاء رسالتي، وأعتقد أنني حققت إلى حد تصوير بيئتي وبالتالي رسالتي الأدبية" ويقول: "والرحلات أضافت لعالمي عالماً

كما برع العجيلي في فن الرسائل الذي استوى على يديه في قصته **(لقاء كل مساء وثلاث رسائل أدبية)** من مجموعة **"الخيل والنساء"** حين تحدث عن الحب، فأجاد في التشويق، والوصول إلى أبعد أبعاد المتعة الفنية لدى القارئ.

كتب العجيلي عن المجتمع والفكر في رواية، باسمة بين الدموع، وكتب عن قضية فلسطين في قصة-كفن حمود- أينما كان-بريد معاد-القفاز- وبنادق في لواء الجليل التي تروي واقع أمته وواقع المجاهدين المؤلم مع البنادق العتيقة، وجشع السماسرة ومتاجرتهم بهذا السلاح الفاسد. كما خلد بطولات جيشنا العربي السوري في حرب تشرين المجيدة، في رواية (أزاهير تشرين المدماة).

كتب العجيلي عن الأساطير والتراث في الخيل والنساء، ورسم أسطورة مجنحة من أساطير البادية الساحرة بكل أصالة وسعة أفق ومعرفة، وخرج أدبه مصوراً للبيئة العربية.. وهو لا يصور مجتمع البادية أو الرقة أو دمشق، ولكنه ينطلق إلى كل قطر عربي ليضع لنا ملامح الإنسان العربي. وقد سار بأبطال قصصه وأحداثها عبر توقيت دقيق، وفي ساعات مرسومة، ومواقف زمنية مدروسة، لا تدع مجالاً للقارئ أن يتخبط في سيره الزمني. إذ إن لكل فصل لباسه ونزهاته وجوه الخاص ومتطلباته، وهذا أمر يبعث على الإعجاب والتقدير بأدبه وفنه.. كل شيء لديه يتجه اتجاهاً صحيحاً، والإطار واضح محدد الأبعاد، والفكرة عمل هندسي مستوف للشروط والمقاييس الفنية.. والنظرة الحياتية عميقة، أغنتها التجارب الاجتماعية بكل تقاليدها العريقة، أغنتها بالموضوعية والانتماء إلى الشعب في وضعه العربي ومشكلاته، وهو ابن البادية المرهف الحس، الذي ارتضى الطب مهنته، وجعل من القصة عشيقة يبثها لواعج أعماقه.

قصص العجيلي ورواياته زاخرة بالفرح، خالية من الموضوع المأساوي النابع من إحساس الفنان العصري تجاه الحياة الراهنة بكل أحداثها، من سلب وإيجاب، وقد

كان يطل على القارئ من شرفة جلية الملامح، تنّم عن أصالة الـــروح العربيـــة الصافية بأسلوب فريد. وصفه د. عمر الدقاق بأن "قوامه الاستجابة لدواعي النفس والشعور والتعبير الصادق الأصيل عن المنازع الإنسانية، ضمن إطار فني، وهـــو في كل ذلك يحرص على أن يكون شخصياً في نتاجه بعيداً عن الاحتذاء والتأثر.

* * *

أيقونة المدينة

- **اسكندر حبش**

"أروع بدوي عرفته الصحراء، وأروع صحراوي عرفته المدينة"، هذا ما قاله عنه ذات يوم نزار قباني. "إنه رائد القصة العربية القصيرة"، هكذا اعتبره القاص المصري يوسف إدريس. ولو حاولنا أن نعدد النعوت والأوصاف التي أطلقت على الكاتب السوري عبد السلام العجيلي (الذي غيبه الموت نهار أمس عن عمر يناهز الثماني والثمانين سنة، من مواليد العام ١٩١٨) لامتد بنا الوقت والمساحة. وهي صفات تؤرخ فعلاً لتاريخ هذا الرجل، الطويل والمتنوع ما بين الكتابة والعمل السياسي ومهنة الطب التي مارسها طيلة عمره، مثلما هي تؤرخ لمكانته في الأدب العربي الحديث.

ومع ذلك كله ثمة مفارقة لا بد أن يطرحها المرء: هل قرأنا حقاً عبد السلام العجيلي على الرغم من أنه يرحل عن أكثر من أربعين كتاباً موزعاً بين الرواية والقصة القصيرة وأدب الرحلات والمذكرات إضافة إلى ديوان شعري واحد، ناهيك عن المقالات الصحافية الكثيرة، المتنوعة بدورها، (كتب أيضا في المجال الطبي)، وتحت العديد من الأسماء المستعارة، إذ يقال إنه استعمل اثنين وعشرين اسماً مستعاراً.

أطرح هذا السؤال حول "المفارقة"، إذ كنّا نهار أمس أمام "حزورة" ما، فغالبية الكُتّاب الذين اتصلنا بهم، من أجل كتابة شهادة عن الراحل، اعتذروا لأنهم لم يقرأوا له شيئاً. فعلاً مفارقة كئيبة لشخص اعتقد أنه يمكن للأدب أن يغير الواقع، وأنه يحمل رسالة اجتماعية ما في سبيل حياة مختلفة. بمعنى آخر، وكأن العجيلي أراد أن يداوي الجسد من خلال مهنته كطبيب وأن يداوي النفس من خلال عمله

العربية، من دون أن ننسى بالتأكيد أن علينا وضعها في سياقها التاريخي والزمني التي كتبت فيهما.

هذه المفارقة الزمنية تتجلى أيضاً في واحدة من رواياته الأخيرة "أجملهن" التي يعود فيها إلى "زيارة" موضوع عالجه الأدب العربي منذ الأربعينيات، نحن والغرب عبر علاقة حب مع فتاة أجنبية. هكذا قرأنا "موسم الهجرة إلى الشمال" للطيب صالح و"الحي اللاتيني" لسهيل إدريس و"عصفور من الشرق" لتوفيق الحكيم، وغيرهم. لكن ما ذهب إليه عبد السلام العجيلي هو أبعد من تضييق زاوية الكتابة في حيّز من الأفكار الخالصة، إذ نجده في كتابه هذا التي تدور أحداثه في النمسا يجنح إلى الكتابة عن المدينة بشكل أكبر: نجد وصفاً لأزقتها وشوارعها، وصفاً لمعالمها الأثرية، مياه "الدانوب" التي تثير فيه العديد من الأحاسيس التي تأخذنا معها في تساؤلات حول الفن والجغرافية والأدب. بمعنى آخر يفسح العجيلي في روايته هذه مكاناً كبيراً لأدب الرحلات، فالحكاية وإن تأطرت بقصة الحب وبأن سوزان (بطلة الرواية) هي أجمل فتيات الأرض، إلا أنه يفرد مكاناً لهذه "الاستذكارات الثقافية"، أي ما كان قرأه حول تلك البقعة من العالم. هنا أيضا تكمن إحدى خاصيات العجيلي، فهو كاتب لأدب الرحلات بامتياز. كأن المكان يصبح هو الحجة كي يصوغ عالمه الكتابي.

من هذه المفارقات المتعددة، قد يبدو عبد السلام العجيلي بالنسبة إلى كثيرين وكأنه كاتب يأتي من عالم آخر، من ذلك "العالم القديم" المؤمن بأن الأدب يستطيع أن يكون حراكاً اجتماعياً بهدف تغيير الواقع الذي نعيش فيه. "المفروض في الأديب في هذا العصر وفي كل عصر-مثلما قال لي في حديث أجريته معه ونُشر في السفير في كانون الثاني من العام ١٩٩٦- أن يكون فرداً داعياً بين أفراد الأمة، مطلعا على قضاياها ومشاكلها أكثر بكثير من غيره. يضاف إلى هذا الوعي والاطلاع كونه

هي واحدة من تلك الأفكار التي انتشرت، لا في الأدب العربي فقط بل في جميع أنحاء العالم: أن يكون للمثقف الدور الفاعل في حياة بلاده الاجتماعية. ربما نجفل اليوم من أفكار مماثلة، التي غالباً ما تأتي عبر أساليب واقعية. لكن هل يتحمل أسلوبه "الواقعي" فعلاً، مسؤولية أن لا يجد قرّاء حديثين بالرغم من أن اسمه يحضر في تاريخ القصة والرواية العربية منذ بدايات القرن العشرين؟ بالتأكيد لا يمكننا جعل السؤال مفترقاً نقدياً، ولكن علينا أيضا أن نجعل من الأدب سيرورة واحدة في تغيّراته الكثيرة، أي علينا أن ننظر إليه أيضاً من زاوية خطه الأفقي، من بداياته وحتى النقطة التي وصلنا إليها. بهذا المعنى، لا نستطيع أن نرفض الأجيال السابقة حتى وإن كانت كتاباتهم تبدو بعيدة عنا، إنها هي التي بدأت بعملية التطوير ولأن أعمالهم هي التي قادتنا إلى كل التجارب الحديثة التي نحاولها اليوم.

في مقدمة كتابه **"جيل الدربكة"** يقول عبد السلام العجيلي إنه بدأ الكتابة العام ١٩٣٧. أي نحن أمام شخص "تورط" في الكتابة لمدة تناهز السبعين سنة. "ذهبت إلى الكتابة بدافع تقليدي" -مثلما أسرّ في الحديث عينه-إذ بدا متأثراً بما قرأه في صباه بالكتب التي كانت تقع بين يديه في "بلدته" الرقة، التي لم تكن قد أصبحت محافظة بعد. أولى كتاباته كانت نظم الشعر الذي حاول أن يقلد فيه نتاج الأوائل، ليغرف في ما بعد من الأقاصيص الشعبية والدينية. لكن الكاتب لم يتوقف بالطبع عند هذه النقطة، التي يبدأ منها عادة، غالبية كتّاب العالم. لم يتوقف عن ذلك لأن المتابع لمسارات العجيلي، سيرى فعلا محاولاته الدؤوبة والدائمة، كي لا يقع في نمط كتابي واحد، في أسلوب واحد. لقد أفسح في المجال لعدد كبير من التجارب وكأنه كان يشعر بضرورة ذلك: ضرورة أن يجدد الكاتب نفسه. صحيح أن الزمن تغير اليوم، لكن لو حاولنا أن نقيس رواياته وأقاصيصه وفق المفاهيم التي كان تسيره والتي كان يعمل من خلالها، لوجدنا فعلاً هذا الاختلاف عن باقي أبناء جيله.

التي سعت إلى الحيلولة دون إنشاء دولة إسرائيل، قبل دخول الجيوش العربية بصورة رسمية الحرب في العام ١٩٤٨. بيد أن المفارقة الأخرى، التي يتحدث عنها هي أن مشاركته "عرفتني بأمور كثيرة عن أحوال قادتنا وحكامنا وشعبنا وأمتنا، فتحت عيني على ما كنت أجهله أو ما كنت مخدوعا به من أمور خطيرة.. هذه المعرفة أحدثت في مشاعري إحباطاً كبيراً جعلني أنفر من ممارسة السياسة لأني شعرت بأن العمل السياسي بالشكل المفروض علينا كان يدعو السياسيين إلى التنازل عن كثير من قناعاتهم و لم أجد في نفسي القدرة على التنازل عما كنت مقتنعاً به في سبيل الاحتفاظ بكرسي النيابة أو الوصول إلى مقعد الوزارة أو التمتع بالنفوذ الذي يتمتع به السياسيون عادة".

هو جيل الخيبة. هذه الخيبة التي لم تتغير حتى اليوم. من هنا، هل يمكن للأدب أن يخرجنا منها؟ رهان فيه الكثير من المجازفة، ومع ذلك، قد لا يكون أمام البعض سواه. من هذه النقطة استمر العجيلي في الكتابة، مثلما استمر في ممارسة مهنته كطبيب، علّه يشفي ما يستطيع شفاءه: "هذا الأمل" الذي يراودنا.

في مؤتمر العجيلي الأول للرواية العربية الذي أقيم في الرقة منذ مدّة قصيرة، أطلق على هذا المؤتمر عنوان "العجيلي أيقونة الرقة". كان فعلا هذه الأيقونة. لنقل أيضاً كان المدينة. قليلون هم الذين ارتبطت أسماؤهم باسم مدينتهم بهذا الشكل الضيق. ربما هو شرف الكتابة في بعض الأحيان.

كان أروع بدوي في المدينة

- **نبيل سليمان**

على إيقاع نكبة فلسطين (الأولى) وقيام إسرائيل عام١٩٤٨، تطوع نائب شاب في البرلمان السوري في جيش الإنقاذ: إنه الدكتور عبد السلام العجيلي الذي كان في التاسعة والعشرين، وقد تخرج قبل ثلاث سنوات من المعهد الطبي العربي في دمشق-كلية الطب في جامعة دمشق لاحقاً-وكان دخل البرلمان منذ سنة نائباً عن المحافظة التي ينتمي إليها:الرقة.

مع أكرم الحوراني وغالب العياش من أعضاء البرلمان ومع آخرين من خارجه-من بينهم القيادي إخواني مصطفى السباعي- مضى ذلك الشاب إلى فلسطين. وقد وشمت روح العجيلي تلك الشهور القليلة التي قضاها في فوج اليرموك الثاني تحت قيادة أديب الشيشكلي. فمن تلك التجربة حمل الرجل خيبة مريرة ودائمة، و متح جملة من أفضل ما كتب من القصة القصيرة، ومنها قصة "كفن حمود" من مجموعته القصصية (الحب والنفس-١٩٥٩). وقبل ذلك، ومن الحرب نفسها، جاءت في مجموعة "قناديل إشبيلية" قصة "بنادق في لواء الجليل"، وقصة "بريد معاد".

لعل للمرء أن يؤكد أن نداء فلسطين كان يدوم في دخيلة عبد السلام العجيلي منذ تعالت أصداء ثورة ١٩٣٦. آنئذ، سافر لأول مرة إلى دمشق دون علم أهله، وهو الطالب الذي نال لتوّه الشهادة الثانوية(البكالورية) معتقداً أنه استوفى العلم. أما غاية السفر فقد كانت التطوع في صفوف الثوار. ومنذ ذلك الحين لم يغادر نداء فلسطين عبد السلام العجيلي. فعلى إيقاع هزيمة ١٩٦٧يكتب قصة "نبوءات الشيخ سلمان" من مجموعة (فارس مدينة القنطرة-١٩٧١)عائداً إلى تجربته في حرب١٩٤٨، ليرسم وصول متطوعين في جيش الإنقاذ إلى قرية بيت جن، حيث

خبثاء-في آن- فسيموتون في بلادهم في سبيل فلسطين، ثم:"جماعات إثر جماعات تتعاقب ثم تنقرض على هذا السبيل. يجيء الطيبون في البدء ويذهبون، ثم الأقل طيبة، ثم يأتي الخبثاء. نعم. إن الخبثاء لا بد قادمون. أولئك الذين يبيعون أرضهم وملّتهم، ويتظاهرون بأنهم يضحون في سبيل الأرض والله، ويأتي بعد ذلك الخونة الكاذبون، ثم خونة صادقون، لا يبيعون الأرض، بل يتنصلون منها. كل من هؤلاء سيأتي بدوره. من ينفض يده من فلسطين، لأنها وقعت في حفرة أعمق من أن تلحقها يده المنقذة، ومن يبيع آلامها وأطفالها بفلس أو بضحكة امرأة. ويأتي من دمك ولحمك من يتنصل من فلسطين لأنها تنغص نومه أو تفقر جيبه. وبعد كل هؤلاء يأتي الآخرون. إذا كان من قبلهم قد قبض الثمن الذي باعه من تراب الأرض المقدسة، أو من دم أهلها، فإن هؤلاء سيدفعون فوق الأرض ثمناً لخلاصهم منها ومن أهلها. حينذاك، حينذاك فقط، بعد أن يموت الناس ويحترق التراب، ويحكم الفاشل، ثم العاجز، ثم الخائن، ثم الفاجر، ثم تهتز جنبات الأرض، وتجبل الأمة بألم لتلد المنقذ المطهر. هل فهمت ما أقول؟"

إذا كان إيقاع حربي ١٩٤٨و١٩٦٧ متعنوناً بفلسطين، يصدح في هذه القصة، فسوف يصدحان أيضاً في قصة "فارس مدينة القنطرة" من المجموعة التي حملت هذا العنوان. لكن الإيقاع إياه يحفر في التاريخ هذه المرة ليبلغ الأندلس وهو يطوي الأزمنة ما بين الماضي البعيد والقريب، وما بين الحاضر والمستقبل. لكأن القصة تشير إلى سقوط مدينة القنيطرة في حرب ١٩٦٧، حيث تتصادى الأسباب عبر القرون، في الجاسوسية والخديعة والخيانة، وبدرجة أدنى كما تعبر القصة، في الفرقة والشقاق.

بعد قليل من حرب ١٩٤٨وبدء مسلسل الانقلابات العسكرية في سورية، خرج عبد السلام العجيلي من الحلبة السياسية. لكنه عاد إليها حين تولى لستة

أن هذا العهد أضاف للسياسة في كتابة العجيلي عنواناً جديداً إلى جانب عنوان فلسطين، هو الاستبداد، وسيكون للسياسة عنوان آخر هو حرب تشرين الأول (أكتوبر)١٩٧٣، فعنوان رابع هو الفساد، وبالطبع ستشتبك هذه العناوين أو بعضها، في روايات الكاتب بخاصة.

ولد العجيلي في الرقة عام١٩١٨-على الأرجح- وتربى على يد جده الصارم تربية اسبارطية كما يذكر. وقد تلقى تعليمه الابتدائي في الرقة، وحمل الشهادة الابتدائية (السرتفيكا) عام ١٩٢٩، ثم مضى إلى تجهيز حلب، لكن المرض أعاده إلى الرقة ليقضي أربع سنوات في قراءة كتب التاريخ والدين والقصص الشعبي ودواوين التراث الشعري. ثم تابع دراسته في حلب ودمشق ليعود إلى الرقة طبيباً، ويشرع باب عيادته فيها منذ ذلك الحين حتى نيّف على الثمانين، إلا أن يكون في واحدة من رحلاته الكثيرة، من دون أن ننسى فترتي النيابة والوزارة. وهنا يلاحظ بقوة أن العجيلي ظلّ يتحوط على حياته الشخصيّة، كما يتحوط على حياته السياسية، فلا يبقى للمرء إلا ما يقدر من انسراب السيرة في بعض كتاباته. ولا يخرج عن ذلك إلا الترر الذي ضمّه كتاب (أشياء شخصية -١٩٦٨).

لقد ظلت الكتابة واحداً من أسرار العجيلي حتى حمل البكالورية. فقد نشر عام ١٩٣٦ قصته الأولى (نومان) بتوقيع (ع ع) في مجلة (الرسالة) المصرية المرموقة. كما نشر بأسماء مستعارة قصصاً وقصائد وتعليقات في مجلة (المكشوف) اللبنانية وفي سواها من الدوريات الدمشقية إلى أن فضح السر سعيد الجزائري. ويبدو أن حياة العجيلي الدمشقية، طالباً ومن بعد نائباً، قد كانت بالغة الثراء. ففي عام ١٩٤٣ فازت قصته "حفنة من دماء" بجائزة مسابقة القصة التي نظمتها مجلة الصباح. وفي عام ١٩٤٥ شارك في رحلة إلى مصر، وحضر حفلة أم كلثوم السنوية حيث التقى بالشاعر أحمد رامي. كما أنجز في هذه السنة مجموعته

العام نظم مع عدد من الظرفاء والكتّاب "عصبة الساخرين" من بينهم سعيد الجزائري وعبد الغني العطري، وكان العجيلي من اقترح للعصبة اسمها.

طالما ردد العجيلي أن الأدب بالنسبة إليه متعة وهواية، بالكاد يبقى لها من وقته القليل الذي يفضل عما تقتضيه مهنة الطب والرحلات والأسرة وإدارة إرث أبيه منذ توفي عام ١٩٦٣، وكذلك السياسة والشأن العام الاجتماعي والسياسي. وها هو يقول :"إنني لا أنظر إلى الكتابة الأدبية كعمل بل كنوع من أنواع السلوك". وهو لا يعني بذلك أي انتقاص من الاحتراف. غير أن العجيلي، بعد ذلك كله، كتب وبغزارة القصة القصيرة والمقالة والرواية، وهو الذي كتب في بداياته الشعر والمسرحية، كما كان لأدب الرحلات وللمحاضرات منه نصيب كبير.

ففي القصة القصيرة، وبعد مجموعته الأولى "بنت الساحرة"(١٩٤٨) كتب المجموعات التالية:"ساعة الملازم"(١٩٥١)، "قناديل إشبيلية"(١٩٥٦)، "الحب والنفس"(١٩٥٩)، " الخائن"(١٩٦٠)، "رصيف العذراء السوداء"(١٩٦٠)، "الخيل والنساء"(١٩٦٥)، "فارس مدينة القنطرة"(١٩٧١)، "حكاية مجانين"(١٩٧٢)، "الحب الحزين"(١٩٧٩)، "فصول أبي البهاء"(١٩٨٦)، "موت الحبيبة"(١٩٨٧)، "مجهولة على الطريق"(١٩٩٧).

أما الرواية، فقد جاء العجيلي إليها أول مرة عام ١٩٥٩ بروايته "باسمة بين الدموع" ثم تتالت رواياته:"قلوب على الأسلاك-١٩٧٤" و"ألوان الحب الثلاثة-١٩٧٥" بالاشتراك مع أنور قصيباتي، و"أزاهير تشرين المدماة-١٩٧٧"، و"المغمورون-١٩٧٩". وسيكون علينا بعد ذلك أن ننتظر حتى عام ١٩٩٨ قبل أن تأتي روايته "أرض السِّياد" ثم "أجملهنّ" عام ٢٠٠١، ذلك أن ألواناً أخرى من الكتابة ستتقدم على الرواية، وفي رأسها (المقالة) التي تتلبس بها (المحاضرة)، وفيهما للكاتب: أحاديث العشيات (١٩٦٥)-السيف والتابوت(١٩٧٤)-عيادة في

العجيلي(١٩٩٤) -محطات من الحياة (١٩٩٥) -ادفع بالتي هي أحسن (١٩٩٧) -أحاديث الطبيب (١٩٩٧)-خواطر مسافر (١٩٩٧).

في هذه الفئة من نتاج الكاتب يأتي الالتباس أيضاً بالحكاية وبأدب الرحلات. وقد أفرد الكاتب لهذين اللونين الكتب الثلاثة التالية: حكايات من الرحلات (١٩٥٤) –دعوة إلى السفر (١٩٦٣) –حكايات طبية (١٩٨٦). وإلى كل ذلك، للكاتب ديوان شعر وحيد هو "الليالي والنجوم" (١٩٥١) وكتاب واحد في المقامة هو "المقامات"(١٩٦٣) وكتاب واحد ضمنّه محاورات صحافية هو "أشياء شخصية"(١٩٦٨)، وكتاب واحد في المراثي التي تعيد الالتباس بالمقالة والمحاضرة، وهو "وجوه الراحلين"(١٩٨٢). كل ذلك والكاتب هاو. فكيف لو كان محترفاً؟

من تقنيات القص جرّب العجيلي الرسائل والمذكرات والأحلام والمونولوج والتفريع.. ولئن كان ذلك يؤشر بخاصة إلى الكلاسيكية في القص –ومنه تقنيات السرد التراثي العربي-فليس يخفى ما كان للعجيلي من تجديد في هذه الكلاسيكية. ومن هنا جاء وصف القصة العجيلية بالكلاسيكية الجديدة أو النيوكلاسيكية. وتلك هي واحدة من بدائع ما كتب: إنها قصة "سالي" التي يرمح فيها الفضاء بين باريس واستوكهولم ومضرب العشيرة في البادية، فتُشرع بذلك الكوة على شاغل أخر يتعنون بـ(الشرق والغرب). ولسوف تشغل هذه الإشارة قصة "رصيف العذراء السوداء" أيضاً، وهي القصة التي تضاعف في قصص العجيلي التباس التجنيس بين القصة والرواية، بين القصة الطويلة والرواية القصيرة. كما تنسرب الحكاية إلى ما كتب العجيلي من القصة، وتتلبس بها، والأمر نفسه يبدو فيما كتب من أدب الرحلات ومن المقالة. والأمر هو كذلك فيما كتب من الرواية والمقامة. ولعل جماع ذلك يؤكد للعجيلي لقب الحكواتي إضافة إلى ألقاب الروائي والقاص والمحاضر والرحالة والمثقف، من دون أن ننسى لقبي الطبيب والسياسي، ومن دون

بالمقامة القنصلية (١٩٤٩) وسما فيها نزار قباني بصريع الغواني أبي النهد الأشقراني، ومنها ما ينظمه العجيلي على لسان قباني معرّضاً بديوانه الأول "قالت لي السمراء":

قالت لي السمراء إنك باردُ فأجبتها بل أنت مني أبرد

ترمين بالنعل العتيقة عاشقاً يروي حكايات الغرام وينشد

وقد جاءت المقامة الباريسية(١٩٥٢) في هيئة رسالة أيضاً أرسلها العجيلي من الرقة إلى صحبه في باريس، ومنهم عبد الرحمن بدوي ويونس بحري وأديب مروة.. وبهذه المقامة ودّع العجيلي هذا اللون/الإلهية من الكتابة، من دون أن يتخلى عن السخرية والإخوانيات في بعض كتاباته التالية غير الإبداعية.

عن روايته الأولى "باسمة بين الدموع" يقول العجيلي إن رياض طه صاحب مجلة الأحد اللبنانية ظل يلح عليه حتى تعاقد معه على أن يكتب للمجلة رواية مسلسلة. وفي عودته من بيروت تدهورت سيارته فكتب عن ذلك الحلقة الأولى في الرواية الموعودة، ثم تتالت الحلقات، وكانت الرواية الأولى للكاتب.

وفي تقديم جاك بيرك لترجمة رواية "قلوب على الأسلاك" إلى الفرنسية تحت عنوان "دمشق القطار المعلق"، يصف بناءها بالكلاسيكي الضخم المحكم والسيمفوني والزاخر بعشرات اللوحات والأحداث والمحاور. لكن بيرك لم يأبه بالانشغال الكبير للرواية بالوحدة، وهو ما سيشغل رواية العجيلي التالية "ألوان الحب الثلاثة". ولقد كنت أثناء إقامتي في الرقة التقيت عبد السلام العجيلي في بيته بصحبة أنور قصيباتي، وحدثنا عن رواية لم يستطيع إكمالها ولا ينوي العودة إليها، هي "ألوان الحب الثلاثة". وانتهى اللقاء بالاتفاق على أن يكمل الزائران الرواية، لكنني شُغلت عن الأمر بمشروعاتي، بينما تابعه أنور قصيباتي، فجاءت الرواية تحمل اسمه واسم عبد السلام العجيلي.

قدم العجيلي أربع روايات في سبعينيات القرن الماضي. لكن ما يقرب من العقدين سينقضي قبل أن تأتي الرواية الخامسة"أرض السِّياد"، وبالفضاء نفسه الذي كان لرواية "المغمورون": فضاء الرقة. ثم كان الختام في رواية "أجملهن"(٢٠٠١).

بكل ما تقدم باتت لعبد السلام العجيلي مكانته الكبرى، مما جعل جان غولميه يقول فيه: "غوته وستاندال وفلوبير أسماء أعلام في الأدب مشهورة، وعبد السلام العجيلي يستحق أن يشبه بأساتذة فن الرواية الكلاسيكية هؤلاء". ولقد قال نزار قباني في العجيلي أيضاً: "أروع بدوي عرفته المدينة، وأروع حضري عرفته الصحراء". فأثر عبد السلام العجيلي الذي انطلق منذ ستين سنة من دائرته الصغرى (الرقة)، سرعان ما دوّى في الكتابة وفي الحياة الثقافية والعامة في الفضاء السوري خاصة، وفي الفضاءين العربي والعالمي عامة.

* * *

.. الريادة الأسمى

• **محمد شويخنة**

انشغل العجيلي طوال عقود في كتاباته الغزيرة والمتنوعة بقضايا الوطن الكبرى، وأساساً بالإنسان، على صعيد الاهتمام بعوائق التشكل الاجتماعي والوطني والقومي، إضافة إلى انشغاله في التعبير عن بيئة خصوصية محكومة بالبداوة في قيمها الأصيلة، وعبر شخصيات شديدة الارتباط بعاداتها ومثلها ونمط عيشها وتفكيرها، الأمر الذي يجعلها عرضة لصراع شاق ومخاض عسير وهي تعاني عسر التحولات الحاصلة في المجتمع العربي الآخذ بالتحديث، المنصرف عن تلمس آلام وحساسية الشرائح الاجتماعية المتنوعة التي عرض لها العجيلي في أدبه. وقد تظاهرت مكامن العطاء والإبداع عنده عبر أشكال شديدة التنوع والتباين، وربما كان في رأسها من حيث الأهمية (على الأقل بالنسبة إليه) عمله طبيباً في بلدته النائية المنعزلة المتواضعة، بل افتخاره المستمر بهذا العمل، وبالدور الفائق الأهمية الذي يقوم به. فالأدب بالنسبة إليه على أهميته يأتي تالياً لمهمة ممارسة الطب والملامسة الصميمة لآلام الناس.. ومن ثم السفر وفؤائده والمحاضرات العجيلية الآسرة، تلك التي أخذ يشيع فيها لوناً مستحدثاً من الأدب سينهض على أساس من موهبة بديعة في الخطاب والاستحواذ الساحر، وبعدئذ تأتي الكتابة الإبداعية هواية، كأنما لتكمل المشروع النابض بروحه ووجدانه، الكتابة بألوانها المتعددة والمحملة بفيض الجوارح وعمق الأحاسيس، ولا سيما في قصصه القصيرة ورحلاته.

ويأتي عالم الرحلات التي قام بها واتساع هذا العالم مصدراً كان لا بد منه في عملية بنائية جعلته يغتني بتشكيل عالم آخر، من رؤى ومشاهدات وخبرات، لكنه ظل يحمل العالم الحقيقي الذي هو عالمه في داخله أينما رحل، بل كان الواقع العربي

ويبدو الشعر الذي شهد أولى ثمرات موهبته، فأنتج فيه ديوانه الأول اليتيم (الليالي والنجوم) يبدو الشعر حاضراً على لسانه في كل مناسبة وحين، ينم عن محفوظ ثر وذائقة قل مثيلها، فهو يمضي ليطعِّم به أحاديثه ومحاضراته وقصصه، وواضح أنه وجد في الأدب عامة والقصة خاصة المجال الحيوي والوعاء الذي يستطيع أن يضع فيه الشعر والسياسية والفلسفة والحكمة والتطلعات العلمية والرؤى الوجدانية والقناعات فيما يخص علاقة الشرق بالغرب، لأنه بالدرجة الأولى امتلك موهبة الحكاية وشهوة القص، وبالتالي فإن الموهبة القصصية لديه تبدو أصلية وفريدة بل أساسية في كل ما أنتج. إذ حتى المقالات التي يكتبها يندر أن تمر واحدة من دون أن تبدأ بحكاية أو تنتهي بحكاية أو تحتوي حكاية. وهو يصرح في غير مناسبة أنه يختار الأداء القصصي حين يختاره لموهبته فيه، ولشمول القصة وقدرتها على الاستيعاب، ولأنها أكثر ألوان الأدب تماشياً مع روح العصر الذي نعيش فيه، وأنه على هذا النحو يجد نفسه كاتب قصة بالفعل وكاتب رواية بالقوة أو على الأقل بالنية. وهو يعد الأدب شكلاً من أشكال التعبير، وقد وصل عبر نتاجه المتنوع إلى أن يكون هو هو عبد السلام العجيلي بتميزه وتفرده في الحياة وفي الكتابة. ولأن ذاته هي الباث والمتلقي في آن ندر أن تجده معنياً بالنظم السياسية والمساطر النقدية والريادات المرسومة. عندما كان يحدثنا نحن جلساءه في حلب، في مقهى السياحي أو المنتدى، كان يصل طبيعياً في هذا المنحى أو ذاك إلى رواية حادثة أو طرفة تحمل دلالة تصب في مرآة ذاته، قال مرة: من أطرف ما جرى لي في باريس أني نزلت في فندق مونبارناس وتوجهت إلى غرفتي فوجدت شخصاً بدا لي وجهه أليفاً يقترب مني فاقتربت باتجاهه، وابتسم في وجهي فابتسمت، ورفعت يدي أهمّ بمصافحته فبادر برفع يده، بل اقتربت منه أقبله شأن من يعرف صديقاً قديماً، وفي اللحظة ذاتها ارتطمت بالمرآة في آخر الممر، ووجدتني أنا ذاتي أمامي.

القصة صفة الوقائع، لكنها الوقائع التي تملك الخروج بيسر إلى واقعية مزيج من الأوهام والحقائق، وعبر تبادل المواقع بينهما. وستكشف قصصه في الغالب عن عدم الاطمئنان المطلق لقواعد العلم في تفسير مظاهر الحياة والإيمان بالخوارق والخرافة، وتدخل القدر في مصائر البشر. ولكن هل عد العجيلي كاتباً واقعياً، أم رومانتيكياً، تطغى عنده نزعة التخييل وصياغة عالم من الغموض والسحر، يقول في "أشياء شخصية":"لا أدري أين ينتهي الرومانتيك وأين تبدأ الواقعية في عملي الأدبي، إن شكل ما أكتبه واقعي، لكن مضمونه ربما كان خيالياً أو مثالياً أو لا معقولاً، والذي ألاحظه دوماً في كتابتي أني أجهد في أن أقنع القارئ بأن ما هو مستبعد ممكن الحدوث، بل حدث حقاً، وأنا من هذه الناحية كاتب واقعي".

ويتعمق العجيلي الأبعاد النفسية والجسمانية لشخصياته، ويرصد صراعاتها الداخلية، ويقف مطولاً عند الجانب الوجداني فيها والجانب الفكري وصولاً إلى التروع الروحي، معتمداً في قصصه غالباً أسلوب الحكاية، ومستنداً إلى التراث السردي العربي وممعناً في تأصيل صيغة عربية أصيلة للقصة القصيرة، وذلك عن طريق استعارة لازمات الأسلوب المتكررة في السرديات العربية القديمة، ومن خلال تقديم الحدث بوساطة راوٍ يقص بالطريقة التقليدية.

وإن علاقته المتجذرة بالبادية والأصول العربية الصرف إن هي إلا علاقة روحية وجدانية، شكلت جزءاً كبيراً من شخصيته الإنسانية والأدبية والأخلاقية، وانعكست هذه العلاقة في أعماله نابضة بحرارة الصدق وعفوية المشاعر، بل انعكست في أعماله الروائية والقصصية، ولا سيما في مجموعتيه القصصيتين (الخيل والنساء)و(بنت الساحرة).

ويبدو العجيلي في تفرده خزان معارف، تتجلى عطاءاته في قصص وروايات ورحلات وشعر ومقامات وسياسة ونضال وطب وتحدث ومحاضرة وتاريخ ونسب

أغرف من منابع كثيرة في الحياة، فقد نشأت في جو البادية الغنيـــة بأحاسيســـها الغربية وتقاليدها، وعشت أجواء المدينة المعقدة الحياة، المزدحمة المرافق، ودرســـت العلم وهويت الأدب. كما أنني مارست السياسة سلماً وحرباً، وتنقلت في أرجاء العالم الواسعة فتوفر لي من كل ذلك ذخيرة من التجارب والذكريات والأفكـــار، وتفتَّح بي من آفاق الخيال ما أعانني على كتابة قصص متباعدة المرامي والأمكنـــة والمواضيع، وأنا أحرص في هذا التنويع على صفة الغرابة والتشويق فيمـــا أكتبـــه، غرابة الحادثة أو غرابة النتيجة التي تنتهي إليها الحادثة أو غرابة الفكرة التي تنتج من الحادثة. وبالتالي فقد أضحت الكتابة لديه مزيجاً من التعبير عن النفس والتقليد كما يقول.

وفي كل ما أنتج نجد عنده البساطة في اللغة وعفوية السرد وصفاء العبارة ودقة الوصف وانتقاء المفردة الدالة، بما يكشف لديه عن حصيلة لغوية قل مثيلها. وقـــد لجأ في تجربته اللغوية إلى استخدام الفصحى لا العاميـــة أو الدارجـــة في الســـرد والحوار، لأسباب جمالية وقومية، ومن خلال معرفة عميقة بجماليات اللغة العربية نثراً وشعارً، ساعياً إلى تقريبها من الذوق العام، ومركزاً على طريقة التعبير نفسها، إذ أنها في رأيه الفاصل الذي يميز بين أبطال قصصه ويسبغ على كل منه صفته التي هو منها، بمعنى أن المفردات الفكرية لا المفردات اللفظية هي التي كانت تميز ما بين شخصيات قصصه ورواياته.

وتعد مجموعته القصصية الأولى (بنت الساحرة)١٩٤٨ رائدة بحق على المستويين التاريخي والفني، ويشير د.حسام الخطيب إلى أن ظهور هذه المجموعة يشكل علامة انعطاف حي في تاريخ القصة القصيرة في سورية، فلم تكن المجموعة إعلاناً عـــن ولادة كاتب قصصي عظيم فحسب، بل كانت إعلاناً عن بدء استواء فن جديـــد متميز في التجربة الأدبية للقطر العربي السوري، احتفظ فيما بعد بمكانته وصدارته

لموهبة هذا الكاتب، بل أفادت في إثارة اهتمام قراء الأربعينيات بجمال القصة القصيرة، والتمهيد لنهضة هذا الفن في الخمسينيات.

العجيلي كما عرفناه أديباً وإنساناً لم يحاول أن يجامل أو يتملق، بل حرص على أن يكون ذاته في كل ما كتب وعاش. أراد أن يفعل ما يفعل لذاته أولاً، وللآخرين من بعد. ومن كانت مرآته ذاتاً كذات العجيلي فالصدق رائده في كل ما يعطي ويفيء.

* * *

الطبيب والأديب المتميز

• عيسى فتوح

تولى المناصب الوزارية بدءاً من عام ١٩٦٢، فاختير وزيراً للثقافة فالخارجية فالإعلام، وبعد اعتزاله جميع المناصب السياسية، عاد إلى الرقة التي غذته، وهيأت له سبيل المعرفة، وأكسبته خصائص معينة، ليعيش بين أهله وعشيرته، طبيباً يخدم المرضى ويداويهم، ويتفرغ قليلاً إلى الكتابة والسفر، فقد زار بلدان أوروبا من فنلندة والسويد في أقصى الشمال إلى إسبانيا والبرتغال في أقصى الجنوب، والأميركيتين الجنوبية والشمالية واليابان، والبلدان العربية.. وكان يزور أوروبا في كل صيف،وألف عن رحلاته ثلاثة كتب هي: " دعوة إلى السفر" و " خواطر مسافر" و" حكايات من الرحلات" .. وكثيراً ما كان يتردد إلى دمشق، ويقود سيارته بنفسه، ليجتمع بأصدقائه الكثيرين من رجال الأدب والفكر والفن والسياسة والصحافة والإعلام، كفؤاد الشايب، وعبد الغني العطري، وسعيد الجزائري، وشاكر مصطفى، ونجاة قصاب حسن، ونزار قباني، وكوليت الخوري وغيرهم.. وكان يحلو له أن يجلس في مقهى البرازيل، ومقهى الكمال القديم، ومقهى فندق الشام، وقد التقيته مرة في هذا المقهى الراقي عام ١٩٩٥، فكتب لي على ورقة تحمل اسم فندق الشام صفحة من حياته، دوّن فيها تاريخ ولادته، ودراسته، وهواياته وميوله، وأسماء كتبه، وترجماتها إلى اللغات الأجنبية، كالفرنسية والإيطالية.. وما تزال هذه الورقة محفوظة عندي، ومما جاء فيها قوله:

"أمارس الطب منذ تخرجي في بلدتي، وأقطع ممارسته بالأسفار، وأحياناً بالعمل السياسي، وأعالج فيما أكتبه قضايا مستقاة من البيئة البدوية التي نشأت فيها، ومن ممارساتي الطبية، وثقافتي العلمية كطبيب، وثقافتي التراثية كأديب نشأ على حب

بعشرات القصص والأخبار والحكايات والنوادر، والنكات الطريفة الساخرة التي جرت معه على امتداد عمره الطويل، يرويها لنا فنضحك، ولا نحس بمرور الوقت الذي يمضي سريعاً، وإذا ما عاد إلى الرقة، كنت أبعث إليه برسائلي، فيجيب عنها بكل مودة ولطف، وكان آخر ما أرسله إلي كتابه " جيش الإنقاذ" وقبله الطبعة الجديدة من كتابه " وجوه الراحلين" والطبعة الثالثة من كتابه " أشياء شخصية" الذي كتب على صفحته الأولى :" عزيزي الأستاذ عيسى، شكراً على رسالتك وما تضمنته، هذه الأشياء الشخصية لم تطلع عليها عزيزتنا كوليت بعد، لأنها صدرت بعد زيارتي الأخيرة لها، ومنها نسخة لك من " وجوه الراحلين" الجديدة القديمة، كما ذكرت أنت، شكراً مرة أخرى لاهتمامك، ولك مني أطيب التمنيات الرقة في ٢٠٠٠/٣/١٠ عبد السلام العجيلي ".

كما تلقيت منه رسالتين أخريين الأولى بتاريخ ٢٠٠٠/٣/٢٥ والثانية بتاريخ ٢٠٠٠/٤/٥ يقول في الأولى:

أخي الكريم الأستاذ عيسى

تحية وسلاماً.. شكراً لهديتك التي تلقيتها اليوم، أنت تكتب عن الشخصيات كباحث ومؤرخ، وأنا أكتب عنها ذكريات شخصية، وعملك أكثر فائدة من عملي، أمامي كتب كثيرة علي أن أتم قراءتها، ولكني قلبت بعض الصفحات، وقرأت بعض الترجمات، ووقعت على اسمي في ترجمة فخري البارودي، رحمه الله، وجزاك الله خيراً على الترجمة له ولأمثاله، سألتني المذيعة هيام حموي في برنامج أذاعته في شهر رمضان:" ماذا تضع في متحف يقام للقرن للعشرين المنقضي؟.. قلت: أضع حجرة من التي جيء بها من القمر، وصورة ماري كوري، وصورة سلطان الأطرش، وفخري البارودي!".

عجلت في الكتابة إليك لأقول لك: لا تشتر نسخة من "وجوه الراحلين" لإقبال

هاتفها لأتصل بها متى زرت العاصمة اللبنانية، و لم يتيسر لي هذا حتى الآن، لك مع الشكر أطيب التمنيات من المخلص عبد السلام العجيلي..

أخشى أن تحرمني الظروف من الاشتراك في المهرجان الذي تقيمه كلية الآداب للرواية العربية، اعتذرت عن هذا للدكتورة منى الياس عندما اتصلت بي، ومع ذلك فقد قرأت اسمي في عداد المدعوين.. تحياتي لكوليت (الخوري)، وهي تنوب عني..!

ويقول في الرسالة الثانية:

أخي الأستاذ عيسى

سبحان من لايسهو ولا ينسى!.. على كل فإنه سهو قد يكون نفعه أكثر من ضرره، في " أشياء شخصية" تردد لاسم فؤاد الشايب يبرر اطلاع السيدة إقبال على الكتاب، وهذه نسخة من " وجوه الراحلين" أرجو أن تصل إليها عما قريب عن طريقك، ومع تحياتي الطيبة، شكراً لك على ما أعنيك به، واسلم للمخلص

عبد السلام العجيلي

شكراً كذلك على تعريفك الوافي بوجوه الراحلين في جريدة " تشرين"، قرأته أول أمس وأعجبني مقابلة اسكندر حبش عندي، فلا تكلّف نفسك بإرسال صورة عنها، والواقع أني لم أدرج كل ما أجري معي من مقابلات في هذه الطبعة الثالثة، هناك ما يملأ أربعة أو خمسة كتب من حجم هذه الطبعة، وبعض المقابلات يحتوي أموراً مهمة، إذا ساعدتني الظروف فقد أصدر جزءاً ثانياً بأهم ما تحدثت به و لم ينشر بعد في كتاب.

لا تحمل نفسك فوق طاقتها، عندي علم بما جرى لعينك وفي معالجتها، أدام الله علينا نعمة البصر وما تبقى منه، منذ صباي المبكر أو منذ طفولتي، وأنا أقرأ وأكتب وأعيش بعين واحدة.. والحمد لله على كل حال.

كرم الدكتور العجيلي أواخر عام ٢٠٠٥، فقد تنادى عدد من الروائيين والنقاد العرب إلى إقامة احتفال لتكريمه شارك فيه كل من: صلاح فضل، علي زيتـــون، عبد المجيد زراقط، ياسين رفاعية، مصلح النجار، محمد عبيد الله، محمد جـــدوع، عبد الله أبو هيف، وليد إخلاصي، ممدوح عزام، عادل الفريجات، عبد الرحمن مجيد الربيعي، شهلا العجيلي، هيفاء بيطار، خليل صويلح، سمر يزبك، ابراهيم الخليـــل، نبيل سليمان، نهلة السوسو، نعمة خالد، خيري الذهبي، فضيلة الفاروق.. قـــدموا من مصر ولبنان والأردن وسورية وفلسطين والعراق وتركيا إلى الرقة، لكن ظروف العجيلي الصحية منعته من أن يكون وسط المحتفين به، ولذلك قـــاموا بزيارتـــه في مترله بعد جلسة الافتتاح.

لقد ازدادت صحة العجيلي تدهوراً منذ مطلع عام ٢٠٠٦ حتى أصبح غير قادر على النطق، ودخل في غيبوبة.. إلى أن وافته المنية في الخامس من نيسان ٢٠٠٦ وهو في الثامنة والثمانين، فنعته جميع وسائل الإعلام السورية والعربية واستفاضت في الحديث عنه وعن أعماله الإبداعية، ومكانته الأدبية الرفيعة، ولا سيما في مجال الرواية والقصة اللتين برع فيهما.

آثاره الأدبية

١- الشعر: الليالي والنجوم.

٢- القصص: بنت الساحرة، ساعة الملازم، قناديل اشبيلية، الحب والنفس، الخائن، رصيف العذراء السوداء، الخيل والنساء، فارس مدينة القنطرة، حكاية مجانين، الحب الحزين، فصول أبي البهاء، موت الحبيبة، مجهولة على الطريق.

٣- الروايات: باسمة بين الدموع، قلوب على الأسلاك، ألوان الحب الثلاثة، أزاهير تشرين المدماة، المغمورون، أرض السياد، أجملهن.

٤- المحاضرات :أحاديث العشيات، السيف والتابوت، سبعون دقيقة حكايات، حفنة من الذكريات، محطات في الحياة.

٥- الأسفار: حكايات من الرحلات، دعوة إلى السفر، خواطر مسافر.

٦- على هامش الطب: عيادة في الريف، حكايات طبية، أحاديث الطبيب.

٧- المقالات: في كل واد عصا، جيل الدربكة، ادفع بالتي هي أحسن.

٨- المنوعات: المقامات، أشياء شخصية، فلسطينيات، وجوه الراحلين، جيش الإنقاذ، ذكريات أيام السياسة.

يتبين لنا من هذا الثبت أن الدكتور العجيلي أصدر واحداً وأربعين كتاباً خلال سبعة وخمسين عاماً (١٩٤٨-٢٠٠٥) فإذا عرفنا أنه بدأ بالكتابة عام ١٩٣٦ في مجلة الرسالة للزيات، وأنه أصدر أول كتاب له وهو "بنت الساحرة" عام ١٩٤٨، تبين لنا أنه كان كاتباً منتجاً، رغم أنه لم يتفرغ للكتابة، لأن الوقت الذي كان يمضيه في عيادته لم يكن ملكاً له، بل لمرضاه الذين كانوا يأخذون أكبر قدر منه، كان عمله كطبيب يستهلك كل ساعات نهاره،وبعضاً من ساعات الليل، فالطب مورد رزقه الأساسي.

كان يعد نفسه كاتباً هاوياً وإن الأدب بالنسبة له هواية نبيلة، تحمل له المتعة

يماشي إنساناً آخر في الرقة، لكنه بالمقابل كان يؤدي واجباته الاجتماعية على أكمل وجه، وهي- كما يعترف- أهم من الإنتاج الأدبي.

والسؤال الذي يطرح نفسه: لماذا لم يكتب العجيلي سيرته الذاتية بقلمه، كما فعل طه حسين، وميخائيل نعيمة، وسامي الدهان، وأحمد أمين، ولويس عوض، وعيسى الناعوري، وفدوى طوقان وغيرهم؟..

وفي الجواب عن هذا السؤال يقول: "إن أحد موانعي من كتابة سيرتي الذاتية، هو أنني لا أملك عقلية توثيقية، فأنا لا أسجل يوميات، ولا أحتفظ بتاريخ لما أمر به أو يمر بي من أحداث، أكتفي بذكريات وقائع حياتي والذاكرة خوانة، إضافة إلى أنني قليل الميل إلى التحدث عن ذاتي بصورة مباشرة، وهذا ما يجعلني أفرغ أحداث حياتي بصورة قصصية، فأنسب كثيراً مما مر بي إلى أبطال قصصي ورواياتي..".

لكنه استجاب في السنوات الأخيرة من حياته إلى طلب أصدقائه في الكتابة عن نفسه، فكتب مذكراته بل ذكرياته عن فترة من فترات عمله في الميدان السياسي، فأصدر عام ٢٠٠٥ كتاب "ذكريات أيام السياسة".. لكن من يقرأ الأحاديث التي أجريت معه، ونشرها في كتابه "أشياء شخصية" يعثر على مقاطع ومفاصل من حياتي، كما في الحديث الذي أجراه معه ياسين رفاعية، ونشر في ملحق جريدة النهار في ١٧-١٠-١٩٦٥، فقد تحدث في هذا الحوار الطويل عن أصله وعشيرته وأسرته وولادته، ومراحل دراسته الثانوية والجامعية، والوظائف التي أسندت إليه، وعن أهم ذكرياته السياسية والأدبية مع الأدباء السوريين والعرب، وعن رحلاته..

أقول: إن من يقرأ الأحاديث التي أجريت معه بين عامي ١٩٦٥ -٢٠٠٥ وتصب كلها في سيرته، يمكن أن يستخلص منها سيرة ذاتية مكتملة الجوانب.

* * *

الإنســـان

- **سعاد مكارم**

عندما يفكر أحدنا أن يكتب عن قامة أدبية عملاقة يتبادر إلى ذهنه الكتابة عن مؤلفاته وأعماله وكل ما يتعلق بنتاجه الفكري، وننسى أن نتحدث عـــن ذلـــك الأديب الإنسان .. وهل هناك فصل بين الأديب والإنسان؟

تقول غادة السمان:" لا تحاول أن تتعرف على أديبك المفضل" والسبب في ذلك أن بعض الأدباء يفصلون إبداعهم عن شخصيتهم، متذرعين أنه لا علاقة لـــلأدب بالشخصية .. الإبداع شيء والشخصية شيء آخر، فتجد الأديب مبدعاً في مجال الأدب، لكنك تعجز عن التعامل معه كإنسان. من هنا أنطلق للحديث عن إحدى قامات الأدب العربي الشاهقة من الناحية الإنسانية، أن تكون كاتباً.. أديباً شاعراً فهذا أمر طبيعي لكن أن تكون إنساناً بكل معنى الكلمة فهذا أمر خارق حقيقـــة لأنه قلما أن يكون أحدنا إنساناً بالمعنى المطلق.

في يوم ما طرقت أسماعي كلمة " العجيلي " وسمعت الكثيرين يكيلون المـــديح لصاحب هذا الاسم ويتكلمون عن مآثره، قلت في نفسي هذه هي عاداتنا نمـــدح كما يحلو لنا.. وتساءلت فيما إذا كان صاحب هذا الاسم يستحق كل هذا المديح أم أن ذلك بدعة إعلامية لجعل الناس يحبونه ويبحثون عن كتاباته ويقرؤونها، وربما المبالغة في المدح هي وراء هذا كله، إلا أن الظروف قادتني للتعرف علـــى هـــذا الكاتب الذي يُدعى الدكتور عبد السلام العجيلي حيث كنت وصديقتي الأديبـــة إيمان عبيد نتابع لقاءً مفتوحاً له مع جماهير مدينة الثورة التابعة لمحافظـــة الرقـــة.. وكانت المفاجأة : رجل متواضع لدرجة لا تخطر لك على بال.. دخـــل المركـــز الثقافي وصافح الجميع بحرارة أبوية تجعلك ترنو إلى هذا الشخص بإعجاب منقطع

يسألني مباشرة عن إيمان وعن أحوالها، وعندما أخبرته بوفاة والدتها رفع سماعة هاتفه واتصل يعزيها بذلك. وعندما تكلمه إيمان يسألها مباشرة عني وعن أعمالي أيضاً، في المناسبات أسمع رنين الهاتف لأجده يتصل مهنئاً، أخاطب إيمان فتقول لي أنه قدم لها التهنئة بتلك المناسبة.

عندما نلتقيه في الفندق الذي اعتاد الإقامة فيه "فندق أمية" يقول : أين أنتم يا أولادي؟ لماذا تأخرتم عليّ؟

في أحايين كثيرة يسارع الأدباء الشباب إلى كبار المبدعين كي يكتبوا لهم شيئاً من أجل الانتشار.. إلا أن العجيلي عندما يقرأ ديواناً يعجبه يكتب لذلك الأديب دون أن يُطْلَب منه ذلك، فلقد كتب ذات مرة للأديبة إيمان عبيد وكانت لا تعرفه أبداً و لم تكن قد أرسلت له أي شيء من نتاجها.

إلا أنها فوجئت برسالة تأتي إلى مجلة الثقافة ممهورة بتوقيع العجيلي.. ذلك أن إيمان تكتب في تلك الدورية وهي أقرب طريق للتواصل معها، كتب لها يقول : " كان يجب أن أبدأ بالشكر على كتيبك " شظايا" أنت مجهولة لديّ رغم أن ما سطرته فيه ينم عن تجربة طويلة في الكتابة الأدبية من حيث سلامة اللغة وجمالها، وعن موهبة أدبية ومضمون فكري لا يستهان بهما.. ربما كان جهلي سبباً لعدم متابعتي ما ينشر في الدوريات في السنين الأخيرة، المهم أن بعض شظاياك حتى الصغيرة منها جارحة في كثير من الأحيان، وفي بعض الأحيان تحمل نفحات نسيم معطر".

في تلك الأمسية التي جمعتنا به في مدينة الثورة حدثناه وحدثنا، سهرنا معه نتجاذب أطراف الحديث.. نعجب بعباراته التي يطلقها ويضحك عالياً وهو يرددها ..زرناه في مترله، قرأنا عناوين أعماله وطلبنا منه أن يعطينا رقم صندوق البريد الخاص به كي نراسله ونبعث إليه بأعمالنا الأدبية، فقال: اكتبوا واحد - اثنان-

الرقة - عبد السلام العجيلي .. قالها دون أن يذكر كلمة الـــدكتور، تواضـــع حقيقي هذا الذي تمتع به العجيلي ..

عندما يطوي أحدنا النسيان.. لا بد أن نذكره، عندما يغيّب الموت أحـــدنا.. لابد أن نذكره، فكيف إذا كان ذلك الشخص قامة أدبية مرموقـــة كالـــدكتور.. السياسي .. الوزير- الشاعر- القاص-الراوي- وقبل كل شيء الإنســـان عبـــد السلام العجيلي.

هو ثروة الفرات ودرة الرقة.. ما ستها وذهبها .. ثروة سورية.. عربية.. عالميـــة شخصية الدكتور عبد السلام العجيلي.

* * *

حالة نادرة عند الرجال

- **هاني الخير**

ينتمي الدكتور عبد السلام العجيلي إلى جيل الأدباء العرب الروّاد، الذين استغرقتهم الكتابة الواعية المسؤولة، التي تنادي بتحرير الإنسان العربي من براثن التخلف وشرور الجهل.

وبنفس الوقت قام هؤلاء الرواد بتكريس فنونهم الأدبية بأطيافها، للتعبير عن خفايا حياة المجتمع العربي، فكانت أعمالهم الإبداعية، محاولة جادة وجريئة لرسم حياة مستقبلية خالية من السلبيات والمعوقات الذهنية والسلوكية المتوارثة، والتبشير بحياة أكثر إنسانية وخصوبة.

يضاف إلى ما ذكرناه، إن الدكتور العجيلي، وهو اليوم في الثمانية والثمانين من عمره، كان له دوره المتميز، وإن أغفله النقاد، في بروز جيل من كتاب القصة في سورية والوطن العربي، وكذلك كتاب أدب الرحلات.

ثم بعد ذلك كله، هو سياسي ووطني ومناضل قديم. إذ حاول الالتحاق بالمجاهدين للتصدي للصهاينة الغزاة، لكنه رفض لحداثة سنه، فتابع دراسته الثانوية في مدرسة المأمون في حلب، ثم دراسته الجامعية ليتخرج طبيباً من جامعة دمشق، ثم انتخب نائباً في مدينة الرقة، فكان أصغر نائب في المجلس العام ١٩٤٧م فكرر المحاولة مرة ثانية والتحق بفوج اليرموك الثاني، من أجل إنقاذ عروبة فلسطين. وبعد ذلك أسندت إليه حقائب وزارية في زمن الانفصال :

الإعلام والخارجية والصحة، ويذكر أنه وافق على قبول الوزارة لهدف نبيل هو إعادة الوحدة مرة ثانية بين سورية ومصر. وفيما بعد هجر السياسة كممارسة فعلية، لأنه سيّىء الظن بمقدار ما يمكن للمرء الصالح أن يجنيه منها للنفع العام، وإن

وفلسفتهم حالة غرائبية، تستحق التأمل والدهشة، لذلك فإن الدكتور العجيلي قد يكون مديناً في بعض مؤلفاته ومحاضراته، لأولئك الصعاليك أمثال: المغامر العراقي يونس بحري، والمخترع الشاعر كريكور واهانيان المعروف باسم (البارون)، والشاعر الزاهد أحمد الصافي النجفي، وغيرهم من الشخصيات التي يمكن تصنيفها خارج دائرة المألوف.

والحق يقال فإن الدكتور عبد السلام العجيلي، كما ذكر لي، يزاول مهنته التي أحبها كطبيب محترف. بينما يزاول الأدب في أوقات فراغه، من أجل متعته الشخصية وتزجية للوقت، لأن ضميره الإنساني والمهني لا يسمحان له أن يترك المرضى في عذاباتهم وآلامهم المبرحة، تحت ذريعة أنه مشغول بكتابة قصة أو خاطرة، لهذا السبب، عدم التفرغ للأدب، فإن الدكتور العجيلي ما يزال مدهوشاً حتى هذه اللحظة،لردود الأفعال الطيبة التي حظيت بها أعماله الأدبية، من قبل القراء والنقاد معاً، بالرغم من عدم احترافه، لأنه ما يزال هاوياً ومحباً للأدب حتى هذا اليوم.

وفي هذا الشأن فإن الطب لا يتعارض مع الأدب، بل يعمقه ويمنحه ومضات إنسانية،من صميم واقع المشاعر العليا، ولنا في تجربة الدكتور صبري القباني، ود.يوسف إدريس، ود. قتيبة الشهابي،، ود. نوال السعداوي، ما يؤكد هذه المقولة.

أخيراً.. فإن الدكتور العجيلي أديب موضوعي، يعنى بالحقائق والمعاني النفسية،والمباني اللغوية، يجمعها بعناية عالم الآثار، ويتخير أوثقها، يهذبها من حشو الكلام، بحيث تبدو جلية واضحة، وقد مكنته موسوعيته، من أن يعرض منها ألواناً نضرة، في الأدب والتاريخ والتراث، وفي العلم والفلسفة وفي أدب الرحلات والأسفار، بخاصة وانه يعتز بالعربية، ويريد لها أن تسترد مجدها وألقها وعافيتها في

لا تذكر الرقة في مكان ما، إلا ويذكر معها الدكتور العجيلي طبيبها البارع وأديبها العالمي المرموق، الذي أصبح معلما من معالمها الثقافية والعلمية حتى أن سائق أي سيارة عامة يوصلك إلى مترله أو عيادته بمجرد أن تلفظ اسمه، وهذا ما حدث معي حين زرته لأول مرة في مترله بالرقة.

وفي مترله المكسو خارجياً بالحجر، كان الصمت سيد الموقف في (صالون) الدكتور العجيلي، حيث يقيم مع شقيقته المهذبة مريم، ومدبرة المترل الشابة، وكان واضحا أنهم يسكنون وحدهم في هذا المترل العريق الأنيق.

وقطع الصمت الوقور صوت الدكتور العجيلي، المتقطع والمتهدج، بتأثير وطأة المرض الشديد، مرحباً.. وللحقيقة فإن هذا اللقاء الصحفي لم يكن له أن يتم، لو ذهبت لوحدي،فهو نادراً ما يدعو أهل الصحافة إلى بيته، لكن وجودي مع الشاعرة الموهوبة آديل برشيني، وهي غالية على قلبه، لأنه كان أستاذها ومرشدها الأدبي في بدايات مسيرتها الأدبية. لذلك فأنا مدين بهذا اللقاء العفوي مع الدكتور العجيلي، للشاعرة الرقيقة آديل برشيني.

وبعد الاطمئنان على صحته، قدمت إليه ما كتبته عنه في صحيفة (الثورة) في صفحة (اضحك من عقلك) الأسبوعية، فطلب الاحتفاظ بها للذكرى .. ويبدو أن مشاهدتنا قد أبهجته، فاسترد نقاء صوته الرخيم، بالرغم من إصابته بالشلل النصفي، عافاه الله، فإذا بروحه المبدعة العملاقة تثب من جسمه النحيل الذي أنهكه المرض، كذلك فإن عينه استردت وهج العبقرية التي عرف بها في الندوات الأدبية والمحافل الفكرية، ولا غرابة في ذلك، فإن الوحدة وملازمة السرير،بالنسبة للدكتور العجيلي، الذي طاف مشارق الأرض ومغاربها طوال حياته، تسبب له الضجر والوجع النفسي.. وبعد ذلك كان هذا الحوار :

- **ماذا يزعجك في هذه الأيام؟**

(الإنترنيت). ويزعجني إرباكات وسماجة الذين تطفلوا دون موهبة، وغفلة، على عالم الصحافة، إذ ينسبون إلي عبارات وتكهنات لم ترد على لساني أبداً.

- **ماذا أعطتك المرأة.. وماذا سلبت منك؟**

o أعطتني الأمان والطمأنينة، والدفء والحنان، والاهتمام والرعاية، لكن ضمن إطار أنانيتها، وبما يتوافق مع الأشياء الصغيرة التي ترضيها وتروق لها، وسلبت مني حرية الاختيار، اختيار امرأة أخرى جديرة بالاهتمام والتأمل.

- **ما رأيك بالإخلاص؟**

o الإخلاص العميق هو حالة قد تكون نادرة عند الرجال. وهو في الوقت قد يكون وارداً وتلمسه عند النساء. وفي الحقيقة لم أكن مخلصاً للنساء، بحكم أسفاري وجولاتي، كما أن حريتي الشخصية فوق كل اعتبار. أتمنى لو عاد بي الزمن مرة ثانية إلى تلك الأيام القديمة المزدحمة بالمسرات.

- **السبب الذي دفعك إلى تسمية جيلك : جيل الشجاعة. بجيل الدربكة؟!**

o (يضحك) أنا لم أختر هذه التسمية حتى الغلاف لا علاقة لي بتصميمه. ناشر كتاب (جيل الدربكة) الأستاذ رياض الريس هو الذي أطلق هذه التسمية الطريفة، من أجل الإثارة ولفت الانتباه إليه.

- **ما هو السبب الذي جعلك توافق، على إعادة طباعة كتابك القديم الذي حمل اسم (المقامات) ضمن إصدارات وزارة الثقافة، وكنت حريصا، في الماضي، أن توزعه بيدك على مستحقيه كهدايا، لئلا يكون مبتذلاً، وعلى نطاق ضيق، حتى إن نسختي الشخصية من (المقامات) تحمل الرقم(٤٣٢)؟!**

o الكتاب الذي تتحدث عنه، صفحات ساخرة ضاحكة على أنفسنا وعلى

وكنت أتمنى أن تختار الجهة الناشرة غير هـــذا الكتـــاب لأنـــه مـــن أدب (الإخوانيات).

- **لو لم تكن تحيا في سورية، وفي مكان أدق في مدينتك الرقة، فهل نستطيع أن نعرف اسم الدولة التي تروق لك وتشتهي سكناها ؟**

o لو كنت أجيد الإسبانية قراءة وكتابة، لاخترت إسبانيا دون تردد. كما أن فرنسا تروق لي.. وكذلك النمسا.

لسان حالك في هذه الأيام؟!

ما أسهل الموت.. وما أشق الطريق إليه.

* * *

رجل أوله كبرياء.. وآخره

- **د. بغداد عبد المنعم**

أية كتابة يمكن أن تقدم تلك التاريخات الطوال لرجل كان دوماً أبعد من الألقاب التي وسمته..

ولأنه هكذا.. غير عادي إلى هذه الدرجة في هذا الزمن الحديث جداً.. فقد سطعت أصالته الأصيلة فوق ذرى القرنين العشرين والحادي والعشرين..

ولأنه هكذا.. بتفرده الفائق وكبريائه العتيق وبصوته الطالع من أزمنة بعيدة لكنها لا تشيخ.. لأنه هكذا.. فقد كان أكثر من طبيب.. وأجمل من سياسي.. وكان أن حمل قاموس الأدب العربي بتاريخيته البعيدة إلى حداثته الواثقة الجاثمة بكبرياء فوق عرشه الزمني .. النفسي والمستقبلي..

رجل أوله كبرياء وآخره.. في هذا الزمن الحديث جداً والضئيل جداً..

حكاياته الفلسطينية.. ولحظاته الفلسطينية في "جيش الإنقاذ" تكفي لإدانته بجريمة الكبرياء والوطنية حتى مرتبة العشق.. حين كان التهاون شيئاً متفقاً عليه، وحين كانت المعركة تلفيقاً...

يكفي أن تجلس وتبدأ بسماع صوته لتدرك (سر المناضل) وسر رجل ذهب ليحارب حقاً لأجل قطعة من قلب الوطن..

يكفي أن يبدأ إيقاع كلماته العربية الصريحة بالصعود الهادئ المتوازن كي تعلم أنّ هذا الرجل يحمل أحمال الصدق في عباءته البدوية الجميلة..

إنه المثقف المثالي الذي عاصر واعتصر في اضطرابات عربية سلبية..؟! كأنما المناصب السياسية الرفيعة التي تولاها عمّقت أهمية الأدب لديه، ليس لإيجابيتها بل على العكس.. وكأن العجيلي بعد ذلك قرر بشكل نهائي أنَّ الحقيقة تقع في طرفٍ

إنه أكثر من أن يكون (شيخاً للأدباء) فهو بعيد عن تقليدية الشيوخ ومواعظهم.. لكنَّ خصوصية العجيلي أصبح لها باعتقادي أهميات عميقة، لعل منها ما يمنح الحضور العربي المهزوز تلك التنبيهات والإشارات العجيلية..

أبحث عن كلمات جديدة لم تُكتب بعد كي أعبِّر عن رجلٍ متفردٍ-جديد.. أجل جديد برغم التسعة عقود التي يحملها في عينيه وتضاريسه.. وصوته التاريخي البعيد..

لا تكفي الكلمات الاعتيادية الروتينية للإحاطة بتلك الجزئيات الغالية والتي شاءها العجيلي (أشياء صغيرة).. تلك أشياء صنعت كوكبيته الخضراء البنَّاءة.. وأيضاً نجوميته الصافية كصحراء شاسعة.. تلك أشياء صنعت بعده الضوئي وبعده المكاني في (رقته) القصية المتقشفة.. وبعده الزماني-التاريخي الملآن بالتناقضات والعذابات..

أحاول أن أبحث عن كلمات غير تقليدية.. إنَّه الأديب التام.. متحدث ولكن حين يشاء وبما يشاء.. صامت كصحراء كلُّ ما فيها بعيد ومستحيل وعاشق.. صامت بمشيئته الكبريائية.. (نمر من صمت) خارج مستنقع الكلام الضحل.. (نمر من صمت) بعيداً عن قطيع الميكرفونات الضاري..

حين يتكلم فإنما يتكلم بـ كلماته! ويموسق حروفه بمقامات صوته الخاص!

هذا هو ضوء الخصوصية الذي اخترق بتهذيب جمٍّ زمناً جديداً.. جديداً ومريباً.. مريبا وتظل العالمية لا تقبل إلا المتجذرين بأصالة في عمق بيئاتهم.. فهم بفضل آليات التأصيل هذه يشعُّون في فضاء الأرض كلِّه.. يحملون حقيقة الحياة بـ(أشيائها الصغيرة) وديالكتيكها المستمر..

تلك إحدى معطيات (شخصية العجيلي الثقافية –الأدبي).. إحدى معطياتها الحضارية العالمية.. وإحدى دروسها وحكمها لـ(الوطن): كلما أحسنا الغوص في

عنه.. مثلما الضوء لا يرحل.. "العجيلي".. نريد أن نحمله في كلماتنا القادمة كي نستطيع أن نبني كلاماً يسمع.. وجمالاً يحس..

* * *

د. عبد السلام العجيلي: كل الوطن

- **حاوره: عادل أبو شنب**

أربعة وأربعون كتاباً، اللهم.. زد وبارك، هي الكتب التي صدرت حتى الآن، للدكتور "عبد السلام العجيلي" آخرها كتاب يحمل عنواناً، قد لا يعني شيئاً كثيراً جداً لمن ولدوا بعد نكبة فلسطين عام ١٩٤٨، لكنه يعني قضية حياة لعرب ولدوا في الربع الأول أو الربع الثاني من القرن العشرين، وعاشوا النكبة، عنوان الكتاب "جيش الإنقاذ، صور منه وكلمات عنه" وهذا الجيش الذي ألجأت النخوة العربية الشبان العرب لتشكيله والانخراط فيه، كان يزمع إنقاذ فلسطين من براثن الصهيونية، عندما قامت الحرب العالمية-الإسرائيلية. وكان من بين الذين انخرطوا فيه د. عبد السلام العجيلي نفسه. قبل سبعة وخمسين عاماً. ونيف.

المقال ضللني:

- **أهلاً بك أديباً كبيراً ودكتوراً فذاً؟**

صافحته، لم أجده كعهدي به كلما التقينا في دمشق. بدا واهناً. ناحلاً، فاقداً حيويته المعروفة لمن يلقاه من أصدقائه المقيمين في دمشق.

- **خيراً يا دكتور عبد السلام. ما بك؟**
  - ألا تعرف؟
- **لا أعرف.**
  - خضعت لعملية جراحية، استؤصل فيها طحالي، منذ أربعة أشهر..
- **سلامتك ألف سلامة-من أين لي أن أدري، وأنا أقرأ كل أسبوع مقالاً لك؟ مقالك ضللني.**
  - كثيرون مثلك، أنا ملتزم بكتابة هذا المقال الأسبوعي لجريدة "الفرات" التي

- **يبدو أن ظهور المقال في "الثورة" هو الذي يجعلنا نطمئن. بأن أمـــورك على ما يرام.**

أين الأصحاب والخلان:

قمت إليه في مقهى "الروضة". أنا أعرف أنه قليلاً ما يدخل هذا المقهى، لأنـــه يلتقي بأصدقائه في مقاه أخرى من مقاهي العاصمة ومنتدياتها.

- **أهلاً وسهلاً في "الروضة.**

o تعبت فدخلت لأستريح، ثم.. أين الأصحاب والخلان والأصدقاء؟ لم أعد أراهم في أماكن تواجدهم..

- **أعرف أن لهم جلسة يوم الأحد في "الشام" ويم الثلاثاء في "الشيراتون" هذا ما بقي من الأصحاب وجلساتهم.**

وابتسم د. عبد السلام. وهو يعرف هاتين الجلستين، لكنه كان يســـأل عـــن جلسات الأصحاب اليومية. لم أقل إن معظمهم سقط وذهب،و لم يبق إلا قلـــة، ومن الذين رحلوا الشاعر عبد الكريم الكرمي "أبو سلمى" صديقه الأثير.

كتاب شعري واحد:

كان د. عبد السلام العجيلي فارس الأدب في سورية منذ شـــبابه، وفي عـــام ١٩٤٠م كنا نقرأ (الواقع قرأت له بدءاً من الخمسينيات) مقالاتـــه وقصصـــه في "جريدة الصباح" الأسبوعية التي كان رئيس تحريرها الأستاذ المرحوم عبد الغـــني العطري، وعرفت أنه انضم إلى "عصبة الساخرين" قديماً، مع المرحـــومين عبـــاس الحامض، وممتاز الركابي وعبد الغني العطري وسعيد الجزائري. ومع نشأت التغلبي وآخرين، وأصدر خلال مسيرته ما يزيد عن أربعين كتاباً بين رواية وقصة قصيرة ومقال وذكريات، بينها كتاب شعري واحد هو ديوانه "الليالي والنجوم" الذي بدأ به رحلة الأدب.

- **ما هي مجموعتك القصصية الأولى؟**
  - "بنت الساحرة".
- **بين "بنت الساحرة" وكتاب "جيش الإنقاذ" زمن طويل..**
  - أجل، لكنك تعلم أنني طبيب، وأن الطب مهنتي، والأدب هوايتي.
- **أعرف أنك اشتغلت بالطب ما يزيد عن سبعين سنة، لكنك كنت تكتب..**
  - لم أستقل من الطب وأتقاعد إلا قبل أقل من سنة، قدمت عيادتي في مدينتي "الرقة" لابني الذي حل محلي، يسير على هدى مسيرتي في الطب، ويلجأ إليه الآن عدد كبير من سكان مدينة "الرقة" كما كانوا يفعلون معي، لكنني لم أتقاعد من الهواية. إنني ما أزال أكتب..
- **كم ولداً لك؟**
  - ثلاثة..
- **وأحفادك؟**
  - أربعة.. هل تعرف أنني جئت دمشق هذه المرة لأستقبل ابني العائد من أميركا؟
- **متى سيأتي؟**
  - غداً. (يوم ٣٠حزيران٢٠٠٥) لكن زوجته وابنه وابنته هنا في دمشق، سبقوه، وأنا ذاهب إليهم الآن في بيت جد الأولاد لأمهم المرحوم اللواء عبد الله النابلسي.

وأخرج من كيس كان إلى جانبه، لعبتين اشتراهما في التو. وقال لي، وهو يحركهما مبتسماً مجرباً:

- أحمل اللعبتين لحفيديّ، ابن الثامنة، وابنة السنتين.

- **أأنت قدت سيارتك هذا المشوار الطويل من الرقة إلى دمشق؟**

نظر إليّ. وقال بعد أن تأكد من السؤال. لنقص واضح في سمعه:

- أنا من الوهن بحيث لا أستطيع قيادة السيارة، كما كنت أفعل قبل العملية. صديق لي قادها، نظري تعب وسمعي خف..

- **صديق من الرقة؟**

- بل من حلب؟

- **لك أصدقاء كثر في حلب؟**

- أصدقائي كثر في كل مكان. حمل إلي الطب والأدب شهرة استثنائية، إنما حلب مملوءة بالأصدقاء..

- **هل ناشر كتابك "جيش الإنقاذ" حلبي، كما علمت وأن اسم الدار "دار كلمات" للفنون والنشر؟**

- نعم.. إنه صاحب "أثليه" تعرض فيه لوحات وتماثيل، لكنه أراد أن ينشئ داراً للنشر معها، وأعلن أن باكورة منشوراته ستكون كتاباً لي، وها هو يؤكد إعلانه بكتابي الأخير "جيش الإنقاذ".. الذي كان فعلاً أول كتاب يصدر عن داره الجديدة.

- **مع أن ناشري كتبك كثيرون؟**

- نعم، ها هو "رياض نجيب الريس" يزمع أن يصدر أعمالي كلها تحت اسم "الأعمال الكاملة".

- **هل وافقت؟**

- وافقت.. لكنني بدأت بالشعر. قصائد ديواني "الليالي والنجوم" والقصائد التي لم يضمها ديوان، والقصائد الحلمنتيشية الفكهة التي نظمتها في مناسبات وأغراض مختلفة، والمقامات التي كتبتها في مراحل عدة من

- نعم.

- **والأعمال الأخرى؟ الروايات والقصص، والمقالات؟**

- ستجمع في مجلدات أخرى. مشروع كبير.

- **هل إصدار أعمالك الكاملة في مجلدات نوع من التكريم لك؟**

- سمه تكريماً. إن التكريم ليس بالكلام. تكفي إيماءة..

التكريم الذي يحبه..

طاف الدكتور عبد السلام العجيلي على مختلف دول العالم، ولقي تكريماً شعبياً خارقاً، لمسه بنفسه، ومن جملة التكريم الذي أسبغ عليه حادثان رواهما لي، في جلستنا التي جاءت بالصدفة في مقهى "الروضة".

- لي قريب يعمل على سيارة، متنقلاً بين "الرقة" و"تل أبيض". جاءني ذات ليلة في منتصف الليل، وقرع جرس الباب. قمت فوجدته يسلم علي، ويقدم لي صرة. فتحتها فوجدت عنقوداً كبيراً من العنب. "ما هذا؟" قال: "هدية لك" "ممن؟""من بدوي يعرفك وطبيته أكثر من مرة، وفي سياق تحويل البدو إلى فلاحين في محافظتي الجزيرة ودير الزور. أصبح فلاحاً، فنذر أن يقدم لك أفخر عنقود من زراعته الجديدة، ورجاني أن أحمل العنقود إليك، وها أنذا أفعل" هذا هو التكريم في عرفي..

- **والقصة الثانية؟**

- كنت مدعواً إلى ألمانيا. ذهبت وحاضرت هناك، في مجموعة من الأطباء الذين هم من أصل عربي، ثم أخذت الطائرة العائدة إلى دمشق من مدينة فرانكفورت. كان ثمة ركاب عرب قادمون من الولايات المتحدة وكندا. اتجهت السيدة نحو المقعد الذي في جواري. كانت تتأبط مخدة صغيرة تحملها لضرورة طبية، وما إن وصلت إلى المقعد، حتى وقعت المخدة على

"أعرفك. أنت الدكتور الأديب عبد السلام العجيلي" قلت:"من أنـــت؟ فنظرت إلي وقالت :"أنا فلسطينية"، هذا هو التكريم الذي يروق لي. إنـــه تكريم القراء الذين يحبونني. لشخصي ولأدبي..".

مسيرة حياة

لم تبق دورية تنطق باللغة العربية لم تكتب عن الدكترو عبد السلام العجيلـــي، الطبيب الأديب، فارس الكلمة على مدى سبعين سنة ونسف، ففي عام من أعوام الحرب العالمية الأولى ولد، وترعرع في الرقة، مصيف الخليفة الرشيد على ما يقال، ثم درس الطب في جامعة دمشق، وبدأ يكتب وينشر ولما يبلغ العشرين من عمره، وانتخب نائباً في برلمان من برلمانات الحقبة الأولى من الاستقلال عن مدينة الرقـــة، وعندما نشبت الحرب بين العرب والإسرائيليين شُكل جيش الإنقاذ فتطوع فيه عام ١٩٤٨م، وذهب إلى فلسطين، يقاتل ويطبب الجرحى. وكان بـــين المتطـــوعين صديق حموي له اسمه "فيصل الرحبي" دون يوميات عن فلسطين، لم تنشر بعد.

- **من من المتطوعين في تلك الحرب تذكر؟**
  - أذكر كثيرين المرحوم أكرم الحوراني مثلاً.

وبعد نهاية هذه الحرب التي لم تكن في صالح العرب، والتي أنشئت بعدها دولة إسرائيل حسب قرار من مجلس الأمن بتقسيم فلسطين إلى دولتين، واحدة للعرب، وثانية لليهود، بتواطئ من الدول الكبرى، وخاصة بريطانيا، انكب الدكتور عبـــد السلام على عيادته في "الرقة" يطبب أبناء بلده ولا يبخل على ملتجئ إليه أن يقبل عثاره، كما انكب على أدبه، فراح يصدر الكتاب تلو الكتاب، حتى تشكل عنده رصيد من الكتب. وتزوج دمشقية من آل الشنواني، أنجبت له أولاداً ذهبـــوا إلى أمريكا، وصار سيد المجالس الأدبية. كـــ"منتدى سكينة" في الستينيات، وقصـــد الرقة الكتاب والنقاد والصحفيون للقائه بعد ما يزيد عن عشر سنوات على تلـــك

توقفه عن مسيرته الكتابية، وعن رسالته الطبية، وعن أسفاره الكثيرة التي كان يلبي فيها دعوات للمحاضرة أو للقاء طبي، أو لاجتماع أدبي، أو لقاء قصة من قصصه.

أنت تلخص الوطن

- **هل كنت منضماً إلى اتحاد الكتاب في وقت من الأوقات؟**

ونظر إليّ معاتباً. وقال بإلغاز:

- **لم** يكن لدي وقت للانضمام إليه..

وأردف بعد دقيقة صمت في ضحكة عريضة:

- أنا وحدي أشكل اتحاداً!

بدا كعادته يميل إلى المزاج ويجيد رواية القصص، ويفلسفها لتأتي على مزاجه، حتى إن المرحوم الصحفي الكبير سعيد الجزائري سماه "الحكواتي"، وكان لا يناديه إلا بهذه الصيغة، وكان جليسه على مائدة الشراب، مع أنه لم يشرب قط، ومرة جاءت سيارة جيب عسكرية، وأخذته من بيت حماه في حي "الشعلان" ليحضر جلسة شراب مع المرحوم أديب الشيشكلي، دامت إلى ما بعد منتصف الليل.

- **أظنك كتبت عن هذه الواقعة يا عادل؟**

- أجل ذكرتها في كتابي "شوام ظرفاء".

- **وذكرت قصصاً أخرى عني في الكتاب نفسه؟**

- نعم. أنت تلخص الوطن يا دكتور.

وأطرق خجلاً، مع أنه يلخص الوطن فعلاً، فقد عاش بالطول والعرض وله إسهامات عديدة في كل نشاط، يكون حاضراً وإن كان غائباً، واسمه يلمع بين أدباء بلاد الشام، كواحد ممن لم يسيسوا أدبهم، وتسعى إلى لقاء معه كبريات الصحف والمجلات العربية،وغيرها.

- **ما هي الجريدة التي كتبت عنك هذا العام بإفاضة؟**

- جريدة "الجزيرة" السعودية.أعدت ملفاً كاملاً عني بقصد تكريمي. وكتبت فيها أن التكريم الذي أحب هو التكريم الذي ألقاه من قرّاء، على نحو المثالين اللذين ذكرتهما لك قبل قليل.

أول لقاء بعد العملية

ما أكثر الملفات التي صدرت عن أدب الدكتور عبد السلام، وما أكثر المقالات التي كتبها في الصحف والمجلات منذ أواسط الثلاثينيات حتى السنوات الأولى من الألفية الثالثة، وقد يكون هذا اللقاء العابر معه في مقهى الروضة بدمشق، في جملة اللقاءات التي أجريت معه خلال مسيرته الطويلة، لكنه اللقاء الأول الذي تم بعد العملية الجراحية التي أزيل فيها طحاله، هو الطبيب. الذي لم يتناول دواءً قط في حياته إلا بعد العملية وأثناءها، واللقاء الأول الذي يتم بعد صدور كتابه الرابع والأربعين الذي لم يوزع بعد، والذي قدم لي نسخة منه، فصار عندي من مؤلفات العجيلي معظم كتبه. قصصه ورواياته..

- **إلا الديوان؟**

- ستكون لك نسختك من أعمالي الشعرية، عندما تصدر قريباً عن دار "رياض نجيب الريس" في مجلد أول من مجلدات "الأعمال الكاملة".

* * *

كسر في عنق الفخذ

- **أين تنزل يا دكتور؟**

- في أوتيل أمية.

- **سأزورك في غدٍ.**

- متى تماماً؟

- **في التاسعة والنصف صباحاً.**

- إنه في مستشفى أمية.

- **خيراً؟**

- وقع من السرير.

طار عقلي. ذهبت طيراناً من أمية الفندق إلى أمية المستشفى، صعدت إلى في غرفته، لأجده طريح الفراش. ساقه مكسوة بالجبس من عنق الفخذ حتى الكاحل. (كان ذلك صباح يوم ٣٠حزيران٢٠٠٥).

- **سلامتك يا دكتور، ماذا جرى؟**

- أجسامنا الآن كالبلور هشة سريعة الكسر. نزلت من السرير فوقعت. وكسرت ساقي عند عنق الفخذ. هذا هو المقدر.

كانت الممرضة تضع جهاز إيصال "السيروم" على جسده. وكان ثمة شاب في الغرفة عرفه علي باسم، وقال له:"كان لي موعد معه هذا الصباح".

لم ينسى الموعد المضروب بيننا على الرغم من ألمه والكسر الذي أصاب ساقه. عقله لم يتأثر وذاكرته جيدة، بل ممتازة. إنه في التسعين من العمر. ومن عجب أنه لم يكن يتصرف كأنه في هذه السن، حتى مرضه.

مؤلفاته

في كتابه الأخير "جيش الإنقاذ" ثبت بمؤلفاته بحسب أنواعها. له الآن من القصص: "بنت الساحرة" و"ساعة الملازم" الأشهر بين قصصه القصيرة، و"قناديل إشبيلية" و"الحب والنفس" و"الخائن" و"رصيف العذراء السوداء" التي طبعت مرتين و"الخيل والنساء". و"فارس مدينة القنيطرة" و"حكاية مجانين" و"الحب الحزين" و"فصول أبي البهاء" و"موت الحبيبة" و"مجهولة على الطريق" و"حب أول وحب أخير".

- **أما من قصص قادمة؟**

وله من رواياته "باسمة بين الدموع" وهي الأكثر شهرة. والتي تحولت إلى مسلسل إذاعي بث من إذاعة لندن، و"قلوب على الأسلاك" و"ألوان الحب الثلاثة" التي اشترك في تأليفها مع كاتب مجهول يسمى "أنور قصيباتي" و"أزاهير تشرين المدماة" التي كتبها من وهج حرب تشرين التحريرية و"المغمورون" و"أرض السياد" و"أجملهن".

ومن الأسفار له "حكاية من الرحلات" و"دعوة إلى السفر" و"خواطر مسافر" ومن المنوعات له "المقامات" و"أشياء شخصية" التي طبعت ثلاث مرات و"فلسطينيات عبد السلام العجيلي" و"ووجوه الراحلين" التي طبعت مرتين و"ذكريات أيام السياسة "في جزأين..

- **أليس لك منشورات أخرى؟**
  - عندي المقالات.
- **ماهي؟**
  - في كل واد عصا" و"جيل الدربكة" و"ادفع بالتي هي احسن" و"ضد التيار".
- **ومن حياتك كطبيب ألم تستفد في هوايتك؟**
  - بلى. كتبت "عيادة في الريف" و"حكايات طبية" و"أحاديث الطبيب".

كان يتوجع من ألم الكسر. لم اتركه يكمل تعداد مؤلفاته.. قررت أن أودعه.. حتى ينصرف إلى ألمه.

- **سلامتك يا دكتور.**
  - الله يسلمك.

قبلته ومضيت، لكن الدكتور عبد السلام العجيلي بقي في مخيلتي فارساً، مقداماً، في صحته ومرضه، في مهنته وهوايته. رجلاً في التسعين، وإن كان لا يعطيك هذه

الرجال الوطنيين الذين يلخصون الوطن في أشخاصهم، فهم كل الوطن والوطن يتجسد فيهم فرادى كانوا أو مجتمعين.

محطات في حياة العجيلي

- مارس الطب لمدة ٦٠سنة، بدءاً من تخرجه عام ١٩٤٥ من كلية الطب كما يقول سعد بن عايض العتيبي في مقال له عن "عصبة الساخرين" السورية في ملحق "الثقافية" التي تصدر مع جريدة "الجزيرة السعودية"، والمرجح أنه تخرج من كلية الطب قبل ذلك بسنتين.
- التجمع الأدبي الوحيد الذي انضم إليه في بداية حياته وهو عصبة الساخرين التي ضمت ١٢أديباً توفوا جميعاً باستثناء الدكتور عبد السلام، وهم بالإضافة إليهم: سعيد الجزائري، أحمد عسه، عباس الحامض، نسيب الاختيار، أحمد علوش، سعيد الضماني، عبد الغني العطري، مواهب كيالي، ممتاز الركابي، عبد الرحمن أبو قوس، حسيب الكيالي.
- في مقال الدكتور عبد السلام في "الثقافية" يذكر واقعة تكريمه من قبل البدوي الذي صار حضرياً، والراكبة الفلسطينية، وعنوان المثال: "أسمى التكريم".
- كانت الرقة مدينة سورية وغدت بعبد السلام العجيلي، رقة"البدري" وهي كلمة مختصرة من بدوي وحضري.

* * *

رحيل ضفة الفرات وشيخ عشيرته

- **حسن عبد الله الخلف**

قبل أيام احتضن التراب أديبين كبيرين وشاعرين ومسرحيين يمثلان نموذج الأدب في القرن العشرين والجامع بينهما أنهما أبناء بادية ومتجاورين في المنطقة هما الدكتور عبد السلام العجيلي والشاعر محمد الماغوط ولكل واحد منهما مكانته في عشيرته ووطنه وأهله.

مشاعر كثيرة انتابتني ظهيرة يوم الثلاثاء ٢٠٠٦/٣/٢٨ عندما زرت العجيلي في مترله ورافقني خلالها الزميل عبود حمام من أسرة سانا كانت الابتسامة على وجه العجيلي أول ما لفت انتباهنا يلف جسده النحيل بعباءة عربية في جلسة عائلية حميمة دافئة تضم ابنه الدكتور الجراح حازم الذي عاد من دمشق وفتح عيادة أبيه حاول العجيلي أن يحدثنا بكلمات بسيطة كي يؤكد لنا فرحه بزيارتنا فسأل عن أحوالنا وكتاباتنا وكان د.حازم يترجم له ما يعجز سمعه أن يدركه منا قال العجيلي: (أصبحت القراءة عليّ صعبة والكتابة أصعب، فعليكم أن تكملوا أنتم الدور معشر الشباب).

وقال مداعباً الأديبة فوزية المرعي وممازحاً معها:

يم الجديلة وكامة عديلة

كل القبيلة بحبج هيمانه

وقتها قلنا لها مازحين هذا آخر غزل للعجيلي في امرأة ولن نسمح لأحد أن يغازلك بعده، وضحكنا كلنا وشربنا القهوة وحرارة اللقاء تلفنا جميعاً.

من عنوان قصته (النهر سلطان) التي كتبها في السبعينيات عن نهر الفرات وجموحه أوقات فيضانه في شهر نيسان قبل أن يلجم بسد كبير في منطقة الطبقة

العجيلي، ويكون الفرات قد فقد إحدى ضفتيه هو والعشيرة والأطباء والكتّاب كان كالفرات في تدفقه وعطائه.

بلغ الثمانين ونيف وقاوم المرض وصارعه في جولات متعددة يتغلب على المرض حيناً ويتغلب عليه المرض أحياناً، كل منهما يستعمل أجود أسلحته وأحدثها في محاولة للانتصار على صاحبه، كان العجيلي يستعمل سلاح الصبر والعلاج الفيزيائي والعقاقير الطبية في الدفاع عن نفسه، الأسلحة ذاتها التي طالما عالج بها الكثيرين فكانت سبباً في شفائهم في عيادته العتيدة التي ظلت مفتوحة لأكثر من ٦٠عاماً وكان المرض في مهاجمته يستعمل معه كل أسلحة الخبث والألم والفتور والإرهاق، المعركة انتهت والموت حق تاركاً كتبه تدافع عنه، فمن مجموعته القصصية الأولى (ساعة الملازم) إلى آخر كتبه "جيش الإنقاذ" شهادة عصر وتاريخ أمة ورؤية أديب لقد رحل العجيلي متجهاً إلى عالم الخلد.

شخصية العجيلي الإنسان لا تقل أهمية وإثارة وإدهاشاً عن قصه وإبداعه الأدبي لما في هذه الشخصية من ثراء واقتدار، فهو البدوي والحضري والأديب والروحاني والعالم وشيخ العشيرة والوزير والزاهد والرحالة الذي طاف العالم والمحاضر والفنان والمتواضع والشامخ مثله مثل قصصه القائمة على التضامن والمفارقة قطب الواقع وقطب الأسطورة.

حيث تتلمذ العجيلي في صغره على حكايات ألف ليلة وليلة وكليلة ودمنة والزير سالم وعنترة بن شداد وتغريبة بني هلال وحمزة البهلوان والأميرة ذات الهمة، ثم رفد هذه القراءات في شبابه بكتب التاريخ العربي الإسلامي وكتب السيرة ومؤلفات المتصوفة والمعلقات وروايات جرجي زيدان كما يذكر في أحاديثه ثم امتدت قراءاته إلى لامرتين وأناتول فرانس وموليير وبلزاك وأوسكار وايلد ونيتشه، وتشيخوف ومكسيم جوركي ودوستوفسكي لتشكل هذه القراءات والمعرفيات

يعتمد التحليل والدراسة كما في مجموعته القصصية الأولى "بنت الساحرة" المنشورة عام ١٩٤٨، وإن قصص العجيلي غالباً ما تكون واقعية، فقصته (كفن حمود) المنشورة في فلسطين هو ابن عم الكاتب وقصة (الصيد العظيم) من مجموعته (الخائن) المنشورة عام ١٩٦٠هي الأخرى تكاد تكون حقيقة، وكثيراً ما تروى في السهرات أو عند موت عزيز بطريقة فجائية أو غير متوقعة، والعجيلي محب للحكاية وشغفه بها رافقه حتى في مقالاته ومحاضراته حين جعل الحكاية عمودها الفقري حتى إنه يعتبرها ميزته الأساسية التي تفرقه وتميزه عن الآخرين، وإن قصة العجيلي غالباً ما تقوم على أكثر من حكاية وهذه الحكايات تتوالد من بعضها بعضاً أو تبدأ كل حكاية التي قبلها وهذه المداميك من الحكايات المتتابعة في القصة الواحدة الغاية منها تبرير غرابة الحادثة بما يماثلها من حكايا ويوازيها في دائرة الممكن والواقعية.

والعجيلي كان محباً للرياضيات والفيزياء والكيمياء على عكس ما يتوقع الآخرون. واقترنت مدينة الرقة بالعجيلي مثلما اقترن العجيلي باسمها فكلاهما يعرف بالآخر إذ لا يذكر الرجل إلا وتنهض الرقة مع ذكره ولا تذكر الرقة حتى ينهض اسم العجيلي مع ذكرها كلاهما يكمل الآخر ويكتمل به.

لقد شكلت ذاكرته فكانت المضمون والخلفية المذهلة في أدبه وأحاديثه وفجرت فيه قدرة الكتابة والإبداع مثلما كونت فيه الإنسان فحملها في داخله إلى مشارق الأرض ومغاربها وهي البلدة الصغيرة المنفية في أقصى الشمال على شاطئ الفرات وكانت حاضرة في كل قصصه ورواياته ومقالاته وأحاديثه ومحاضراته ونشرها في الدنيا كلاهما محب للآخر وله سطوة عليه وكلاهما وفيّ للثاني ويسكن ذاكرته فقد اختارته نائباً في المجلس النيابي١٩٤٧ وهو الشاب اليافع، وحتى وفاته تعتبره طبيبها الوحيد رغم العدد الكبير من أبنائها الأطباء المختصين بكل الأمراض فقد كشف

غريبة! ألم يكن المقام أطيب في كثير من الأماكن والمدن والحق أقول: لقد اخترت هذا المقام عن سبق الإصرار والترصد فأعطتني مدينتي مثلما أعطيتها.

لم أرد أن أكون عالة على أحد وإنما أردت أن أعيش بعزة فقد خلقت على سوية لم أقصد إلى تجاوزها ومارست فعل الحياة بعفوية".

وأقام العجيلي في مدينته الصغيرة ليبادلها العشق والعطاء وهو بذلك لا يرد الوفاء بالوفاء فحسب لكن يمد خارطة الوعي العربي إلى المدن الصغيرة والبادية والريف لأن وعينا يتقلص وينحصر كلما تمركزنا في زاوية واحدة.

لقد جعل من الرقة إحدى عواصم الرواية العربية من خلال قلمه وخبرته بها وهذه الخبرة والتواصل الحميم بالبشر وبالأرض وبرائحة الماء والتراب والإنسان لا يحيله إلى كاتب محلي معزول عن غيره، فإبداع العجيلي إبداع إنساني شامل عرف كيف يكسر جدار العزلة أكثر من بعض من يقيمون في العواصم الكبرى، فرحلاته المادية والحسية التي قام بها في تجوالاته العريضة كانت أجنحته في العبور إلى الإنسانية فإخلاصه العميق للفن وتلك الثقافة الواسعة ذات البطانة الدافئة والوعي بثقافة الآخرين وأروع ما أنتجته عقولهم من فن تشكيلي ونحت وإبداع وكتب كانت الأجنحة التي طار بها أدبه ليعانق الأدب الإنساني.

العجيلي أصبح بالفعل أيقونة الرقة

* * *

شـــــــــــهادات

د.رياض نعسان آغا (وزير الثقافة في الجمهورية العربية السورية)

يصعب تجاوزه

تودع سورية اليوم علماً من أعلامها الكبار، قدم للأدب العربي ملحمة أدبية ضخمة وسيرة ذاتية مليئة بالنضال، فقد ملأ القرن العشرين إبداعاً غنياً في القصة والرواية، وكان رجل سياسة، فقد شغل العديد من المناصب الحكومية، واختص بتقديم تجربة الريف السوري، وعاصر بعمق الأحداث الكبيرة فقد كتب عن نكبة فلسطين مثلما كتب عن حرب أكتوبر. كان العجيلي، رحمه الله، طبيباً يفتح قلبه وعيادته للناس ويعالج أمراضهم الجسدية مثلما عالج أرواحهم في أدبه. وكان قريباً من الناس جميعاً مشهوراً بعمق صداقاته وعلاقاته الإنسانية مما حقق له انسجاماً عظيماً بين السلوك الشخصي والقيم الأدبية النبيلة التي يقدمها عبر إبداعه. وسيبقى العجيلي في ذاكرة الأجيال لأنه تمكّن من أن يقدم لها إبداعاً يصعب تجاوزه، فقد كان يعاني آلام الناس، فلا يسأل في تعبيره عنها أي المدارس النقدية سيتبع، فهو الذي يؤسس المنهج، وهو الذي يبتدع الأسلوب. وقد عمل في الصحافة فكتب في المقالة فناً متعددة من ألوان الحديث محققاً تواصلاً دؤوباً مع القراء، وكان حريصاً على مبادئ أمته حاملاً لقيمها مثلما كان معبّراً عن وجدانها. رحم الله فقيدنا الذي سننتظر طويلاً حتى تنجب الثقافة العربية مبدعاً بوزنه.

* * *

سبق جيله

المرحوم عبد السلام العجيلي، الروائي وكاتب القصة القصيرة وأدب الرحلات وكثير من العطاءات الأدبية والفكرية الشيقة والمنضرة بأسلوبه العربي السلس والرنّان صفاء وقدرة مشوفة ومنضّرة بالتعبير الفكري العميق. إن المرحوم العجيلي من جيل سبق جيله، وكان وزيراً وكان نائباً في البرلمان في الخمسينيات وما قبلها، وقد كان التعارض بيننا في السنوات الأخيرة من عمره من المصادفات التي تُذكر. ومن المصادفات الغريبة والشيقة أنني كنت عام ١٩٦٧ بعد غياب في المنفى لمدة ثماني سنوات وتزيد، في اللجنة التأسيسية التي كان يرأسها المرحوم سليمان الخش ذكرت اسم العجيلي، فرد عليّ: أنت اليساري وممثل اليساريين تذكر العجيلي؟! فأجبت: أنا لا أمثل اليساري، ولم يفوضني اليساريون للكلام باسمهم، أنا أتكلم باسمي وأقول لك؛ عبد السلام العجيلي ليس خائناً للوطن، ولا لشعبه، وإذا كنا نختلف معه في الأفكار، فليس معنى هذا أن نفتري عليه. عبد السلام العجيلي كان كبيراً ولم يخن وطنه، أو شعبه، والاختلاف في الآراء مطلوب جداً كي تتفتح مئة زهرة. كان هذا في بداية الثمانينيات، وبعد ذلك سمع فقيدنا الكبير الدكتور العجيلي بما وقع وجاء إليّ في كافيتيريا الشام وقبّلني وعانقني وعانقته بحرارة.

وعندما نال وسام الاستحقاق السوري من الدرجة الممتازة في الدورة الثانية والثالثة، قابلته في كافيتيريا الشام وعانقته مهنّئاً بالجائزة التي هو أهل لها. رحم الله الصديق الذي هو أحد أعمدة الفكر في سورية، وليكن في رحيله عنّا قد ارتقى إلى سدرة المنتهى. مع شعورنا، نحن الأدباء في سورية، بأن أحد أعلام الأدب قد غاب أيضاً بعد غياب الكبير محمد الماغوط الذي فقدناه. أسأل المولى العليّ القدير أن يرتّب نفسه مع الأبرار والصالحين. "يا دارجاً في الخلود ضميرَه، صلّتْ عليك الرفقةُ الأبرارُ".

نجم المجالس

مرة أخرى مع الموت، وخلال أيام؛ يجب أن أتحمل موت الماغوط ثم موت عبد السلام العجيلي. قصتنا مع العجيلي تختلف عن نزار قباني مثلاً أو الماغوط، فإذا كنا على خلاف في تلك السنوات مع المذكورَيْن فقد كان العجيلي معلماً قريباً إلى القلب والفكر. استطاع أن يكتسب ثقة من كانوا يسمون أهل اليسار وأهل اليمين على السواء، فقد أحس الجميع خلال مجموعته القصصية الأولى "بنت الساحرة" أنهم أمام أدب جديد رائد، ومع الزمن تكرّس هذا الاسم، روائياً وكاتب مقالة ومقامة ساخرة، بل كشاعر رومانسي أيضاً، وياما جلسنا في الخمسينات وتبادلنا السمر حول شعر الحب والطبيعة في حين كنا مشغولين في النهار بشعر المقاومة والثورة والعنف. الدروس التي تعلمناها من العجيلي أكثر من أن تحصى. أنا شخصياً أستطيع القول إنه نبهني لأول مرة إلى ما يسمونه الآن الواقعية السحرية أو أدب الفانتازيا عموماً، ومعه قدّرتُ أكثر الأدب الذي يفوح برائحة البيئة المحلية ويغدو في الوقت ذاته عالميا. وفي الجلسات الطوال في المقهى أو النادي، أو بيوت الأصدقاء نأكل ونشرب ونضحك ونسخر ونتألم كان العجيلي دائماً نجم هذه المجالس، حتى بعد أن أوغل في العمر فلم تستطع الشيخوخة أن تمنع روحه المرحة ونكهته الحلوة في الحديث، ولهذا ظل مجلسه فارغاً لا يملأه أحد إلا هو. ماذا أتذكر الآن؟ وما أكثر الذكريات وما أمرّها، لقد غلَبَنا على أمرنا الموت، فوا حسرتاه أن يتحول ربيع هذا العام إلى مهرجان للموت. مع السلامة يا عبد السلام، سلامة الذكرى، وسلامة الروح، في زمن رديء لا يطاق.

شوقي بغدادي

* * *

د. علي القيّم

رحيل الأديب الكاتب والصديق المبدع عبد السلام العجيلي خسارة كبيرة في الأوساط الثقافية والإنسانية ولكل من عرف هذا الإنسان الرائع الذي أثرى حياتنا الثقافية والفكرية والإعلامية منذ سبعين عاماً وأكثر وكان دائم العطاء والتجدد والتواصل مع الناس ..

هذا الأديب الكبير الذي ولد في مدينة ريفية أو شبه ريفية على نهر الفرات (مدينة الرقة) القديمة.. العجيلي عرف كيف يثمن العطاء التاريخي والأثري والفكري والإبداعي والإنساني الموجود في هذه المنطقة فكان لها وفيّاً معطاء لدرجة أن كل إنسان فينا وبشتى أرجاء الوطن العربي عندما يذكر عبد السلام العجيلي تذكر مدينة الرقة فأصبح هو ومدينته لا يتفارقان في السراء والضراء برغم كل التحولات الكبيرة التي مرت بها هذه البلدة..من بلدة صغيرة إلى مدينة مترامية الأطراف يانعة مزدهرة بعد إقامة سد الفرات ..

وأستطيع القول إن عبد السلام العجيلي صاحب الأعمال الروائية الكثيرة التي بدأت منذ أكثر من خمسين عاماً، وصاحب الإنجاز الحضاري أيضاً في مشروع طبيب تخرج وخدم في الريف فكانت رواياته الكثيرة المتلألئة والتي ترجمت إلى العديد من اللغات الحية فمن دواعي سروري أنني وجدت رواياته في الصين والهند وكثير من الدول التي تقدر العطاء الإبداعي للإنسان وأشيد في هذا المجال إلى أعماله (باسمة بين الدموع "الحب والنفس"أزاهير تشرين المدماة) والتي رصد من خلالها حرب تشرين التحريرية وفي الحقيقة هي مجموعة مقالات مستمدة من الحياة والعطاء الإنساني.. أما أحاديث الطبيب التي نشرت منذ عشر سنوات فحدث عنها ولا حرج فهي نفحة إنسانية لطبيب عاش فعايش فكان يتلمس أصداء الحياة من خلال زواره ويومياته المختلفة.. العجيلي بكل هذا الإرث اعتبره "جوهرة الفرات"

ولذلك هو كان دائما يسعى ؟لأن يكون بيننا.. من أهم ما تميز به أدب عبد السلام العجيلي أنه يذكرنا بالرحالة القدماء مثل (ابن بطوطة "ابن المقدسي" ابن جبير) وغيرهم من الذين كتبوا عن أدب الرحلات لكن أدب الرحلة عند العجيلي يتميز بنكهة خاصة وعطاء مميز لا نجده إلا في القلي النادر من الأدب العالمي وباعتباري بأن النقاد سوف يحتاجون إلى دراسات كثيرة حتى يستطيعون أن يقدموا صورة بانورامية من عطاءاته الكبيرة.. والآن أقوم بإعداد وتوثيق ملف عنه ليوزع على الجمهور. خسرنا جسداً ولكننا سوف نحتفظ بعطاءاته وإبدعاته لسنوات وعقود قادمة كثيرة وحسبنا أنه رحل بعد أن قدم وبعد أن كان ممثلا للأدب العربي السوري في كثير من المؤتمرات والندوات والمحافل والملتقيات الإبداعية الكثيرة وأنا شخصياً كنت أعرف جيداً وفي أخر مرة زارني إلى جريدة المعرفة كان يلهث بعض الشيء وقال لي:

يبدو أنه حان الوقت لترك مكاننا للآخرين.. فقلت له أمد الله بعمرك فأنت لا يمكن لأحد أن يحتل المكانة التي تحتلها وبالفعل سيبقى هذا المكان شاغراً في الحياة الأدبية والإبداعية العربية إلى زمن طويل .

* * *

جوهرة البداوة

طالما راهنتُ على أن تحتفل الثقافة العربية والسورية منها ببلوغ العجيلي قرناً من العمر، و لم يكن في الحسبان أن يغدرنا الزمن ليرحل عنا قبل أن نكسب الرهان.

عبد السلام العجيلي جوهرة البداوة المشعة، وقنديل الحكاية المضيء، الشيخ الجميل، فارس النبالة، شدّ الرحال ومضى بعيداً عن الأرض والعيون ليستقر في عمق ذاكرة الإبداع المعاصر الذي تأهل منذ البداية أن يكون من أهلها.

لم أفقد أخاً كبيراً، أو طبيباً إنسانياً، أو حكواتياً من طراز فريد فحسب، بل إننا

ثقافتنا أيضاً، وإذا كان لي من اعتزاز بصداقة جمعتني مع عدد من بنـــاة الإبـــداع السوري فإنه يبدأ بصداقة العجيلي التي امتدت لأكثر من أربعة عقود كان فيها أخاً ورمزاً لي في تلاحم الموهبة مع الصدق والارتباط بالوطن. الحق أقول إن العجيلـــي كان رمزاً قليل الانتشار وذلك في عقده للزواج الشرعي بين الحكايـــة والقصـــة المعاصرة، بل إنه من قلة من الكتاب الذين جعلوا من المحاضرة فناً قائماً بذاته، قد لا يشابهه فيه إلا العدد القليل، لقد كان العجيلي في حكاياته المتعددة الوجوه مؤسساً فاعلاً لبنية الأدب العربي الحديث، وكان واحداً من خير من ربطوا تاريخ الإبداع بمستقبله، ولنقل إنهم نسجوا خيوط التاريخ بالجغرافية البيئية والإنسانية. خلاصـــة القول؛ سيكون في حزننا أننا نقدّر رموزنا المبدعة دون استعداد لتقبّل حقيقة الموت بهدوء ويسر. إلا أن الرضا بما قُسم هو الذي سيتبقى لنا.

وليد إخلاصي

* * *

كما يعلق العطر

إذا ما ذُكر البارودي وشوقي وحافظ إبراهيم فإنهم يُذكرون بكل إجلال لأنهم كانوا الجسر الشعري ما بين ماض عتيق للشعر العربي توقف عن العطاء لعدة قرون حتى جاؤوا فكانوا الجسر للحركة الشعرية الحديثة المساوِقة لحركة الشعر العالمية، وإذا ما ذُكر العجيلي ويحيى حقي فإنهما يذكران بكل إجلال ومحبة جسراً رائعاً ما بين الحكائين العرب العظام، الذين ألفوا "ألف ليلة وليلة" و" المقامات" ووضـــعوا اللبنات الكبرى للسرد العربي، وما بين السرد العربي الحديث، مناطح الآداب العالمية دون خجل.

إذا ما ذُكر العجيلي ذُكرت القصص الســـورية الأولى في ســـحرها وجـــذبها واصطناع قارئ جديد لفن انقطع ما بينه وما بين متلقيه منذ قرون، إذا ما ذُكـــر

وحين قرنتُ العجيلي بيحيى حقي المصري فلأني لم أستطع أن أرى له مثيلاً في جيله في الكتابة الحنون والشعر المتماوج بين السطور وبين الحس الكامل بالمسؤولية عن جيل وفن لا بد أن نضع له الأساس لدخول العصر.

عبد السلام العجيلي كان أمة لوحده كما كان يحيى حقي، كانا أمة في كتابتهما، وأمة في الشكل الذي اختاراه لكتاباتهما، وأمة لن تنساها الأجيال التالية الذين يدينون بالكثير لهذا الجسر الذي سنذكره طويلاً.

خيري الذهبي

* * *

الكتابة بلا جدران

إذا كانت قد ناءت أرواحنا وكواهلنا برحيل تلك الرابية الشعرية الخضراء: محمد الماغوط.. فها هو القدر يسقينا فوق شقائنا، من دون توقف لالتقاط أنفاسنا برحيل رابية خضراء أخرى: عبد السلام العجيلي.

ما كنت، ولا كان لأصدقائي من الذين تعلموا كتابة القصة على يديه، أن نناديه سوى: يا معلم. فقد كان معلماً لنا جميعاً ومعه كوكبة من منارات القصة القصيرة في سورية: حسيب كيالي، سعيد حورانية، شوقي بغدادي، وليس فحسب أبداً.

أحار، كيف لي بعد أن أتابع الطريق والمنارات تذبل وتغيب. صحيح أنهم شقوا الطريق لنا، وسمعونا، وتلوا علينا مفردات القصص والحياة والمعنى، لكننا، حتى لو تعلمنا هذا الفن الصعب، فإن من المرّ والموجع أن لا تستند الكتابة إلى جدران شامخة وقوية مثلهم. سنكتب بعد الآن بلا جدران. لم يبق لنا إلا ما كتبوه، نقرأهم لا نتذكرهم، أحياء كانوا أم راحلين، بل لنعاود شد قاماتنا، وضبط أقلامنا، والغوص ثانية وعاشرة في هموم وطن شقي ما كان له إلى اليوم أن يشفى.

إبراهيم صموئيل

* * *

حكواتي شامي

في قصص العجيلي، وهو قاص أولاً وأخيراً، على الرغم من أنف الرواية التي كتب فيها سبعة أعمال، ثمة ما يتجاوز دائما نطاق المعنى، فيمنح أعماله مادة البقاء، والتأثير. تلك هي قدرته الباهرة على اجتذاب القارئ، وتوليد المتعة، في نص حكائي تتوفر فيه جميع العناصر الضرورية الضامنة للاستمرار. فقصصه (وأجرؤ أن أقول "حكاياته" ذلك أن عبد السلام العجيلي حكّاء ورث باقتدار سلالة مبدعي ألف ليلة وليلة) مشغولة بمهارة حكواتي شامي. وحبكته مشوقة، ترغم القارئ على المتابعة منذ بداية القص. ولا يعطي أجوبة على مسارات أحداث قصصه، فيما تظل نهاياته مفتوحة، أو إشكالية، تفسح المجال واسعاً للمشاركة في إعادة كتابة القصة، أو الإعداد لنهاية تنسجم مع تجاربنا، أو الإجابة على الأسئلة الوجودية المقلقة التي تقدمها. أما السرد لديه فهو مغوٍ، وحاذق، يتلاعب بالأداء، تقديماً، وتأخيراً، والأحداث غريبة، يسود فيها قدر عجائبي، ورط عدداً من نقاده لاتهامه بالغيبية، قبل أن تصلنا عاصفة أوراق أميركا اللاتينية. وشخصيات القصص شديدة التنوع، تنبض بحيوية ناجمة عن تفاعل عميق مع المكان، والزمان، شخصيات يقلقها الموت والنهر، ويشغلها المطر والتمائم، مثلما يحيرها التراب والوجود. كل ذلك مكتوب بلغة نثرية ذات نكهة تراثية، تخالطها مفردات الحاضر دون إكراه. مات عبد السلام العجيلي! عسى أن يكون موته، مثلما كان الاحتفاء به قبل بضعة أشهر، مناسبة لاستعادته إلينا، بعد أن هجرناه طويلاً، وكثيراً.

ممدوح عزام

* * *

شهرزاد الرقة

مدينة الرقة، مدينة السحر والميثولوجية، مدينة البداوة والبساطة، بناسها الطيبين،

عندما قرأت "بنت الساحرة" أصبح لديّ توقُ غريب لأتعرّف على هذا الرجل، يومها شدّتني إليه لغته البدوية الطازجة وصوره المنتقاة وعصاه التي يتكـــئ عليهـــا ويضجّ بها ركام الكلمات، وقصته التي تفضي إلى قصّة أخرى فكأنمـــا شـــهرزاد تشكلت واكتملت في الرقة.

بعد ذلك طرت معه إلى مصر، ثم إلى مراكش، حيث الأبنية الحمراء، قضيت معه خمسة أيام بلياليها نتمازح ونلهو في حسن المغرب، فكان الأديب والوالد معاً.

زرت وإياه المدينة الحمراء، رأينا نمط البناء العربي الأصيل في القلعة وفي المدينـــة القديمة ببيوتها وأزقتها وساحاتها، قال لي: "هل تعرف إنها تشبه حلب لو نظمـــت وعرف أهلها كيف يهتمون بها، وكيف يحافظون عليها". زرنا كـــذلك ســـاحة الغناء، وامتلأنا بالأعاجيب والسحر والشعوذة، كانت ترافقنا صبية من حسناوات المغرب وتشرح لنا ما يمارسه السحرة والكهّان.

عدنا من المغرب وتركنا المعتمد بن عبّاد يبكي أطلال الأندلس، وصارت علاقتي بالدكتور عبد السلام علاقة إنسانية شاملة، يأتينا في المقهى ويجالسنا فنسمع رنينه العذب وحكاياته الحلوة، وأذكر مرة كيف أنني، أنا والأستاذ سعد يكن، اقترحنـــا جائزة دار النقطة، وكانت الجائزة هي في تكريم الأديب ومنحه لوحة فنية وجائزة ماديّـــة، لقـــد قبـــل اللوحـــة لكنـــه رفـــض بكـــلّ إبـــاء الجـــائزة الماديّـــة. أحاديث وأحاديث، لم يكن يمل منهاّ، في السهرات وفي الندوة يطالعنا الرجل الأنيق بحكاياته المأخوذة عن العجائز وشيوخ القبائل والأفراد، يقص حياته ويحكيها كأنها حدثت الآن، ببهجة صوته يرويها وتسمعها فتظنّ أنك مأسور لهذا الرجل منذ ألف ألف عام، أو أكثر بقليل. ألتفّ على وسادتي، فيأتيني الخبر مبكراً، أسمع صوت عبد اللطيف الخطاب، ينقل إليّ نبأ الوفاة، فأعرف أنّ آخر فارس قد سقط وأنّ الساحة خالية تماماً، سوى من العتمة.

يشبه الفرات

صعقني الخبر الذي سمعته وأنا أصعد أعلى جبل في الساحل السوري، وخاصة أن هذا العملاق والروائي الكبير تجمعني به أشياء كثيرة فلا أستطيع أن أقول له وداعاً يا أستاذنا، نحن الجيل الذي نشأ في التسعينات وكنا تربينا على أدب العمالقة من أمثالك، كنت حين أسمع باسمك يهفو قلبي تبجيلاً وفرحاً إلى أن التقيتك في الرقة ودعوتَني إلى بيتك العريق. ربما لم أستطع الكلام في لحظتها لأنني أمام الروائي الكبير الذي أسس لذاكرة روائية سورية وعربية. وأنت الآن تودعنا وأعرف كم أعطيتَ وكم أحببتَ هذا البلد. أتذكر كتابك الأخير "أيام الصبا" الذي نشرته متضمناً ذكرياتك في فلسطين المحتلة، وذهابك في جيش الإنقاذ، وقد أرسلته من الرقة الجميلة التي رفضتَ أن تغادرها إلا في زيارات عابرة فكنت تشبه الفرات العظيم والفرات يشبهك، فكل يوم، وبعد أن قرأت الكتاب الذي يجب أن يدرّس ليكون نموذجاً لجيل الشباب العربي الطالع من نكبة إلى نكبة، كل يوم كنت أقول سأتصل بك وأقول سأكتب عن كتابك غداً، وغداً، وها هو الغد يأتي وأنت ترحل. ترحل جسداً ويبقى عبد السلام العجيلي الذي شكّل جزءاً مهماً من ذاكرة الأدب السوري والعربي. صعب عليّ يا سيدي أن أتحمل أو أن أقدر على الكلام في حضرة الغياب، غيابك وغياب الراحل محمد الماغوط، وكأنكما على موعد مع الموت، كم ذلك محزن خاصة ونحن في زمن بائس يحاول تضييع ذاكرتنا، لكننا لن نضيع وسنبقى أوفياء للذين أحبوا هذا التراب العظيم. وداعاً عبد السلام العجيلي، وبالتأكيد أنت لم تمت، لكنك تسافر في البعيد وتترك لنا أوراقك وإبداعك العظيم.

أنيسة عبود

* * *

الملك

في ظنّي أن رحيل هؤلاء الكبار يحيل إلى مفارقات عدة تستوقف المـــرء، أولاً؛ يرحل هؤلاء الكبار بعد أن أنجزوا مشاريعهم، وقدموا ما لديهم منذ زمن طويـــل، ورغم ذلك فقد صمدوا على عروشهم الأدبية عقوداً طويلة، و لم ينجح أحـــد في زحزحتهم عنها.تُرى، هل يعود الأمر إلى ضحالة ما قدمتْه الأجيـــال اللاحقـــة، بالمقارنة مع ما قدموه؟ أم إلى البنية البطريركية للمجتمع العربي (إذا استعرنا تحليل الراحل الكبير الآخر هشام شرابي) وهي البنية التي تنسحب إلى حقل الثقافة أيضاً.

ثانياً؛ بنى هؤلاء الكبار مجدهم الأدبي على مقارعة السلطة والأنظمة المتتاليـــة، وحملوا راية الحرية، ونادوا بكرامة الإنسان ومجده الأدبي، وذلك مـــا ســـاهم في تتويجهم على عرش الثقافة، وسط احتضان شعبي وإهمال رسمي، والمفارقـــة أنهـــم يرحلون اليوم وسط احتضان رسمي وإهمال شعبي، بعد أن أدار المواطن العربي ظهره للثقافة والسياسة والأدب والفكر، واكتفى بحياته البيولوجية المحضة من أكل وشرب وتناسل!

ثالثاً؛ كان جيل الأبناء يبدي ضجره ونفاد صبره من طول تربّع الآبـــاء علـــى عروشهم، والآن ها هم الآباء يترجلون بهدوء، تُرى من منَ الأبناء سيجرؤ علـــى اعتلاء العرش إياه؟ في ظنّي أن العرش سيظل خاوياً.

على الصعيد الشخصي كنت ضجراً كغيري بهؤلاء الآباء المصرّين على البقـــاء على قيد الأدب والثقافة، والآن؟ من أين يأتيني كل هذا الحزن الذي يخنق الروح؟ من أين يأتيني هذا الإحساس باليتم؟!

وفيق يوسف

* * *

الظُّرف وعمق الثقافة

عبد السلام العجيلي، الأديب والطبيب الإنساني بامتياز. التقيته، أول مـــرة، في

ما أذكره عن الرجل هو حضوره المميز بالظُّرف وعمق الثقافة، تماما مثلما هو أسلوبه في سرد القصص والحكايات، المكتوب منها والمروي شفهياً.

لقد أسس العجيلي في العام ١٩٤٨ "عصبة الساخرين الأدبية" المنسجمة مع طبعه الميال إلى السخرية. ويبقى أهم ما في الرجل توظيف معطياته كلها، من الأدب إلى الطب والسياسة، لخدمة الإنسان في وطنه.

إميلي نصر الله

* * *

واقعية بلا ابتذال

عرفت الفقيد عبد السلام العجيلي في مستهل ستينيات القرن الماضي يوم كان وزيراً للثقافة السورية، وكنت يومذاك في المركز الإقليمي لتدريب كبار موظفي التربية في العالم العربي التابع للاونسكو. وقمنا بزيارة إلى سورية، وفي اجتماع مع وزير الثقافة عبد السلام العجيلي لمست في كلمته الترحيبية وفي أحاديثه الجانبية شخصية أدبية فريدة في نوعها. فعبد السلام العجيلي ابن البادية وابن التقاليد الاجتماعية المنفتحة على الآخر وعلى العالم. ما أغراني بعد ذلك بقراءة بعض مؤلفاته وهي تكاد تبلغ الأربعين مؤلفاً. يتميز العجيلي في كتابته بالعفوية والصدق والواقعية البعيدة عن الابتذال وهو في انفتاحه على الثقافات الأجنبية استمر مع استفادته من تلك الثقافات، على نهج خاص، المؤمن بقوميته وإنسانيته وتعلقه بالبلد الذي ينتمي إليه. والحديث عن العجيلي ونتاجه الأدبي تصعب الإحاطة به في هذه اللحظة العاجلة الرازحة تحت وطأة الانفعال لفقدانه، وإننا نكتفي بهذه العجالة أن نقدم للمثقفين السوريين أطيب العزاء لفقدانه وإن لنا عودة مفصلة إلى نتاجه الأدبي.

جواد صيداوي

* * *

الوعي ممزوجاً بالسحر

كنت أسأله من أين تأتي بكل هذه القصص والمقالات فكان يضحك ويجيبني: من الدكان!

هكذا هو شخصية شيقة وملغزة أحياناص. فهذا المدني الطبيب القادم من الرقة في شمال سورية هو ذاته شيخ الصلح وشيخ العرب وكبير أسرته في حل المشاكل بين البدو والحضر.

شيخ العرب هذا هو ذاته النائب في البرلمان والوزير في إحدى حكومات بلاده. اشترك مرة في السلطة ثم آثر ترك العمل السياسي رغم طلبات ومغريات الحكومة المتعاقبة. انحاز إلى الناس والطب والكتابة والسفر.

شيخ العرب هذا هو نفسه الباريسي واللندني والنيويوركي وكذا من عواصم العالم.

يكتب المقالة ويكتب القصة ويكتب الرواية وكتبه فاقت الثلاثة والأربعين مؤلفا منها سبع روايات وثلاث عشرة مجموعة قصصية، وديوان شعر واحد، وخمس مجموعات من المقالات وعدد من المؤلفات الأخرى في مواضيع متنوعة.

أذكر له على وجه السرعة كتاب "جيل الدربكة" و"ادفع بالتي هي أحسن" ورواية "أرض السياد" ومجموعة "مجهولة على الطريق" القصصية.

هو صاحب طرفة وفكاهة وسرعة بديهة. يحفظ الشعر العربي جيداً ويتمتع بذاكرة مدهشة. له قصة في مجموعة "مجهولة على الطريق" بعنوان "الحاج" ما زالت تسحرني عندما أعيد قراءتها وتروي حدثا في منطقة البتراء في الأردن يقوم على ضياع امرأة في الزمان البعيد. لم أجد أياً من القاصّين العرب أتى بمثلها لجمالها وفتنتها وعقدتها المتينة. ولما سألته عن سر تلك القصة، قال لي إنه كتبها لمباراة أوروبية في القصة وقد نالت الجائزة الأولى.

عشر عاصفة زمنية. يرطن باللغات الأجنبية على غير عادة المبدعين السوريين وينضم بذلك إلى قلة قليلة من مثقفي بلاده. عاشق للنساء هو فتحار بأن المرأة التي يتحدث عنها أهي حقيقية أم مشروع شخصية في إحدى أعماله.

كان يثقف الناس ويطيبهم ويصالحهم بعضهم بالبعض الآخر. كان بمثابة النموذج الحي للطبيب الذي حكى عنه الروائي المصري يحيى حقي في روايته "قنديل أم هاشم". الوعي ممزوجا بالسحر وبالعادات المحلية.

عبد السلام العجيلي تغادرنا بعدما ارتويت من الحياة حباً وعملاً وإبداعاً وصداقات.

وما زالت ضحكتك ووصيتك ترنان في أذني: إياك والعمل بالسياسة.

عماد العبد الله

* * *

رحيل عبد السلام العجيلي فارس الحكاية العربية

بعد أربعة أيام من غيبوبة تامة، رحل الأديب السوري الكبير عبد السلام العجيلي، ابن الرقة البار وطبيبها، ونائبها حين كان في عز شبابه. وهو الرجل الذي تمسك بقريته، وفراتها، كما لم نر أديباً يفعل مثله من قبل. فهذا القاص والروائي الذي عرف حياة المدن، وجاب العواصم طولاً وعرضاً من أميركا الجنوبية وحتى الهند وهونغ كونغ واليابان، كان لا يكتب إلا في الرقة، ولا يريد أن يعيش إلا فيها، جاعلاً من دمشق مقراً لا مستقراً، ومن كل بقعة في الأرض مزاراً لا مقاماً.

توفي العجيلي، في "رقته" الأثيرة، صباح أمس، ودفن سريعاً - كما أراد - رافضاً أي مأتم رسمي، محاطاً بأبناء قريته الذين طببهم وشفاهم وبلسم جراحهم الخارجية والداخلية، بما يفيض على ٤٥ كتاباً أدبياً، تنوعت في أساليبها، وأنواعها، قافزاً بين الرواية والقصة والمقالة، وقبلها جميعاً كتب الشعر، وحاول كتابة

منذ كان عمره اثنتي عشرة سنة وعبد السلام العجيلي يكتب، ويحاول أن يجعل مما كتبه شيئاً ممسرحاً يمكن أن يشاهده الناس ويستمتعوا برؤيته، حتى قبل أن يرى المسرح بأم العين. تعلم في مدرسة الرقة الابتدائية، لكن مرضاً ألمّ به-بقي يقول إنه لم يعرف له اسماً - أبعده عن الدراسة أربع سنوات، عمل خلالها في طاحونة أهله يبيع من يريد أن يشتري، ويقرأ الكتب، مستغرقاً في مغامرات أبطال حمزة البهلوان، وقصص جرجي زيدان التاريخية. منذ تلك الأيام كان العجيلي يقول لوالده "أحلم بأن أكون بطلاً أسطورياً، أفتح البلاد وأذهب شرقاً وغرباً محارباً لأعلي كلمة كلمة الحق!".

وقد فعل ربما، كل ما حلم به ذاك الصبي النهم للقراءة الذي تربى على ألف ليلة وليلة، وعنترة والزير سالم، وتغريبة بني هلال، تلك الكتب التي كان يقرأها الكبار حينها، لقد حمل في جعبته زاداً من خيال، وخزيناً تراثياً جعله بعد ذلك، يحاول أن يكتب على طريقة المعلقات، أو يقارب الموشحات، منوعاً في الأساليب، متمرداً على الشكل الواحد.

تكراراً روى العجيلي أنه لا يعرف لماذا يصنّف تحديداً على أنه قاص. فلو لم تكن الرواية هي بنت هذا العصر المدللة، لربما كان اختار أشكالاً أخرى ليقول كلمته. وكان يروي العجيلي، دائماً إنه كتب مئات المقالات، وحاول منذ البدء، تطويع عباراته الشعرية نثراً كي تستقيم قصصاً. وإنه أراد أن ينتمي للقص كي يساير مزاج العصر.

أديب من صنف خاص، لأنه جعل تجربته الحياتية الغزيرة كلها في خدمة الحكاية، عمله كنائب ومن ثم عمله كوزير للثقافة والخارجية والإعلام، وكطبيب مبرز، صبّت دائماً في تلك القصص الكثيرة التي كان يرويها ويروي عنها الكثير.

"حياء مفرط كنت أتسم به منذ الصغر، وانطوائية على نفسي ما زالت تلازمني

لنفسي"، يعترف العجيلي، ويروي أيضاً إنه تخفى وراء ما يزيد على عشرين اسماً مستعاراً، حين كان يكتب وهو تلميذ في كلية الطب، قبل أن يكشف عن اسمه وهويته. هكذا كان، وهكذا بقي العجيلي، يفضل الوحدة والكتابة، والاستفادة من الوقت القليل الذي يتبقى له من العيادة، غير آبه بحياة المثقفين وأحاديثهم وجلساتهم وأجوائهم. "الإنتاج همزة وصل بيني وبين كثير من الأوساط التي كنت أتجنبها بانطوائيتي المعهودة، وبميلي إلى أن أكون في الأدب مجرد هاو، لا عاملاً جادا". لقد غلبت صفة الأديب، كل الصفات والأعمال التي مارسها العجيلي، لكنه يقول بأنه لم يتعمد ذلك "بل إني أحاول أن أكون أديبا على الورق فقط، بمعنى أن تكون صلتي مع القراء والأدباء الآخرين صلة قراءة وكتابة، لا صلة شخصية".

في عام ١٩٤٨ استقال عبد السلام العجيلي من عضوية البرلمان والتحق بجيش الإنقاذ، كطبيب، ومدافع عن الحق العربي في فلسطين. وفي حرب تشرين زار الجبهات التي دار فيها القتال، وقابل المتحاربين واستمع إلى حكاياتهم، وكتب رواية "أزاهير تشرين المدماة" التي كان يتمنى لها أن تتحول إلى فيلم سينمائي. وقال وهو يتألم على العراق: "لو كان بيدي أن أشارك مشاركة فعلية المعذبين والمضطهدين والمناضلين في العراق، ولو بأبسط الطرق، لكان ذلك أجدى في ما أعتقد من ألف صحيفة تكتب عن هؤلاء المعذبين والمضطهدين.. فالكلام عن هذا الشر كلام موجه إلينا وحدنا، ولا يرضيني".

وعكة، فجراحة، ففالج ألم بعبد السلام العجيلي، وزلة قدم أقعدته عن الحركة.

بوفاة عبد السلام العجيلي ، خسر القص العربي أحد فرسانه الكبار، ليس لأن الرجل كتب ما لا يضاهيه في الأدب العربي، بل لأنه من فصيلة أولئك الكتاب الذين ردموا الهوة بين الحياة والحكاية.

ترجم عبد السلام العجيلي إلى العديد من اللغات، وكرم لمرات عديدة، وأحبه القراء العرب في "ألوان الحب الثلاثة"، كما "قلوب على الأسلاك" و"المغمورون" و"قناديل اشبيلية" و"فارس مدينة القنطرة".

سوسن الأبطح

* * *

ألق الحكاية النائمة

كان عبد السلام العجيلي محطة أساسية في القراءة المبكرة، لا بد من التوقف عندها، مثله مثل جبران خليل جبران، وإن من موقع مختلف. فهذا الحكواتي بامتياز، لطالما شدنا بعنف إلى عوالمه وشخوصه القدرية، وفضاءاته البدوية، لكن مرحلة النضج، أو هكذا كنا نعتقد، أقصت تجربة العجيلي جانباً بصفته ممثلاً لنص سلفي، لا يليق بتوجهاتنا الماركسية الطليقة. وعلى رغم أنني أنتمي إلى البيئة البدوية ذاتها، إلا أنني كنت أحلق في فضاءات أخرى تضع أعمال هذا الكاتب في الرفوف المنسية للمكتبة.

قرأت "ساعة الملازم" في وقت المبكر، فقادتني رغماً عني إلى صحراء غامضة، ورمال تدفن أسرار العابرين، ورائحة بارود الغدر. كنت أستعيدها كما لو أنها شريط سينمائي ينبض بأرواح بشر، دخلوا مجاهل الرمل، وباتت من المستحيل، أن يرمموا حياتهم على نحو آخر.

وفي "أرض السياد" أعادني إلى ميثولوجيا البدو، وإلى شخوص، أعرفهم جيداً، ومن دون أن أفكر يومياً، في قابليتهم للكتابة.

لست سليلاً لسرد العجيلي، لكنه اليوم يمنحني ألق الحكاية. فاللغة وبنية السرد والمجاز، تتحول هنا إلى عالم غرائبي ومعيوش في آن معاً، ومن دون حكاية، ليس في وسع الروائي والسارد عموماً، أن يقبض على أدواته، ويشكل فضاءات مفتوحة

في شخصيته، منعه من المجازفة في كشف أسرار مطبخ الحكاية. فضمير المتكلم، ظل نائماً في اللحظات الحرجة، وهو ما أحتاج إليه كقارئ لترميم أجزاء النص. وحتى حين قرر أن يكتب مذكراته ، فقد ذهب إلى الضفة الأخرى، ذكريات أيام السياسة ويوميات جيش الإنقاذ، كنوع من الحفاظ على هيبته البدوية فيما يحتاج الأدب إلى مكاشفة وتوغل في المناطق العميقة في الذات.

ما يحسب للعجيلي، أنه حرث أرضاً بكراً في الكتابة، أرض الفرات المهملة، وأسرار الصحراء، ورائحة البداوة، مما أضفى بعداً سحرياً على شخوصه، هؤلاء الذين لم يتوقعوا يوماً ما، أنهم سيقفون على الخشبة، كأبطال لأصوات مسموعة.

وفي قصص صاحب "المغمورون" بلاغة عربية أصيلة، تمتح من معجم التراث، في تناص صريح، بين أمثولة الأمس وأمثولة اليوم، وكأنه "ستندال" من الشرق، يلتف بعباءة القيم الأصيلة. هكذا يمنح أدب الرحلة اهتماماً لافتاً، مثلما يعرج على تقنيات "المقامة"، لتأصيل حكاية عربية، لا تلتفت إلى تقنيات وافدة، إنما تجد في "سيرة عنترة" مثلاً ملاذاً لهواجسه الحكائية.

يصف العجيلي تشكلاته الأولى قائلاً:

"وجدت في مكتبة قريب لأبي روايات جرجي زيدان فقرأتها كلها في طبعتها الأولى، مع العقد الفريد وكتب تراثية أخرى.

كنت في طريقي بين منزل أهلي والمطحنة التي أقصدها في الصباح، أتعمد السير في الأزقة الشعبية التي لا يراني فيها أحد، حتى أقرأ الكتاب الذي بيدي وأنا أمشي، ثم أتم قراءته وأنا وراء القبان، أزن أكياس الطحين لزبائن المطحنة. من تلك القراءات كسبت ذخيرة من المعرفة وحباً للأدب ومحرضاً لخيال الصبي اليافع الذي كنته".

اليوم ربما علينا أن نعيد الاعتبار إلى ذلك الرف المنسي في المكتبة، ونستعيد ألق الحكاية النائمة التي كتبها أحد الرواد البارعين، ونرمم نصنا بما ينقصه من رائحة محلية، هي في المآل الأخير مقصد الكتابة ونهرها الجاري إلى ضفاف بعيدة.

خليل صويلح

* * *

عبد السلام العجيلي .....وداعاً

عبد السلام العجيلي، ظاهرة فريدة في الحياة السورية على الصعيد السياسي والثقافي في اتحاد لا يقبل التجزئة.

من الرقة جاء إلى دمشق نائباً عام ١٩٤٧ فكان في المجلس النيابي خطيباً مفوهاً ومناقشاً هادئاً وديمقراطياً بامتياز، يختلف مع الآخرين في الرأي ولكنه لا يخسرهم ولا يدعهم يخسرونه، ودائماً كان يعتبر تباين الآراء ظاهرة صحية ولم يعتبر ذلك خراباً للبصرة كما كان يفعل الكثيرون من النواب.

الإيمان بحرية الإنسان مثلت دائماً حركته الفكرية ولم يبادل على إيمانه بأي منصب أو مغنم.

صار وزيراً مراراً ولكن في دمشق ظل يلازم أصحابه في مقهى البرازيل وجلهم من المثقفين والأدباء والشعراء، وكأنه كان يعتبر الوزارة واجباً أما المقهى والأصحاب فهما فترة الراحة من عناء العمل الرسمي.

كانت آراؤه السياسية تتسم بالمنطق وتدق ناقوس الخطر في وقت مبكر ..

كان عبد السلام عربياً صافياً ولكن دائماً كان يخضع لأسلوب الدراسة والاتفاقات متجاوزاً الشعارات من أجل إقامة بناء وحدوي يستند إلى قاعدة من المصالح والشروط بحيث يتحول هذا البناء الوحدوي إلى مركز إشعاع للحرية والديمقراطية.

في كل عمل أدبي تقرأ أسلوبه هذا فهو أديب يعطيك رأيه في مشاكل الناس بأسلوب ممتع ولا يفرض عليك رأيه بل يجعلك تختار الانضمام إليه اقتناعاً.

في الفترة الأخيرة من عجزه ومرضه وعدم قدرته على مغادرة المترل لم يفارقه المسرح فكان يقول للذين يسألون عن حاله (وليس إلا أن أدب على العصا فيشمت أعدائي ويكرهني أهلي).

كان دائماً لا يرد أن يحمل أحداً متاعب شيخوخته وفي الواقع لم يكن له أعداء وحوله كان الأهل والعشيرة ولم يتأفف أحد منهم عن خدمته، ولكن شعوره الداخلي كان يقوده إلى ذلك متهكماً على وضعه كعادته في التهكم على الحكام والمستبدين والظالمين والمتخلفين.

ذهب عبد السلام إلى التراب ...ولكن من قال أن المعدن الذهبي يأكله التراب ؟

إدوار حشوة

* * *

الرقة تودع أيقونتها

إنه اليوم الحزين في مدينة الرقة

لقد فقدت الرقة أيقونتها وودعت اليوم بحزن عميق أديبا وروائياً مبدعاً وطبيباً بارعاً وإنساناً حمل بكل صدق هموم الوطن والصغير قبل الكبير.

مضى الدكتور عبد السلام العجيلي مكرماً ..تحمله أفئدة وقلوب أبناء بلدته التي أحبها وعشقها كل الحب والعشق.. قبل أن تحمله راحاتهم. إنه اليوم الحزين لنهر الفرات، الذي لطالما كان الصديق المخلص والوفي لكافة أبناء المحافظة، نشكو إليه أحزاننا فيسمع لنا نذهب إليه بكل الأوقات وبكل المناسبات .

إن كنّا حزينين على فقدان عزيز على قلوبنا ذهبنا إليه

وإن كنّا فرحين بلقاء غائب ذهبنا إليه

سيحزن الفرات اليوم لأنه فقد رافداً من روافده
وستحزن الرقة لأنها فقدت رجلاً كريماً عزيزاً
سيحزن الوطن لأنه فقد فكراً منيراً مبدعاً
وستحزن الأمة لفقدانها طبيباً بارعاً

ستفقدك الأمهات والآباء والأبناء، أزقة الرقه الضيقة التي أحببت، مجالس العزاء ومجالس الأفراح، الفرات وباب بغداد والجامع القديم، سيفتقدك الكتّاب والأدباء وقاعات المركز الثقافي، سيفتقدك الفلاح وسنابل القمح الذهبية وأجراس القطن.

سنذكرك دائماً لأنك في القلب نبضة وفي الشرايين نقطة دم

سنذكرك في كل شربة ماء من فراتك الغالي ومن ينهل من مائك لن ينسى مذاقها العذب ولن ينساك أبداً

فخراً لنا كنت وستبقى دوماً وأبداً

إلى رحمة الله ومع النبيّين والصديقّين إن شاء الله

عروة المهاوش

* * *

العجيلي كما الفرات

بعض الناس يبتعدون عنك بحيث يصعب عليك أن ترى ضوء الإنسان فيهم.بعضهم يقتربون منك أكثر من اللازم بحيث يغرقونك في تفاصيلهم الشخصية قبل أن يعطوك الفرصة لتلمس ملامحهم العامة!

أعتقد أن المبدع الكبير الراحل عبد السلام العجيلي يكاد يكون الوحيد من أعرفهم الذي يملك ميزات الذهب في تحديد المسافة الأنسب بينه وبين الأشخاص والموضوعات والأشياء، مما جعل الشاعر الملهم نزار قباني يقول عنه:"عبد السلام العجيلي أروع بدوي عرفته الصحراء، وأروع صحراوي عرفته المدينة". صحيح أن

نشر على صفحتين في تشرين: ما يزال حيّاً في وجداني، فقد أسرني الرجل بأسلوبه المتواضع في التعبير عن كبريائه العميق، كما أخذت بعباراته البسيطة في التعبير عن أعمق الأفكار وأكثرها حكمة.

أحسب أنها ليست مجرد مصادفة أن تكون كلمة "السلام" في منتصف اسم العجيلي، صحيح أن الرجل قاتل في فلسطين، وخاض خلال حياته مختلف أنواع المعارك، إلا أن مظهره حتى في سنواته الأخيرة لم يكن يوحي بعمره الحقيقي أبداً، فوجهه ظل ينضح بالعافية، وكلامه ظل يقدم الدليل تلو الدليل على عافية روحه.

أثناء اليوم الذي أمضيته مع الدكتور العجيلي في الرقة اكتشفت أنه يعيش نوعاً مزدوجاً من العافية، عافية الروح التي يحافظ عليها بالقراءة والكتابة والانغماس في كل أطياف الجمال.

أما عافية البدن فمردها إلى أن د.العجيلي لا يدخن ولا يشرب وهو مدمن على شيء وحيد هو المشي.

قلت في مقدمة ذلك الحوار: في كل يوم يخرج الدكتور عبد السلام العجيلي من بيته قبيل الغروب باتجاه جسر الرقة القديم منتعلاً خفاً قماشياً، ويسير على الطريق القديم الظليل باتجاه المقص. ساعة في الذهاب ومثلها في الإياب وفي طريق عودته يعرج على مكتبة (الخابور) ليستطلع المطبوعات الطازجة التي تصل المدينة في ذلك الوقت، فيشتري بعضاً منها وقد يقرأ مقالاً ما وهو يتمشى في طريق عودته إلى البيت.

في المساءات يذهب د. العجيلي إلى مضافة آل العجيلي، المفتوحة لمن يشاء وهناك يستمع لأخبار المدينة وأحاديث الناس، وفي حال وجود نشاط مهم في المركز الثقافي العربي في الرقة فقد يحضر النشاط ويشارك في النقاش، وغالباً ما يخطف الضوء من المحاضر.

كطبيب لا تقل عن شهرته كأديب، لدرجة أن اسمه بات يذكر في الأغاني الشعبية كطبيب يستجار به لمداواة العاشقين:"أنا دخيل الدكتور عبد السلام العجيلي"!.

أعتقد أن الأديب المدهش عبد السلام العجيلي هو أحد أكثر الكتّاب السوريين قدرة على الإقناع، فقد باح لي أنه يعاني حقاً من اعتقاد الناس بأنه هو البطل الحقيقي لكل قصص العشق والغرام التي كتبها!.

كما الفرات في خاطر الرقة، كذا يبقى العجيلي دفقاً متجدداً في خاطر كل عاشق للأدب الأصيل.

حسن .م.يوسف

* * *

العجيلي.. الرائد

ذات يوم في أواسط القرن العشرين الماضي، كان محمود تيمور هو فارس القصة العربية القصيرة المحلّي، كأنما لا أحد سواه. ومع أن الدكتور عبد السلام العجيلي ليس من جيله، فإن الشاعر الكبير نزار قباني وصفه بأنه رائد القصة العربية القصيرة، وقال مثل هذا الكلام القاص المصري المبدع د. يوسف ادريس. ومن أسف أن مجموعات العجيلي الأولى مفقودة، ولكن الفنان غازي الخالدي أعارني ذات يوم مجموعة "قناديل إشبيلية" الصادرة عام ١٩٥٦ فقرأتها التهاماً في جلسة واحدة، وأذكر أن العجيلي قدر أن ينقلني إلى تلك المطارح الأندلسية التي أثارت شجونه وجميع مشاعره القومية، إذ يمتزج الزمان بالمكان، على وقع موسيقى الأيام الخوالي. ورحت أبحث عن مجموعتيه السابقتين **"بنت الساحرة" و"ساعة الملازم"** وقد عثرت على الثانية عند أحد باعة الكتب القديمة، أصدرتها عام ١٩٥١ دار العلم للملايين، وكانت بين دور النشر الأولى والقليلة التي يستطيع القارئ أن يقتني منشوراتها وهو مغمض العينين. أما "بنت الساحرة" فقد سبقت بثلاث سنوات، أي

معاً، ولكني أحب أن أتساءل عن عدد المجموعات القصصية الجديرة بحمل اسم هذا الجنس الأدبي في سورية يومئذ؟ أنا واثق أنه لا يتجاوز الرقم خمسة في أفضل الأحوال، وهنا أضع يدي على مكمن السر في عبقرية هذا الرجل، فإنه كان رائداً في كل لون أدبي طرقه، وفي كل فعل أتاه. وعلى سبيل المثال فإنه- وبديهي أنني لا أعني الهمذاني أو الحريري- سبق الظريف الآخر الراحل حسيب كيالي في بابة المقامات، وكان الاثنان في "عصبة الساخرين" وهو رائد في حديث الظرف والفكاهة:"فصول أبي البهاء". وكذلك الحال في محاضراته، ولست أنسى تلك المحاضرة التي ألقاها قبل سنوات قليلة في النادي العربي بدمشق، وقدم فيها معاوية بن ابي سفيان، مستنتجاً أنه كان مصاباً بمرض السكري، بناء على بعض العلائم عند أول خليفة أموي. وكان رائداً في رواياته، قادراً على الإمساك بقارئه حتى الحرف الأخير، وهذا شأن روايته الأخيرة **"أجملهن"** التي لم أستطع تركها حتى أنهيت قراءتها. وكان رائداً في رؤية الواجب القومي، في الدفاع عن فلسطين، يوم انخرط في جيش الإنقاذ –فوج اليرموك في مطلع عام ١٩٤٨، وهو وقتها عضو في المجلس النيابي، ويُذكر أنه وزميله الآخر الأستاذ أكرم الحوراني- وهذا كان عضواً في المجلس النيابي- قصدا رئيس الجمهورية حينذاك يستأذنانه في السفر إلى فلسطين فقدم الرئيس شكري القوتلي مبلغاً من المال في ظرف لكل منهما. فبادر العجيلي إلى الاعتذار عن القبول رغم إلحاح القوتلي "مؤكداً لهما أن هذا المال ليس من أموال الدولة" كما يروي سهيل العشي الذي كان مرافق الرئيس القوتلي في مذكراته. وعندما سأل الحوراني العجيلي عن سبب اعتذاره قال: إذا ذكر هذا فيما بعد.. ألن يوجد من يقول إننا تطوعنا مأجورين للدفاع عن فلسطين؟ أليس هذا هو الرائد الذي ينظر بعيداً.. بعيداً؟.

نصر الدين البحرة

عمالقة الكلمة

منذ يومين فقط كنت أحدّث طلابي عن الشاعر الراحل محمد الماغوط. غير أن المصائب لا تأتي فرادى في هذا الزمن ، وها نحن أولاء اليوم نودّع عملاقاً ضخماً من عمالقة فن الكلمة، رائداً من رواد فن القصة، وروائياً لا مثيل لموهبته في القصص والرواية. إنه عبد السلام العجيلي الذي شغل كل عقود النصف الثاني من القرن العشرين بإبداعاته القصصية والروائية.

قبل شهور كنت أقف قريباً منه وهو يرقّع كتابه الأخير (جيش الإنقاذ)، وأعبر لبعض الأصدقاء عن إعجابي بذاكرة العجيلي القادرة على استحضار أحداث النكبة البعيدة بكل تفاصيلها.

أما اليوم فأنا أدرك، في لحظة الحزن هذه، سر نضارة ذاكرة العجيلي. لقد كانت هموم هذا الوطن وأحلامه تسكن قلبه، ترافقه أبداً في حلّه وترحاله، تسيل على صفحات أعماله من (بنت الساحرة) إلى (جيش الإنقاذ) حيّة، طازجة، ناطقة بحب العجيلي لوطنه وأبناء وطنه، معبرة عن ضمير شعبه الذي بادله حباً بحب.

لقد كان عبد السلام العجيلي واحداً من كوكبة من عمالقة فن الكلمة الذين لم تستطع (النكبة) ولا (النكسة) ولا ما تلاها من مصائب أن تزعزع إيمانهم بالقيم السامية، قيم الحرية والحق والدفاع عن الإنسان ومقاومة الشر والقهر، فصمدوا في حراسة هذه القيم حتى آخر ساعة من حياتهم.

أطال الله في عمر من تبقى من هذه الكوكبة، وأمدّ الحركة الثقافية العربية بالقدرة على متابعة رسالة سعد الله ونوس وممدوح عدوان ومحمد الماغوط وعبد السلام العجيلي.

د. فؤاد المرعي

* * *

كسوفاً أو شيئاً من الكسوف لم يخرجه منه أنه ظل على قلمه يوقع كتاباً تلو كتاب. حتى الرواية لم يهجرها فأصدر عام ٢٠٠١ روايته "أجملهن".

ذاكرتنا قصيرة ولا صبر لنا على الذين يعاندون في أن يستريحوا على اسم حصلوه أو مقام ركزوا فيه. وعبد السلام العجيلي ظل يكتب ظل يطبب وظل يفكر فلم يتح لنا أن نسجنه في تاريخ أو ندفنه قبل أن يموت.

لا نعرف إذا كان الأدب خلاصة حياة العجيلي أو وجهاً من وجوهها الكثيرة. حياة العجيلي واحدة من رواياتنا النادرة، إذ الأرجح أن كثيرين من أهل الأدب وغيره يكادون يكونون بلا حياة. البدوي الذي طالما غشي مضارب أعمامه في ظاهر الرقة والذي أخره المرض عن متابعة دراسته غداً في النهاية طبيباً. والطبيب الشاب كان أصغر نائب في البرلمان السوري، والنائب تطوع ليحارب في فلسطين، والمناضل الشاب الذي بدأ شاعراً كما يبدأ الجميع وأصدر مجموعة أولى أيضاً غدا روائياً. بل غدا بين مؤسسي الرواية السورية والعربية، الروائي غدا وزيراً مرات لكنه ينسحب ويعود إلى الرقة طبيباً وكاتباً ومواطناً عادياً حبيباً لقومه أميناً لهم. حياة طالت تسعة عقود تقريباً شاهدة على قرن، ولكن شاهدة أيضاً على جدل ثقافة وجدل مجتمع، بقدر ما هي مغامرة شخصية تكاد تكون بطولية، وتكاد تستقبل حقلاً من الخيارات والتوجهات، وتكاد تستقيم نموذجاً قائماً بذاته لتفاعل ثقافات ومجتمعات ومخارج تاريخية.البدوي الطبيب، والنائب المقاتل، والطبيب المناضل والروائي، وصاحب السلطة عائد كأن شيئاً لم يكن وكأن لم يغربه الطب ولم تغربه السلطة إلى منابته ومضارب أعمامه، دون أن يكون في انتقالاته الفريدة هذه انقطاعات مؤلمة ولا مرارات ولا انقلابات دراماتيكية، لقد تواصلت في حياته وتتابعت كقدر واحد وكمسيرة غير منقطعة، اتصلت البداوة بالعلم بالسلطة بالقومية بالانخراط الاجتماعي في مصالحة لا تقوم إلا في حياة بالغة الخصب، بالغة

يمكن للعجيلي أن يكون بحق مؤسس الرواية السورية. سبقه بالطبع آخرون لكن الرواية لم تبرأ من الخواطر الأدبية المفرطة والرسالية إلا على يديه. لم يكن العجيلي بالطبع راوي البداوة، بل إذا كان للبداوة لغة فإن العجيلي أبعد ما يكون عن فحواها وحرفها، كان إنجاز العجيلي في الرواية إنجازاً لغوياً بدرجة ما.

عباس بيضون

* * *

الصديق

ما إن تذكر اسم عبد السلام العجيلي حتى يتوهج أمامك كل ما يأسرك فيه: الحديث الطلي الممتع، والذاكرة الأدبية المدهشة والخلق النبيل الأصيل والتعليق الذكي الساحر.

ولابد لك أن تتذكر ما قاله فيه صديقه الشاعر الراحل نزار: "عبد السلام هو أروع بدوي عرفه الحضر وأروع حضري عرفه البداة".

حيت تجالسه وتصغي إليه بقلبك وبسمعك وهو يسرد بلغته العذبة المتدفقة كما تدفق الفرات والتي تغمرك كما نسائم البادية أيام الربيع قصصاً من الشرق ومن الغرب والتي تكون مزيجاً ثراً من ذكرياته وطرائف أسفاره وقراءاته التراثية والحديثة ويطرز ذلك كله بأشعار يبهرك كيف يجود بها مخزونه الأدبي العجيب أمام هذا كله تجدك توقن أن مجموعته الرائعة "أحاديث العشيات" ليست مجرد كتاب أخرجه للناس منذ خمسين عاماً وانتهى الأمر وإنما هو حديث متصل متجدد سنة بعد سنة يمتع به المتحلقين حوله من رفاق العمر والسمر، ومن حظي العظيم أنني كنت واحداً من هؤلاء الذين سعدوا بصحبته الحلوة في سنوات ذلك العمر الجميل وبالجلوس إليه في أماكن شتى من الأرض جمعتنا وكنت عندما ألتقيه مهما طالت فترات الغياب أجده هو هو نفسه، الإنسان النبيل الأصيل الوفي لأصدقائه يسأل

أما حرصه على اللغة العربية ووفاؤه لها فكان شيئاً يفوق الوصف كان يريد لهذه اللغة أن تبقى سليمة صافية لاتشوبها الشوائب.

ولعل أجمل ما قام به غيرة على لغتنا الجليلة هو حين بعث ببرقية إلى الرئيس جمال عبد الناصر يتأسى فيها على أن الرئيس سمح بأن يكون نشيد الجمهورية العربية المتحدة الوليدة مكتوباً باللهجة العامية الدارجة.

وعندما كنت أعمل في الإذاعة السورية في أواخر الأربعينيات كان مدير الإذاعة حينذاك صديقه الحميم الأديب الكبير فؤاد الشائب ودأب العجيلي الحريص على سمعة صديقه وإذاعته على لفت نظره من وقت لآخر إلى أخطاء لغوية ولفظية يقع فيها المذيعون وكان أكثر ما يؤذي سمعه حين يجعل المذيع حرف الذال زاياً ويقول: "هنا إزاعة دمشق" وكان يهتف إلينا من "الرقة" ليشير إلى تلك الهفوات التي انطلقت من عندنا وهكذا رحنا الأستاذ الشائب وأنا،بدورنا نتشدد مع المذيعين ليصلحوا ما اعوج من لسانهم فأصبحوا وهم يهمون بدخول الاستوديو لقراءة نشرة الأخبار أو حديث أدبي يحذرون بعضهم بعضاً ويقولون: "انتبهوا يا شباب.. الدكتور عبد السلام يسمعكم".

صباح قباني

* * *

سنديانة سورية

لا يسعنا إلا أن نقف بإجلال وحسرة لفقدنا قامة أدبية شامخة ماتت واقفة صلبة صلابة سنديان سورية.

..نأسف كل الأسف لجفاف قلم لطالما خط صفحات خالدة من أدب الحياة وأغنى المكتبة العربية بالروائع.

كان عبد السلام العجيلي إنساناً سورية قبل أن يكون طبيباً وأديباً.

إرثه الأدبي ينبض بالحياة

كنت قبل فترة وجيزة قد كتبت نصاً في جريدة تشرين تحت عنوان "الذين يمنحون الرؤية" ومن بين العديد من المبدعين العرب في الوطن العربي ذكرت الراحل عبد السلام العجيلي. ولا أريد في هذا الحيز أن أكرر ما قلت إذ قد يكون العنوان كافياً من حيث دلالته.

فالأديب الكاتب إنسان تسقط أوراق عمره ورقة ورقة، لكن النصوص الإبداعية لا تتساقط أوراقها على الإطلاق لأن الإبداع لا يموت إلا إذا ولد ميتاً بمعنى أنه لم يصل إلى مرتبة الشغف والوميض الآخاذ في الجملة والعبارة ورسم أبعاد الشخصيات وتقلبات زمانها وتظهير نمط الحياة الاجتماعية والبحث في الأسئلة والتساؤلات التي تقض مضاجع الإنسان في كل عصر وإن اختلفت زوايا الرؤية وطبيعة مقاربة الأسئلة والعجيلي واحد من أعمدة الأدب في سورية والنطاق البهي العام ولأن هذه الكلمات شهادة في مناسبة حزينة فإنها لاتتوخى الخوض في بحور هذا الأديب اللامع الذي ترك لنا وللأجيال القادمة ذخيرة ثقافية حية وحقيقية تضج بتساؤلات الحياة وتناقضاتها وتبحر في الحاضر برجع صدى يطال الماضي والمستقبل ويؤسس لذاكرة أدبية إنها باقية بعد رحيل من خط خرائطها ورسم مساحاتها وخاض في تعرجاتها وتسلق المرتفعات ليلقي نظرة متفحصة على الوديان والأشجار وبريق الألوان الآخاذة.

رحل الأديب الكبير العجيلي لكن ماتركه لنا ينبض بالحياة ويفتح عيوننا على دهشة الاكتشاف والمتعة والقول الباقي وتفتح العقول والقلوب في وقت واحد.

موسى السيد

* * *

العجيلي جائزتي

تذكر حادثة هي من ذكرياته وذكريات الوطن فلم يتمالك نفسه وحملت دموعه أكثر من معنى وأكثر من قصة مما يروي عادة أو يكتب أو ينشر.

تذكر يومها كيف كان يستعد في معسكر بقطنا للالتحاق بجيش الإنقاذ وأفواج المتطوعين للحرب ضد الصهاينة عام ١٩٤٨ وكان يومها نائباً للمجلس النيابي وكان أكرم الحوراني زميله في المجلس وفي الاستعداد فاستدعاهما الرئيس الراحل شكري القوتلي إلى دمشق على عجل.

وظل القوتلي يمدد في الحديث كأنما في انتظار شيء ما حتى دخل أمين سره حاملاً مغلفين وفي كل مغلف مبلغ من المال هو كبير بما حمله من معنى وفي قيمته.

رفض العجيلي المبلغ فظن القوتلي أن رفضهما لأن المبلغ من أموال الدولة فأقسم الرئيس القوتلي أن المبلغ من ماله الخاص وقد بعث أمين سره ليحضره من المنزل.

بكى العجيلي وحق له أن يبكي تلك الأيام أمام جمهور جاء في تلك العشية مستمعاً ومعظمه لم ينس تلك اللحظات التاريخية في حياة الأمة والوطن.

يومها رأيت الأديب الكبير الذي نسي الناس أنه كان نائباً ووزيراً ومجاهداً وقدم نفسه للناس كأديب واعتز بذلك كثيراً فاعتز الأدب به.

شجعتني تلك الأمسية على أن أتقدم من أديبنا الكبير وهو يحضر أمسية في المركز الثقافي العربي في (أبو رمانة) صيف العام الماضي قبل أن يداهمه المرض ويقعده بعد جولات في المشافي فكانت الجائزة الأولى التي أتلقاها خلال عملي الصحفي فقد رد الدكتور عبد السلام العجيلي عليّ أتابعك رياض وأقرأ لك كانت هذه العبارة أكبر جائزة لي في حياتي الصحفية إذ إن العجيلي يقرأ لي.

كم ازداد حزني هذا الصباح عندما تلقيت نبأ رحيله ولأنني لم أتمكن من زيارته في منزله بالرقة أواخر العام الماضي على الرغم من محاولتي فقد كان وضعه الصحي لا يسمح بذلك.

السلام إلا أن خرج عن نصيحة الأطباء وتحدث إلى صباح قباني الذي يحمل له كل ود واحترام

إنهم أدباؤنا الكبار.

رياض طبرة

* * *

جوهرة الأدب

..برحيل العجيلي الشاعر الكاتب الروائي الطبيب.. يكون الأدب العربي المعاصر.. قد طوى صفحة رائعة من روائع الأدب وانفرط سمط كان فيه- العجيلي- رحمه الله مجموعة من الجواهر انتظم عقده .. على مسافة نصف قرن من الزمان..

عرفته ميادين الجهاد في فلسطين مجاهداً في جيش الإنقاذ مع مجموعة من كوكبة المجاهدين السوريين يحمل بين جوانحه قضية فلسطين التي سكنت فؤاده ووجدانه وحملها بقلمه وبيانه كما عرفته الأوساط الأدبية رائداً من رواد الرواية المعاصرة وكاتباً وأديباً، ومحدثاً تصغي إليه المحافل وتتألق بحضوره المنابر.

ألف العديد من الروايات وزخرت بنتاجه المطبوعات العربية على امتداد الوطن العربي الكبير.. ثم هو بعد ذلك الشاعر الجميل والناقد الساخر، والمتحدث الرائع الذي يود من يستمع إليه ألّا يكف عن الحديث .. وماديوانه - " الليالي والنجوم" و"المقامات" إلا خير شاهد على إبداعه الفذ.. ولكنه - رحمه ا لله - يتحاشى أن يصنف في عداد الشعراء وأن يعرف روائياً أكثر منه شاعراً.

والدكتور العجيلي خلّف نتاجاً أدبياً كبيراً فقد زادت مؤلفاته على أكثر من ثلاثين كتاباً - في مجال الرواية، والأدب، والسياسة والاجتماع.

وإذا كنت ممن يتابع كتاباته ويقرأ رواياته على صفحات المجلات

ومعرفة ومودة، ولاغرو فمن عرف هذا الرجل بقامته الأدبية الشامخة وإنسانيته الصادقة الرائعة فإنه لن يزداد به إلا تعلقاً، وبمحبته إلا تكلفاً.

وكيف لي أن أتحدث عن هذه الدوحة السامقة في هذه اللحظات التي يطلب مني أن أقول شيئاً بمناسبة وفاة الفقيد الغالي.

وكل شيء أريد أن أقوله : أأتحدث عن صفاته ونبله وسمو خلقه وشهامته وعزة نفسه وعنفوانه، أم أتحدث عن جهاده وبطولته وحمله لهموم أمته التي ماغابت عنه في يوم من الأيام، وكان كلما تحدث عن قضية فلسطين، أو عن موقعة ميسلون، أجهش بالبكاء، وملأ الدمع عينيه، وأخذ يردد بيتا من الشعر أحسب أنه للشاعر إيليا أبو ماضي:

عجباً لقومي والعدو أمامهم

كيف استطابوا اللهو والألعابا

هذه الصحبة الطويلة للدكتور العجيلي - لم أسمع منه في يوم من الأيام، أو جلسة من جلساته، أو ندوة من ندواته أن تناول إنساناً أي إنسان- بإساءة أو قدح أو ذم، فقد كان عف اللسان صادق المعشر، محترما في عشيرته وبني قومه ومحبوبا أشد الحب في الأوساط الأدبية السورية والعربية فلا يأتي الكلام على ذكره إلا وتشير الأصابع كلها إليه وإلى فضله وإبداعه وريادته.

العزاء كل العزاء لأمته العربية، ولعشاق أدبه الرفيع من العرب وغير العرب، ولسورية الحبيبة التي احتضنته وأحبها حب ذاته ولبلدته - الرقة - الأثيرة إلى قلبه وحسه ووجدانه. ولعائلته عائلة العجيلي تلك الأسرة العريقة الماجدة ولأبنائه الذين علمهم فأحسن تعليمهم: بشر، وحازم وعلاء وأخته الصادقة الصابرة، وأشقائه البررة. ولنا نحن أصدقاءه ومحبيه وعارفيه.. رحمه الله رحمة واسعة وأسكنه منازل الأبرار عنده ولتعذرني روحه الطاهرة إن شاء الله إذا رددت بيت المتنبي الذي

لا قلبت أيدي الفوارس بعده رمحا

ولا حملت جوادا أربع الرياض

خالد محمد الخنين

* * *

دمعة في عين الرشيد

الخالدون لا نمنحهم الخلود بالحديث عنهم، ولكن يمنحوننا الخلود عندما نكتب عنهم، ومن الصعوبة بمكان أن نلم ونتحدث عن مشاعر الحزن التي تلف الزمان والمكان برحيل أعلام الفكر والثقافة العربية في خلال يومين متتاليين، مثل الماغوط والعجيلي، فكلاهما كانا من أعمدة الفكر والإبداع، والالتزام بقضايا الوطن.

فالراحل الدكتور عبد السلام العجيلي، كان سفراً من أسفار القرن العشرين، الذي يطوي ذلك سنوات وتاريخاً وأدباً ومعرفة، وكان كشجرة السنديان الدائمة الخضرة في هذه المحافظة جذورها في السياسة والأحوال العامة ومصالح الناس، وأغصانها في الطب، وثمارها في الأدب، حيث استظل وتفيأ بها كل قارئ ومتتبع للأحداث التاريخية. وقد نثر هموم أمته وآلامها بين ثنايا قصصه التي تفيض بعذوبة الفرات، لتجسد ذاكرة متقدة للمدينة وأحوالها، هذه الذاكرة التي لم تجف، ولم تتعب، ولا يمل من حديثه لأنه يحدثك كشاهد على عصر لملاحم الحياة التي عاشها بكل تفاصيلها، وينقلك إلى ساحة المكان، ويستحضر لك الزمان ليخيل إليك بأنك تسمع أصوات وأحاديث أولئك الذين يتكلم عنهم، ويبثك سحرا في كلماته، ويملأ ساحة المكان بصوته الرخيم والشجي. ويحمل بين ثناياه تعب الأيام والسنين، وألفاظه التي تعبر عن ريفيته وماينبس ببنت شفة إلا وكان حديثه حديث وقار

والمساكين. كل ذلك وما أوكتا به يده في قصصه ورواياته التي انتشرت في أصقاع البلاد والعالم كانتشار النار في الهشيم.

فامتدت مشاعره القومية إلى خارج وطنه سورية ليشارك في جيش الإنقـــاذ في أيام النكبة، هكذا يرحل العظماء والعباقرة والفلاسفة ولكنهم يخلفون ذاكرة كبيرة جيلا بعد جيل، وإننا ننحني بإجلال وإكبار لهؤلاء العظام وسنظل نحمـــل ذلـــك الإرث لننقله للأجيال القادمة، وهذا فرض عين على كل كاتب ومفكـــر يـــلازم قضاياه الوطنية والقومية.

وفجأة توقف لتستعد روحه للرحيل لرحلة أبدية ويبقى جسده تحتضنه رافقـــة المنصور وهارون الرشيد ويبقى ذاكرة في وجيب قلوب محبيه وعشاقه. غادرنا وقد آثر على نفسه إلا أن يكون بين أهله وذويه يوم ولد ويوم كان حياً ويوم رحل عنا ويوم يبعث حياً.

ومن كلماته عندما أجرينا حوارا معه في بداية الألفية الثالثة لصوت الرافقة قال: (أطلب من نفسي أولاً، ومن الآخرين ثانيا أن نكون صادقين فيمـــا نفعلـــه، وأن يتلاءم ما نقوم بعمله مع مانعتقد به سواء كان هذا العمل كلاماً أو نتاجاً فكرياً أو مادياً وأن لا يكون شيئا مخالفا لما نؤمن به).

وإننا مؤمنون بقضاء الله وقدره وتغمد الله الفقيد بواسع رحمته وأسكنه فســـيح جنانه وألهم أهله وذويه ومحبيه الصبر والسلوان.إنا لله وإنا إليه راجعون.

عيد الدرويش

* * *

شيخ الأدباء

وغاب شيخنا أخيراً رحل دون أن يلتفت إلى الخلف بعد أن أدى رسالته كاملة مكملة.

بعضهم يباشر بناء وطنه بالفأس والمعول وبعضهم بلبنة الطوب والاسمنت وبعضهم بالمحراث.

لقد اختار شيخنا طريقاً آخر امتشق قلمه، وأكد به حبه للوطن والتصاقه بالأرض وانتماءه للناس الطيبين وخير ولاء هو الولاء للوطن وخير انتماء هو انتماء للناس.

لقد تحدث العجيلي عنهم بحميمية، أحبهم، وعاش معهم، وألف ضجرهم ونكد عيشهم وألقى على عاتقه تصوير همومهم وزفراتهم.

إلى جنة الخلد يا شيخنا الطيب ولك الذكرى نحفظها في قلوبنا ودفاترنا ومكتسباتنا.

فوزات رزق

* * *

سيبقى فراتاً يطفئ الظمأ

خسائري تتالت، وأحزاني وصلت أعلى الزقّورة بسماعي نبأ رحيل الأديب الكبير الدكتور عبد السلام العجيلي، هذا العظيم بأدبه وبأخلاقه وقيمه غادرنا ليرسخ وجوده فينا، ماذا أقول الآن عن حكايتي معه، عن صداقة عمرها عقدان؟ عن مشوار مليء بالأدب والمحبة والإخلاص.

كيف سأعود إلى محافظة الرقة وأنبش أوراقه وأتفرس بخطه الذي لطالما أحببته وصورته التي تتصدر جداري، كيف أنسى صوته الذي سمعته منذ أيام قليلة وهو يصب في أذني وأنا قربه أزوره في بيته وقد هتف حين رآني: "يا للمفاجأة".

وما حاجتك إليها قال حاجتي إلى استرجاع ذكريات ملهمتها وتلك المشاعر التي عشتها وأنا أكتبها أريد أن أضعها هنا أمامي، لتتالى قراءاتي لها.

الدكتور عبد السلام كان وسيبقى فراتاً يطفئ الظمأ وحضوراً لا يمكن أن يغيب وبقاء دائماً بقاء أدبه الراسخ.

نجاح إبراهيم

* * *

قامة إبداعية شامخة

خسارة أخرى فادحة تلحق بالأدب العربي عموماً، والأدب السوري على وجه الخصوص، بعد رحيل الأديب عبد السلام العجيلي إثر رحيل المبدع محمد الماغوط.

خسرنا برحيل الأديب الكبير عبد السلام العجيلي قامة إبداعية شامخة أغنت المكتبة العربية ورفدت الحركة الثقافية العربية بعدد كبير من الأعمال الإبداعية شكلت نمطاً فنياً مميزاً وأضافت لمسة مغايرة إلى لوحة الإبداع العربي وسوف تبقى هذه اللمسة الفريدة وسيستمر هذا الصوت الفني الخاص الذي أبدعه الأديب الراحل في أعماله الكثيرة والكبيرة التي ستظل جزءاً من ذاكرة الأدب ومدرسة تمتزج فيها الأجيال الجديدة من الكتاب والمبدعين وفضاءً متوهجاً يسافر في أبعاده قراء الأدب والمهتمون بالثقافة.

عصام خليل

* * *

الحكي الشعبي المفعم بحيوية الروح

عبد السلام العجيلي علامة متفردة في تاريخ الرواية والقصة والمقالة وحتى الطرافة،وأعتقد أن العجيلي تعرض كغيره من أبناء جيله بعد منتصف الستينيات لكثير من الحصار والظلم الذي لم يتمكن من إطفاء جذوته مثله في ذلك مثل

يكن متفرداً فقط في الرواية والقصة وإنما تفرد بشيء اكتسبه من بيئته البدوية الزراعية التي تأنس كثيراً بالقص وبصبغة الإدهاش وبما يمكن أن نسميه الحكي الشعبي المفعم بحيوية الروح وأعتقد أن جمع أثاره كلها هو ومن فقدناهم في فترة قريبة، عبد المعين الملوحي ومحمد الماغوط، جمع آثار هؤلاء الكاملة وطباعتها طبعة شعبية من قبل وزارة الثقافة أعتقد أنه سيكون من أجل الأعمال التي يمكن أن تقوم بها الوزارة. رحم الله من فقدناهم جميعاً، تحية للإبداع الإنساني الأصيل العميق الذي يعرف كيف يلتزم بالوطن وقضاياه الكبرى.

عبد الكريم الناعم

* * *

نسيج الواقعية والرومانسية والسحرية المتفرد

ويهوي كوكب آخر من سماء الإبداع في وطني تاركاً ألقه الخالد في الأرواح والعقول، لقد كان العجيلي -رحمه الله-كاتباً متوحداً بكتاباته ينهلها من حياته الحافلة بالأحداث بدءاً من اشتراكه في حرب فلسطين عام ١٩٤٨ إلى حياته في مهنة الطب إلى أسفاره الكثيرة، مما أتاح له رؤية عميقة وواسعة عبر عنها في أدب جمع فيه بين الواقعية والرومانسية والسحرية في نسيج متفرد هو نسيج العجيلي وحده. وأخيراً أيها الراحلون إلى الخلود فما زلنا بحاجة إلى أنواركم في هذا الليل الحالك.

نور الدين الهاشمي

* * *

التقاء بين الأصالة والتجريب

تكمن أهمية العجيلي في عدد من السمات التي اكتسبتها تجربته الأدبية، فمن جهة هو نموذج المبدع الذي يؤسس من مكانه المحلي مشروعا أدبياً عالمياً أو كونياً

التقاء مهمة بين الأصالة والتقاليد الأدبية والحكائية وبين نزعة التجريب والتحديث فلا هو تقليدي اتباعي ولا هو غارق في أوهام الحداثة.

ومن جهة ثالثة كان مثالا لمبدع يماهي بين مشروعه الأدبي ومشروعه الحياتي أي كان سلوكه وأخلاقياته متوافقة مع رؤاه الأدبية ومثاله الجمالي وفي ساعات رحيله المؤلمة من الجدير أن يتمثل كتاب القصة والرواية روح تجربة العجيلي وخلاصتها ليكون رحيله انطلاقاً لاستكمال مشروعة عبر إبداعات تنافسه وقد تتفوق عليه.

محمد علاء الدين عبد المولى

* * *

من أبرز أعلام القصة والرواية في سورية

عبد السلام العجيلي علم من أبرز أعلام القصة والرواية في سورية، بل هو رائد من روادها بعد الاستقلال والحرب الثانية فقد ظهرت مجموعته القصصية الأولى بنت الساحرة عام ١٩٤٨ وظلت مجموعات رواياته متواظبة طوال النصف الثاني من القرن الماضي. ظل العجيلي وفياً لمذهبه في كتابة القصة والرواية وهو مذهب يستجيب لدواعي النفس والشعور والتعبير الصادق الأصيل عن الإنسان بعيداً عن المؤثرات الأجنبية ملتزماً بمضمون جليل يحتويه شكل فني جميل يعبر عن حياة شعبه وواقعه ومعاناته وعلى الرغم من ظروف مرضه - رحمه الله — ما كان لينصرف إلى عزلته، بلّ ظل حتى آخر لحظة من حياته منفتحاً على الثقافة والمثقفين والأدباء وتابعاً لقضايا الأدب والفكر محلياً وقومياً وإنسانياً.

عبد السلام العجيلي ابن الرقة والفرات ظل صافياً رائعاً كمياه فراته وظلّ وفياً لأمته ابتداءً من تطوعه في جيش الإنقاذ عام ١٩٤٨ ثم انتخابه نائباً في المجلس النيابي ثم توليه الوزارة. ظل نائباً ذلك الإنسان الأصيل الصادق مناضلاً ونائباً ووزيراً وطبيباً وأديباً. عبد السلام العجيلي كان لنا في الأدب أديباً يجمع بين الطب

والطبري كما يذكرنا بتشيخوف وبلزاك وغوته وموباسان. عبد السلام العجيلي كان رائداً في التزام لغة روائية تحيي اللغة وتحقق فعاليتها التواصلية مثله في ذلك مثل بوشكين الذي أحيا لغة قومه باستفصاح المحكي واستخدامه بحذر في القصة والرواية ليكون ذلك خصيصة فارقة من خصائص إبداعه جعلته يمتلك التشويق والإمتاع تلقياً وتفاعلاً. كان العجيلي دقيقاً في انتقاء موضوعاته ساعياً إلى اختيار الواقعة ذات الدلالة موظفاً في ذلك الزمان والمكان ليبعث فيها الحياة ويستنهض القارىء ليجعله مشاركاً في إبداعه. بقي العجيلي أصيلاً وسيبقى بعد وفاته أصيلاً وسيبقى أدبه حياً بتحوله إلى رمز.. رمز أدبي ووطني وقومي وإنساني.

د. رضوان قضماني

* * *

هذا التاريخ الكبير

عبد السلام العجيلي ومحمد الماغوط وعبد المعين الملوحي وقبلهم عدوان وونوس و.. كل هذا الفقد الكبير في أمة هي أشد ما تكون حاجتها إليهم في هذه الآونة من الاحتلالات والتهديدات والتشرذم.

العجيلي هذا التاريخ الكبير وتلك القامة الكبيرة التي ترجلت بعد هذا العطاء الزاخر وبعد هذه الرحلة الهامة في أدب سورية المعاصر، الرجل الظاهرة فهو الأديب الطبيب الإنسان ونادراً ما تجتمع في رجل كل هذه الخصال حقاً أولئك رجال يصعب على الزمان الجود بمثلهم. رحم الله العجيلي.

محمود نقشو

* * *

في رحيل المبدعين تمتد جذوة الروح لتعتصر ألماً وأمام عربة الموت يقف الإنسان جزءاً وبين هذا وذاك تشرق شمس دافئة تسطع بنورها على الأرض، والإنسان

فقناديله الإبداعية وأدب رحلاته شواهد على مسيرته المعطاءة، لقد ساهم الدكتور العجيلي -رحمه الله- بقلمه الحر ومبضعه الناعم في تشخيص الكثير من الحالات الإنسانية، ركب أغلب الأمواج وأبحر بعيدا لكنه ظل يتحسس إنسانية الإنسان ويترحم همومه بطريقته الخاصة. الرحيل قبل الغروب سيمفونية تعزف لحن العطاء، والرحيل بعد الغروب قصيدة عشق تفيض بشذا الحب العذري، فشجرة البلوط التي لم ينهكها الزمن ستبقى بعين وفكر المبدعين ترساً يحمي جسد الثقافة، عبد السلام العجيلي عشت ورحلت دون مقدمات وتركت همساتك الدافئة تذرف الدمع على لوحة الحياة .

د. نبيل طعمة

* * *

فقدنا برحيله قامة شامخة

من المحزن حقاً ألا نكون قد استيقظنا من صدمة رحيل الماغوط حتى يغادرنا كبير آخر هو عبد السلام العجيلي.. الذي قدم وعلى مدى ستين عاماً نتاجاً أدبياً غنياً، وظل حتى أيامه الأخيرة قادراً على العطاء .

ينتمي العجيلي إلى الزمن الجميل، إلى ذلك الزمن الذي قدم للثقافة العربية أسماء كبيرة شكلت تجاربها فيما بعد مدرسة للأجيال اللاحقة.. يشبهون العجيلي بأيقونة الرقة.. وأظنه كان أيقونة الفرات، إذ إنه كان صورة حقيقية للبيئة الفراتية في كل ما قدمه من أعمال تقريباً .

ديانا جبور

* * *

العجيلي.. المبدع الحكيم

منذ قراءتي لأول أعماله شكل العجيلي بالنسبة لي مثالاً للأديب الذي يلتزم قضية الإنسان ويعمل جاهداً ليدافع عنها، وظلت أدواته الطبية تعمل مترافقة مع الصنوف المختلفة من الكتابات التي كتبها لتخدم تلك القضية التي شغلتها، لم يسع العجيلي مثل الكثير من الأدباء لهجرة مدينته النائية باتجاه دمشق.. لكنه ظل مقيماً في مدينته، الكثيرون قالوا إنه قدم الكثير من العون لأبناء المدينة، وشد على أيدي الأدباء الشباب، وكان يقرأ نتاجاتهم، ويثني على الكثير من التجارب، ويقدم ملاحظاته على ما يكتبون.. لأنه كان مؤمناً بضرورة التواصل بين الأجيال في خدمة الثقافة .

رحم الله أستاذنا العجيلي.

دلال حاتم

* * *

مختارات

من أعمال

عبد السلام

العجيلي

الرقة في ذاكرة الأجيال

منذ أربعة قرون أو تزيد، وعلى التحقيق في عام ١٥٨٤، طبع الدكتور ليونهارت راوفولف كتابه عن رحلته في بلاد المشرق التي بدأها في عام ١٥٧٤. عندي من هذا الكتاب القديم والنادر الوجود صورة ملزمة يتحدث فيها المؤلف عن مرور سفينته التي كانت تقله في رحلته النهرية في الفرات، مرورها بالرقة ورسوّها على شاطئها، وعن المشاكل التي تعرّض إليها هو ورفاق سفره في ذلك الرسوّ. ولا أكتمكم أن هذه الملزمة قد أعنتني كثيراً في قراءتها وترجمتها إلى العربية. ذلك أنها مكتوبة باللغة التي كانت يتكلمها الألمان منذ أربعمئة سنة. وقد اعتذر العاملون في معهد غوته في دمشق عن عجزهم في فهم محتوياتها، فاضطررت إلى أن أعهد بقراءتها إلى أستاذ جامعي متخصص في مدينة فيرزبورغ ليترجمها إلى اللغة الألمانية المعاصرة. وقد بدأ ذلك الطبيب الألماني الرحالة، أعني الدكتور راوفولف، حديثه عن الرقة بهذا الوصف لها:

"الرقة مدينة تقع ما بين النهرين، ميزوبوتاميا، وعلى حدود الصحراء العربية، عل شاطئ نهر الفرات الكبير، وبين هضبتين. ولذا يصعب على المرء رؤية المدينة قبل أن يصل إليها. في المدينة قصر كبير، ويديرها متصرف وفيها حامية تركية مؤلفة من ألف ومئتي جندي سباشي. وقد أوكل القيصر التركي إلى هؤلاء إدارة شؤون البلدة والسكان وحمايتهم. المدينة مبنية بناء سيئاً وسورها في حال يرثى لها. ذلك أن المدينة الحديثة مبنية على أنقاض القديمة التي دمرت وتلاشت.. ما يزال المرء يشاهد الأروقة والأقواس والجدران المتداعية من المدينة القديمة.. بين أنقاض المدينتين، القديمة والمستحدثة، قصر شامخ قديم تحتله الحامية التركية.. وفي الواقع فإن المدينة القديمة كانت دمرت تدميراً تاماً، مسحت بالأرض وبقيت خالية من

هذه رواية شاهد عيان، ليس من أهل المكان، رسم فيها صورة البلدة التي نعيشها فيها اليوم في فترة كانت حالها فيها وسطاً بين حالتين تعتبر كل منهما قمة لمكانة مدينتنا، بينما تعتبر الحال التي رآها فيها الدكتور راوفولف وهدة بين القمتين.

أولى القمتين اللتين أعنيهما كانت أياماً دعيت بأيام العروس، وذلك في زمن هارون الرشيد حين آثرها على عاصمة بني العباس التقليدية، الطاغية باتساعها وثرائها ونفوذها، بغداد مدينة المنصور. والقمة الثانية حالها حين نهضت هذه المدينة فجأة، والفجأة هنا نسبية إذ تمتد على بضعة عقود من السنين من هذا القرن، أقول حين نهضت فجأة من كبوة، أو من غفوة، أو من سبات، لتصبح ما سميناها اليوم درة الفرات. وهي في الواقع في مطلع عهد نأمل ونعمل ليستمر فتصبح هذه المدينة حقاً درة فراتية بين درر وطننا.

وهنا لا بد لنا، أو لا بد لغيرنا، من التساؤل: أتراها وحدها تلك الوهدة، أو تراهما وحدهما تلكما القمتان، من وهدات وقمم في تاريخ مسيرة هذه البلدة في عشرات القرون التي بلغت علمنا أخبارها خلالها؟

الجواب على هذا التساؤل يردنا إلى هوية المدينة التي نتكلم عنها، وإلى الاسم الذي حملته هذه الهوية في عصور كثيرة مرت عليها وانتهت بالعصر الذي نعيش فيه اليوم.

عن اسم الرقة، نستطيع القول إنه اسم حديث. حديث نسبياً كذلك، عندما نقارنه بعمر البنى التي عمرت هذا الموقع في العصور الطويلة الفائتة. عمر هذا الاسم قد لا يتجاوز ألفاً وخمسمئة عام. صحيح أن نزوح القبائل من قلب الجزيرة العربية إلى وادي الفرات يرجع إلى آلاف السنين، ولكنهما كانت تقدم إليه وترتد، في مد وجزر يتعاقبان بتعاقب فصول القر والحر وتعاقب سنين الخصب والجدب. أما

حولها في أعلى الجزيرة دياربكر، باسم قبائل بكر العربية، والموصل وما حولها ديار ربيعة باسم تلك القبائل. أما أدنى الجزيرة المتاخم لمجرى الفرات في جنوبها فأصبح ديار مضر وحاضرتها مدينة كانت أسماؤها تعددت في القديم.

كانت ليونتوبولس، وقبلها قسطنطينو بولس، وقبلها كالينكوم، وقبلها نيسفوروم. وقبل كل هذه التسميات كان اسمها تتّول. ولكنها حين استقرت بها قبائل العرب، بعد أن كانت تنزلها وترحل عنها، سلخت عنها كل تلك الأسماء الأعجمية المتتابعة لتحمل اسمها العربي الثابت: الرقة..

يستبعد عبد القادر عياش، في دراسته عن بلدتنا، تفسير كلمة الرقة بأنها بطيحة الماء المتبقية على الشاطئ بعد انحسار فيضان الفرات عنه كما ذكر ياقوت الحموي في معجم البلدان، ويردّ التسمية إلى كلمة أعجمية وردت في شاهنامة الفردوسي. ونحن بالعكس نجد أن تفسير ياقوت هو الصحيح. يصدّق ذلك ما نعرفه من أن رقات كثيرة تنتشر في بلاد العرب، ينطبق وضعها الجغرافي على وضع بلدتنا بالنسبة لتجمعات المياه بقربها، سواء كان التجمع نهراً أو بحراً. هناك رقة في محافظة أسيوط على نهر النيل، ورقة في العراق على شاطئ دجلة، وثالثة في الكويت على شاطئ خليج العرب كسبت اسمها من كون موقعها على بطائح ماء تتبقى حين يحلّ الجزر بعد المد على شاطئ الخليج. هذا عدا رقاتنا نحن من بيضاء وحمراء وسوداء وسمراء. ليس منطقياً إذن أن نرد كل رقة إلى رقة إلى ذلك الاسم الأعجمي الذي لم يرد في كتاب علمي بل في ديوان شعر. إنه الاسم العربي الذي تحمله بلدتنا، والذي أعطاها هويتها العربية بعد طول تأرجح بين الهويات الأعجمية المختلفة. كانت أسماء هذه البلدة تتبدل في كل قرنين أو ثلاثة بتبدل الغزاة والمحتلين والمتملكين، أما اسم الرقة فقد ثبت طوال خمسة عشر قرناً ماضية، متمسكاً بصيغته العربية وبهويته العربية، على الرغم من كل ما تعرضت له بلادنا في هذه القرون

ثبات اسم الرقة بصيغته وهويته العربيتين هو ما ساقني إلى أن أبدأ في حديثي بالقمتين في تاريخ الرقة والوهدة بينهما، تاريخ البلدة العربية التي نعيش فيها اليوم.

عن القمة الأولى، قمة أيام العروس، حفظت ذاكرة جيلنا والأجيال التي سبقته صنفين من الذكريات: ذكريات أسطورية لعب في نسجها الخيال الموهم والمشوّق، وذكريات تاريخية تروي الوقائع موثقة ومدعومة بالأسانيد. الذكريات الأسطورية تكون في العادة، وهذه طبيعة إنسانية عند كل الشعوب وفي كل العصور، أكثر رسوخاً في الأذهان من الحقائق التاريخية. وتعود الذكريات الأسطورية المتعلقة بالرقة إلى فترة قصيرة، هي الفترة التي يخيم عليها ظل هارون الرشيد والتي يستمد الخيال من حقائقها التاريخية قصصه الغريبة والمحببة. كان هارون الرشيد، على ما يروي المؤرخون، مولعاً بالتقصي عن أحوال رعيته، سريع التأثر بما يسمعه، مبسوط الكف في عطائه، أوحى هذا إلى القصاصين برسم صورته كخلفية يتنكر بهيئة صغار التجار ويصطحب وزيره جعفر البرمكي في زيارة عامة الناس في أحيائهم المبعدة، في بغداد والرقة، ليتعرف على أحوالهم وليستمع إلى أخباره، فيعين المحتاج ويثيب المحسن ويعاقب المسيء. وهكذا ملأت حكايات هارون الرشيد، المختلفة والمحببة في آن واحد، صفحات ألف ليلة وليلة وتناقلتها ذاكرة أجيال القراء والمستمعين في كل زمان ومكان. وهكذا كذلك خلقت الذكريات الأسطورية التي قد تكون أول ما يتبادر إلى الذهن عند كثيرين كلما ذكرت الرقة ووصفت بأنها بلد الرشيد، أو مصيف الرشيد، التي كانت مربعاً لملذاته ومقاصف وقصوراً لمحظياته.

والذكريات الأسطورية، كما نعرف، غالباً ما تكون صوراً مزينة ومحسنة ومبالغاً فيها من ذكريات التاريخ الواقعية. إلا أن هذا لا ينطبق على ذكريات الأجيال عن مدينتنا، وعن أحداثها من سعيدة وبائسة، وعن رجالاتها من طيبين وأشرار، في

العروس التي جعل فيها هارون الرشيد من مدينتنا مقره الدائم. أما ذكريات الواقع التاريخي لهذه المدينة، وأقصد بها المدينة العربية التي أحصر كلامي بها الآن، فإنها تمتد إلى زمن لا يقاس به زمن أيام العروس في الطول، كما إنها تحفظ من جلائل الأعمال ومن غنى الأحداث، في النعماء والبأساء، ما تتجاوز أهميته وقيمته أحاديث المسامرات وطرائف الحكايات.

لنبدأ في الكلام، كلاماً مبنياً على ذكريات التاريخ الواقعية، عن هذه المدينة العربية من أيام خلافة أمير المؤمنين عمر بن الخطاب رضي الله عنه. فتحها سهيل بن عدي تحت امرة عياض بن غنم الفهري، وقال في ذلك الفتح أبياته التي نحفظها كلنا، ومنها:

وصادمنا الفرات غداة سرنا إلى أهل الجزيرة بالعوالي
أخذنا الرقة البيضاء لما رأينا الشهر لوح بالهلال

الرقة البيضاء.. هكذا صار اسمها منذ أصبحت منتجعاً ثم مستقراً للقبائل العربية المضرية ونسي اسمها الروماني كالينيكوم. يذكر المؤرخون أن هذا الاسم الروماني القديم استعاره لها الإمبراطور جستنيان في منتصف القرن السادس الميلادي بعد أن كان قد بدل إلى قسطنطينوس بولس نسبة إلى الإمبراطور قسطنطين إلى ليونتوبولس في عهد ليون الثاني. إلا أن اسم كالينيكوم نفسه امحى أمام الاسم العربي حين استقر في هذا الجزء من الجزيرة عرب الغساسنة ثم قبائل تغلب المنتصرة.وهكذا فإن سهيل بن عدي لم يخترع هذا الاسم، الرقة البيضاء،للمدينة التي افتتحها صلحاً والتي سكنها في أول العهد الراشدي وابصة بن معبد الأسدي، صاحب رسول الله،وتبعه في سكناها من التابعين عدد كبير ترجم لهم القشيري في كتابه المشهور (تاريخ الرقة ومن نزلها من أصحاب رسول الله والتابعين).

أقصد بذلك ذكريات حرب صفين وانشقاق كلمة المسلمين وتحاربهم على شاطئ نهر الفرات، ومجافاة أهل هذه المدينة لعلي بن أبي طالب كرم الله وجهه، واضطر الأشتر النخعي إلى تهديدهم حتى أقاموا على الفرات جسراً من السفن كانوا قد أبوه على سيدنا علي نفسه. ومع ذلك فإن تلك الأحداث الخطيرة والمحزنة زرعت في أرض الرقة عناصر بركة تعتز بها مدينتنا اليوم، ألا وهي مقبرة الشهداء التي ضمت أجساد قتلى حرب صفين، وفي مقدمتهم عمار بن ياسر وأويس القرني رضي الله منهما.

انقضت تلك المحنة وتضاءلت آثارها من النفوس أو كادت، على ما خلقته في جسم الوحدة الإسلامية من عقابيل خطيرة. وخيم الأمن والسلم على هذه البقعة في وادي الفرات فراحت تنسج لسكانها واقعاً جميلاً تعم فيه الخيرات وتنسج للأجيال القادمة ذكريات القوة والعزة، وذكريات الثراء الفكري والفني، في العصر الأموي أولاً ثم في العصر العباسي تالياً، ولا سيما في ذروة هذا العصر الأخير، تلك التي سميناها أيام العروس.

ذكريات القوة والعزة للرقة في العصر الأموي تتمثل أحسن ما تتمثل في شخص فتى بني أمية، فارسهم والقائد العسكري الذي دوخ بيزنطه وسار بجيوشه حتى أوصلها إلى أسوار القسطنطينية في الغرب وإلى أرمينية، التي وليها في زمن أخيه يزيد، في الشمال. إنه مسلمة بن عبد الملك الذي لم يحل بينه وبين أن يتولى الخلافة إلا كون أمه أم ولد، في زمن كان التمسك بنقاء دم الخلفاء يفرض على بني أمية أن تكون والدة الخليفة عربية خالصة مثل ما يكون أبوه عربياً قحاً. حصن مسلمة الذي بناه هذا القائد العظيم على مقربة من مجرى البليخ، بين الرقة وحران، ظل عامراً بأهله حتى أيام الرشيد، يثير في خواطر الأجيال المتعاقبة ذكريات السيرة المجيدة لبانيه. ومثل ذلك كانت الذكريات عن هشام بن عبد الملك وعهد خلافته

وهما النهران اللذان أجراهما من الفرات وأحيا بهما الأرض الموات. وبذلك السباق الذي اجتمع فيه من جياده وجياد غيره أربعة آلاف رأس من الخيول الأصيلة، مما لم ير مثلها لأحد قبله أو بعده.

هذه بعض ذكريات القوة والعزة للرقة في العهد الأموي. أما الذكريات الثراء الفكري والفني فيها في ذلك العهد فهي متمثلة في مدرسة السلف الصالح الذي استقر في هذه المدينة والذي بدأ بوابصة وأبنائه وتبعهم ميمون بن مهران وتلامذته، ممن نقلوا إلى الأجيال بعدهم أحاديث الرسول صلى الله عليه وسلم، ورووا لهاما حفظوه من سيرته، نقل ثقة ورواية تحقيق. وتتمثل كذلك بنخبة من الشعراء ورواتهم، ممن كانوا يترلون مع الخلفاء والأمراء في الرقة ويرحلون عنها معهم. جرير والأخطل وعبيد الله بن قيس الرقيات في مقدمة تلك النخبة. وابن قيس الرقيات هو الذي يقول في مدح عبد الله بن جعفر بن أبي طالب، أحد أجواد العرب في كل زمان:

أتيناك نثني بالذي أنت عليه

عليك كما أثني على الروض جارها

تغذ بي الشهباء نحو ابن جعفر

ســـواء عليهـــا ليلهـــا ونهارهـــا

تزور فتى قد يعلم الله أنه

تجود لـــه كف بعيـــد غرارهـــا

ذكرتك إذ فاض الفرات بأرضنا

وفـــاض بأعلى الرقتين بحارهـــا

وعندي مما خول الله هجمة

عطاؤك منها شولهـــا وعشارهـــا

وعلى الرغم مما اشتهر به أهل الرقة في ذلك الزمن من أنهم عثمانيو الهوى، بمعنى أن ميلهم كان إلى عثمان بن عفان وإلى الأمويين أحفاد أمية بن عبد شمس، في القطب المناوئ للهاشميين من طالبين وعباسيين، فإن قيام الدولة العباسية لم يسلب الرقة مكانتها ولا أضعف اهتمام أقطاب الدولة الجديدة بها. بل إن هذه العثمانية في الهوى تسببت في زيادة عمران الرقة حين عهد المنصور إلى ابنه المهدي ببناء الرافقة، مدينة عصرية بالنسبة إلى ذلك الزمن، على بعد ثلاثمئة ذراع من الرقة نفسها، تكون خالصة لشيعة الهاشميين وبعيدة عمّن ما يزالون على تعلقهم ببني أمية، ومن الرقة والرافقة، وقد أصبحتا بتتالي الأيام بلدة واحدة، تكونت بؤرة أمجاد هذه البقعة، جعل منها هارون الرشيد مقره وقلب دولته في الأعوام الثلاثة عشرة الأخيرة من خلافته، فتركزت فيها القوة العسكرية كما تركز فيها العلم والأدب والطرب، تجاوزت أيامها في خلافة هارون الرشيد والعهود التالية لها أيامها السالفة، على ازدهارها ، عندما كانت مقراً مختاراً لهشام بن عبد الملك وكانت منطلقاً لغزوات مسلمة بن عبد الملك.

هارون الرشيد الذي نسجت الأساطير حول أيامه في بغداد والرقة كانت سيرته التاريخية أكثر ثراءً وأسمى معاني مما ورد في تلك الأساطير. كان يحج سنة ويغزو سنة. زبيدة، زوجته، ساقت مياه عين زبيدة إلى مكة فسقت الحجيج وما تزال. وهو هدم أسواق هرقلة، أمنع حصون البيزنطين، وبنى لمحظيته ابنة بطريقها هرقلة أخرى ما تزال خرائبها جاثمة على بعد بضعة كيلومترات من أبنية مدينتنا الحالية. الرقة، في عهده وفي عهود خلفائه، كانت بين الفرات والنيل.. نيل الفرات الذي كانت فروع منه تخترق المدينة فتسقي حدائقها وتروي سكانها. وما حول المدينة كانت الجزيرة مزارع وقرى عامرة وغابات وجنائن تتناثر فيها الأديرة التي خلّد

ذكريات أسمائهم وحكايات عشقهم في ظلالها. على باب دير زكّي القريب من الرقة قتل العشق سعداً الوراق صاحب البيت المشهور:

رقيب واحد تنغيص عيش فكيف بمن له مائتا رقيب

ذلك أن الفتى الذي تيّم سعداً الوراق بجماله في الرهّا، في شمال جزيرتنا، هرب به أهله من ملازمة سعد له إلى دير زكّي الذي كان رهبانه، وعددهم مائتان، يحولون بينه وبين أن يفوز بنظرة من محبوبه يشفي بها غليل اشتياقه إليه. فقال سعد في ذلك:

ألا يا حمامة دير زكي وبالإنجيل عندك والصليب
قفي وتحملي مني سلاماً إلى قمر على غصن رطيب
عليه مسوحه وأضاء فيها فكان البدر في حال المغيب
حماه جماعة الرهبان عني فقلبي ما يقر من الوجيب
وقالوا رابنا إلمام سعد ولا والله ما أنا بالمريب
وقولي سعدك المسكين يشكو لهيب جوى أحر من اللهيب
فصله بنظرة لك من بعيد إذا ما كنت تمنع من قريب
وإن أنا مت فاكتب فوق قبري: محب مات من هجر الحبيب
رقيب واحد تنغيص عيش فكيف بمن له مائتا رقيب

لم يكن هذا العشق الملهم مريباً إذن.. كان هوى عفيفاً! وفي ذات يوم وجد سعد ميتاً إلى جانب الدير. رحمه الله. فلعله ممن ينطبق عليه منطوق الحديث المصنوع الذي يردده الصوفيون: من عشق وعف ومات، مات شهيداً!

ظل زخم موجة الازدهار العمراني والفكري والأدبي في الرقة محتفظاً بقوته زمناً

سنان. عاش البتاني وقدّم للبشرية أعماله في الفلك والرياضيات بعد حوالي مئة عام من وفاة الرشيد، في مرصده غير المبعد عن مباني الرقتين. حساباته كان أساساً لحسابات كوبرنيك التي أثبتت بها أن الشمس هي مركز مجرتنا وليس الأرض. وإذا كانت كتبت الأخبار والتاريخ الأدبي لم تحفظ لنا الكثير عن سيرة البتاني كما حفظت عن سير الكتّاب والشعراء والملوك والأمراء، فإن اسم هذا العالم العبقري مكتوب بحروف ذهبية في مجلدات تاريخ العلوم، ومسجل على خريطة سطح القمر على سهل الباتانيوس، الواقع بين بحر السكون وبحر العواصف على تلك الخريطة..

تقول الكلمة القديمة: ما طار طير وارتفع، إلا كما طار وقع! وكما تنطبق هذه الكلمة على الطير، وعلى بني البشر، تنطبق على الدساكر والمدن والدول. بدأ وقوع الرقة أو تدحرجها، من قمتها الحضارية مع تهافت الدولة العباسية بانحسار هيمنة الجنس العربي عليها وغلبة الأعاجم الذين استخدمتهم مرتزقة فأصبحوا سادتها. آثر الرقة على بغداد بعض الخلفاء المتأخرين، مثل المكتفي والمتقي، ولكنهم كانوا من الهزال بحيث لا تصح مقارنتهم بالرشيد أو المأمون. حتى سيف الدولة، الفارس العربي الذي طالما تردد عليها وأحبها هو وابن عمه أبو فراس، لم ينس اشتهارها بهواها العثماني، أعني بميل سكانها الأوائل إلى بني أمية، فأمر ذات يوم باقتلاع الأبواب الحديدية لدورها، وكان الأمثال تضرب بجمال تلك الأبواب ليرسلها إلى القرمطي الذي أعوزه الحديد في صنع نصال السيوف وأسنّة الرماح. وجاءت الضربة القاضية في غارات المغول عليها. بدأت تلك الغارات بتدمير هولاكو لها في منتصف القرن الثالث عشر الميلادي، وانتهت بإجهاز تيمور لنك عليها بعد نحو قرن ونصف من الزمن. وأرخ المؤرخون موت المدينة بكلمة (خراب)، وهي بحساب الجمّل تساوي ٨٨٣. ففي العام الهجري ثمانمئة وثلاثة وثمانين، الموافق للسنة الميلادية ١٤٠٠، بلغت الرقة حضيض الوهدة التي انحدرت

الدكتور ليونهارت راوفولف ويصفها بما أوردته في مطلع حديثي إليكم، ويضيف قائلاً:

"عندما رست سفينتنا في ميناء الرقة شاهدنا رجل المكوس ممتطياً حصاناً أصيلاً وجاء يطلب من الركاب أن يسلموه أقواسهم ونبالهم والأمتعة التي في حوزتهم. لم يقبل الركاب ولا ربان السفينة الطلب فتوجه الرجل المكوس إلينا أنا ورفيقي وقال لنا بلهجة حادة إننا أجانب محرم علينا القدوم إلى هذه المنطقة وهددنا بإرسالنا مخفورين إلى القسطنطينية. أبرزنا له جوازات سفرنا الممنوحة إلينا من والي حلب وقاضيها الكبير، فتركنا وتوجه إلى من معنا من السفينة مطالباً إياهم بمكوس باهظة فرفضوا طلبه، مما أدى إلى منعنا من مغادرة الميناء، كما جرد السفينة من مقودها ومن مجاذيفها..

.. وبينما كنا فوق النهر على متن سفينتنا محجوزين وبغاية الإعياء، في انتظار الفرج، وإذا بملك العرب، في يوم ٢١سبتمبر، قد بدأ رحيله إلى مناطق الجنوب بحثاً عن المراعي لدوابه من خيول وجمال وحمير. كان قادماً من مناطق أخرى. فهؤلاء العرب ليس لديهم مدن ولا قرى ولا بيوت يسكنونها كما هي الحال عندنا في أوروبا. وخلال هذا الرحيل أقفل الأتراك أبواب أسوار مدينة الرقة لمدة أربعة أيام حتى انتهاء رحيل العرب الذين كانوا يمتطون خيولهم الأصيلة ويحملون رماحهم وأقواسهم ونبالهم وبعضهم يركب الجمال.. وأنا شخصياً شاهدت بأم عيني عدة مرات أكثر من أربعة ألاف جمل.. أما النساء فكن يمتطين الحمير، وبعضهن يركبن الجمال مع أبنائهن الصغار كل ثلاث و أربع في هودج.. "

هذا بعض ما نقله لنا الدكتور راوفولف من ذكرياته في كتابه عن الرقة، في الفترة التي وصفتها كوهدة بين قمتين. لم يكن ذلك الطبيب الرحالة وحده الذي اجتاز وادي الفرات وعرف الرقة في تلك الفترة. قبله اخترق هذه المنطقة السلطان

أويس القرني فبنى عليه قبة أو أنه جدد قبة كانت عليه مبنية، وترك شاهداً على الزيارة لوحة سجل عليها اسمه وتاريخها. والوقفة الثانية كانت في عودته من معاركه منتصراً فيها، في هذه المرة نصب خيام معسكره على الفرات، في منازل عشيرة في نواحي السبخة الحالية كانت ترعى قطيعاً من الجواميس. ويروي الرواة أن رجلاً من تلك العشيرة اسمه ذيب كان يملك جاموسة سماها نملة، وأنه كان يأتي كل صباح راكباً جاموسته، وهو يصيح بها، مستحثاً إياه على المشي:نملة.. نملة! إلى أمام صيوان السلطان، وهناك يأخذ بحلبها ويتقدم بحليبها إلى السلطان في مجلسه الصباحي. ويروون كذلك أن سليمان القانوني عند عودته إلى عاصمة ملكه جعل من مروره بمخيم تلك العشيرة ومن حليب تلك الجاموسة أحجية يلقيها على رجال معيته قائلاً لهم: رأيت نملة يحلبها ذيب، وشربت منها رائباً وحليب! حلّوا هذا اللغز...

ويضيف الرواة إلى ما ذكرناه قائلين إن رضا السلطان عن عشيرة الجماسة تلك تمثل بفرمان كتبه لها يعفي أفرادها من الضرائب التي تطرح على العشائر المماثلة، وإن شيوخ هذه العشيرة احتفظوا بالفرمان إلى أيام السلطان عبد الحميد، ما قبل الحرب العالمية الأولى، فكانوا يبرزونه كلما جاء الجباة يطالبونهم بالضرائب فيعفون منها..

وهكذا نرى أن فترة الوهدة بين قمتين، على بؤسها، تركت أثرها في وقائع وأحداث نقلها الرواة عبر الأجيال ليسجلها ذكريات بحبر على ورق.

وطال زمن تلك الوهدة فامتدت على قرون عديدة. ستة قرون بين وصول جحافل المغول بقيادة هولاكو إلى الرقة سنة١٢٥٩، حاملة الرعب والدمار، وبين بناء مخفر جديد فيها في الستينيات من القرن التاسع عشر. كانت الجزيرة الفراتية حول الرقة في تلك الفترة سهوباً مقفرة تجول فيها قبائل البداوة وتتحارب فيما

التصحر والدمار والتخلف لم تستطع فيها جحافل المجتاحين والمحتلين، مغولاً وصليبيين وأتراكاً أن تنزع من هذه الجزيرة هويتها العربية ولا أن تغير الاسم العربي لحضارتها، كما كان يحدث في الفترات السالفة قبل القرن السادس الميلادي.

كان لابد لفترة الهمود التي طالت تلك القرون الستة من أن تنتهي.لن أعود إلى التمثل بالتعبير القديم: ما طار طير وارتفع.. الخ، بل أتمثل هنا بكلمة طالما ترددت على ألسنة أهلنا القدامى هي قولهم: واد سالت فيه المياه في يوم مضى، لا بد أن تعود فتسيل فيه في يوم مقبل! وصدقت الرقة هذا القول. مياه الحضارة والعمران والنشاط الفكري التي نضبت في هذه المدينة خلال القرون الستة الماضية بدأت ترطب تربة الوديان التي سالت فيها قديماً ففي الربع الأخير من القرن الفائت أخذت أسر قادمة من أنحاء بلاد الشام والعراق المختلفة تتجمع حول مخفر أقامته الحكومة العثمانية في ظل خرائب المدينة القديمة، في محاولة منها لحماية الطرق الواصلة بين المدن الكبيرة في هذا الجانب من إمبراطوريتها. بنت هذه الأسر لنفسها في ظلال الخرائب أكواخ، ثم دوراً بدائية، ثم منازل محسنة في الزاوية الجنوبية الغربية من السور القديم الذي كانت أبراجه ما تزال مرتفعة فوق سطح الأرض. وبني الجامع الحميدي وغرف المدرسة الملحقة به. وحين جاءت الحرب العالمية الأولى كانت الرقة قد غدت قرية كبيرة، بل بلدة صغيرة..

انتهت الحرب العالمية الأولى فأعقبتها في كل ناحية من نواحي بلادنا قضايا ومشاكل وأحداث امتلأت بها ذاكرة الأجيال التي تلت جيلها. هذه القرية الكبيرة، أو المدينة الصغيرة، التي اسمها الرقة التي كان لها نصيباً مما أعقب تلك الحرب من كل ذلك. فقدت غدت، والبلاد ما تزال تعيش عقابيل الحرب، مقراً لحدث فريد ليس له مثيلاً حدث مشهور جرى في مصر في زمن مقارب وكتبت عنه هناك دراسات وألفت فيه كتب، وهو الحدث الذي سمي إمبراطورية فتى. أما عندنا فإن

وبينت فيه كيف أن آباءنا، على ضعف إلمامهم بالعلوم السياسية وقلة معرفتهم بكيفية بناء الدول، استطاعوا في ذات يوم أن ينشئوا حكومة مستقلة سامية الأهداف جيدة التنظيم، وإن لم تسمح لها إمكانياتها المحدودة، ولا سياسات الدول الكبرى المنتصرة، بأن تعمر أكثر من عام ونصف العام..

لن أطيل عليكم وأعيد على أسماعكم تفصيلاً لتاريخ تلك الدولة المجهولة. أعود فأقول إن هذه القرية الكبيرة أو البلدة الصغيرة، التي عادت إلى التكون فوق أنقاض ماضيها الزاهر، كانت في الواقع نقطة شبه ضائعة في بادية مترامية الأبعاد. في هذه البادية المتسعة ينتقل البدو على ظهور جمالهم على هواهم، وتسكن العشائر نصف الحضرية في قرى متناثرة كثيراً ما تكون غير ثابتة، عقلية البادية وأعرافها وتقاليدها هي السائدة فيها، كما أنها فرضت هذه العناصر على البلدة الصغيرة التي هي مركزها. بهذا أصبحت العصبية العشائرية الأساس الراسخ لسكان هذه البلدة في حياتهم الاجتماعية: في طراز السكن وفي التزاوج، وفي التحالف، وفي الثأر والدية، وفي التمسك أو الإعجاب بقيم البادية الأخلاقية من شجاعة وكرم وعفة جنسية. وبعض أبناء هذه البلدة كانوا، حتى زمن قريب، يلتحقون بصورة دائمة أو في فترات متقطعة ببعض القبائل البدوية، فيشاركون أفرادها في طراز حياتهم، بل إنهم يرافقونهم في حروبهم ويغزون معهم في غزواتهم.

ذلك أن ألواناً من السلوك القبلي مما كانت تمارسه بادية الجزيرة الفراتية في قرون الخراب والتصحر ظلت حية فيها في أول زمن التحضر الجديد. ذكرت الغزوات فيما سبق. وأعني بها الهجمات التي تشنها عشيرة على عشيرة ثانية بدافع حب الهيمنة أو لدواعي الثأر أو حتى طمعاً بخيرات العشيرة الأخرى. الغزو ظل لوناً سلوكياً لقبائل منطقتنا امتدت ممارسته حتى منتصف العشرينيات من هذا القرن المؤذن بالرحيل. وما أزال، شخصياً، أحمل من ذكريات الصبا الباكر ذكرى مرور

من عشيرة عترة في الصباح المقبل. وأذكر أن عقيد غزاة شمر كان نزيلاً في مضافة أسرتنا. رأيته فيها يشرب القهوة ويتناول طعام العشاء قبل أن ينصرف إلى النـــوم، محاطاً ببعض رجاله الذين أحسبهم ظلوا أيقاظاً يحرسونه حتى الفجر، عندما انطلقوا جميعاً، مدججين بأسلحتهم، إلى ساحة المعركة.

حدث هذا في منصف العشرينيات. ومر عقدان من الزمن، عشرون سنة أو تزيد قليلاً، وإذا بي في ذات يوم أجد عقيد الغزاة ذاك، زميلاً لي على مقاعـــد مجلـــس النواب السوري في دمشق، في الأعوام١٩٤٧، ١٩٤٨،١٩٤٩...

أصبح الغزاة البداة إذن في وادينا، في هذه الفترة من الـــزمن، أعضـــاء برلمـــان ومشرعين! هذا صحيح. ذلك أنه في تلك الأعوام العشرين، أو التي تزيد قلـــيلاً، كسرت بلادنا قيود الاحتلال الفرنسي الذي عرقل مسيرتها نحو التقدم والتحضير، في أيام نضالية ملأتها بالانتفاضات والثورات. آخر تلك الأيام كانت أحداث أيار وحزيران عام ١٩٤٥ التي نالت الرقة فيها نصيبها من المآسي ومن المفـــاخر. وإذا كانت بلادنا السورية، والجزيرة الفراتية جزء منها، قد سارت في دروب التقـــدم والتحضر بخطا مترددة وبطيئة في ظل الاحتلال الفرنسي، وظل الاحتلال التركـــي العثماني قبله، فإنها حين تمتعت باستقلالها وأصبح أمرها بيدها راحت تعدو وتقفز في تلك الدروب، حتى وصلت إلى ما وصلت إليه في الأيام التي تحياهـــا أجيالنـــا الحاضرة.

اشهد يا طبيب

مضافة الأسرة كانت غاصة بالحضور في تلك الأمسية، وهي آخر أمسيات المأتم التي جرى التقليد بأن تختم بقراءة المولد وإنشاد المدائح النبوية. في الساحة الصيفية المكشوفة كان الجلوس يزحم بعضهم بعضاً بالأكتاف. وفي الصدر كان المشايخ، ومن بينهم الشقيقان السيد محمود والسيد محمد، يجلسون يواجههم المريدون. وأمام السيدين كانت حزمة من الأسلحة: أسياخ حديدية طوية مدببة، وخناجر، وبما كان هناك سيف أو سيفان.

حين لمح بعض الحاضرين حزمة الأسلحة يحملها أحد مريدي السيد محمد رجوه أن لا يحدث في هذه الليلة ما يخيف الناس، غير أن السيد قال لا بد أن يتم ذلك.. في هذا المكان ذبح أبونا في الماضي رجلاً. وعلينا أن نقدم برهاننا لمن لا يصدقّون. وهكذا أدرك الجميع إن "الضرب" سيجرى في هذه الليلة. وقد جرى ذلك حقاً في آخر السهرة. كنت أجلس في زاويتي المعتادة، الزاوية الشرقية الجنوبية من الساحة المربعة، أرى المشايخ في مواجهتي وهم يقرعون ويرفعون عقائرهم بالأناشيد الدينية التي كانت أنغامها وكلماتها توغل في الحماسة شيئاً وراء شيء. أما المريدون فما كنت أرى إلا ظهورهم، أو أرى رؤوسهم المتقاربة في تزاحمها، وهم يتمايلون أثناء ترديدهم لازمة الأناشيد. وكلما ازدادت حماسة تلك الأناشيد احتد تمايل المريدين، وارتفعت بين أصوات المنشدين صيحات بلفظ الجلالة: (الله!). يطلقها أول من يستبد بهم الحماس ويأخذهم الحال، وقد تملك بدنهم الاختلاج واستولى على أطرافهم الارتجاج وفجأة علت همهمة الناس حولي وتطاولت الأعناق أمامي ووراءي، إذ قام أحد الجالسين أمام السيدين محمود ومحمد فتناول حزمة الأسلحة وأخذ يوزعها على المريدين حوله.

توترت أعصاب الحاضرين، وداخلت نفوسهم الرهبة، بل إن بعضاً منهم ترك المضافة جزعاً. وبينما كانت أيدي السيد محمد ورفيقه على الدف تلاحق القرع على دفيهما وحماسة المنشدين تبلغ أشدها ارتفعت من حناجر كثيرة شهقات الدهشة وسمعت الأصوات وتتعالى حولي قائلة: ضربوا أنفسهم.. انغرس الشيش في بطنه.. انظروا إليه خرج من خاصرته.. انظروا إلى الآخر..

لم أكن أرى ما يجري بدقة، لأني وإن كنت مددت عنقي لأحسن التطلع لم أغير جلستي أو أقوم منها واقفاً على قدمي كما أن الجمع المحتشد أمامي كان يحول بيني وبين الرؤية الواضحة. مع أني كنت أرى حركة أيدي المريدين وهي تدفع بالأسلحة إلى بطونهم، كما كان الناس من حولي يرون ما يحدث بتفصيل ودقة. وفجأة انفرج الجمع الكثيف أمامي مخلياً الطريق للمريدين الذين ضربوا أنفسهم كي يجولوا بين الحضور والأشياش مغروسة في أجسادهم. كانوا ثلاثة رجال وتوزعوا في جنبات الساحة، وتقدم واحد منهم متجهاً في ناحيتي حتى إذا أصبح أمامي صاح بي السيد محمد من مكانه البعيد: انظر يا طبيب.. أشهد يا طبيب؟ كان علي أن اشهد. فحلقة هذا المساء لم تعقد إلا ليبرهن السيد محمد للمكذبين أن (الضرب) صحيح، وأن لله رجالاً إذا قالوا فعلوا. كان الرجل الذي تقدّم إلي متوسط العمر، هزيل البنية، شاحب الوجه. وكان يحمل ثوبه بيديه رافعاً إياه إلى أعلى الصدر، وقد تعرى صدره وبطنه حتى مشد السروال. في أعلى البطن إلى اليمين، تحت الأضلاع، أعني في الناحية الكبدية قريباً مما يسميه الأطباء النقطة المرارية كان الشيش الذي يبلغ قطر مقطعه نحوا من سنتمتر واحد مغروساً بصورة أفقية تقريباً، عمودياً على سطح البطن. كان مغروساً في البطن ونافذاً من الظهر. من أمام كان نصل الشيش بطول ما يقارب المتر، أما من وراء فقد كان بارزاً من الناحية الكلوية بطول أكثر من عشرة سنتمترات. لم أكتف بالرؤية بعيني. بل

أتم المريدون الثلاثة جولتهم وعادوا إلى شيخهم. ومن مجلسي رأيت الأسياخ الحديدية تنزع من أجساد أولئك الثلاثة، ورأيت زملاءهم يمسحون وجوههم ويقرأون على رؤوسهم. وسمعت من يقول أن المريد الذي كان أمامي قد تقيأ دماً بعد ما نزع السيخ من بطنه، فهببت من مكاني غير ناسي أني طبيب عليه واجب الإسعاف. إلا أن السيد محمد هتف من مكانه قائلاً: ليس هذا شيئاً.. كان فلان مريضاً قبل أن يضرب نفسه.

وانتهى الحفل. وحين مرّ المريدون أمامي منصرفين استوقفت ذلك الرجل وطلبت منه أن يرف ثوبه لأرى مكان الضربة. كان وجهه على شحوبه، أما مكان الطعنة فقد رايته تحت الأضلاع كخدش مدور ليس عليه من أثر الدم غير قليل. أما الجلد فكان ملتئماً. ارتسمت على شفتي الرجل ابتسامة خفيفة كأنها كان يتحدى بها طبي وعقليتي العلمية، وأرخى ثوبه منصرفاً. قال لي جاري بعد أن انفضت الحلقة: ما رأيك؟ قلت: أنا شاهد على ما رأيت. قال: وهل تصدق أن السيد توفيق، والد السيدين محمود ومحمد، قد ذبح منذ أربعين عاماً رجلاً في هذه المضافة حتى فصل رأسه عن جسده ثم غطى الجثة ورأسها بعباءة وظل يضرب بالدف فوقها حتى قام المذبوح سالماً ! قلت: ذلك شيء لم أراه.. ما رأيت هو ألة حادة وقاطعة تدخل بطن رجل مخترقة أحشاؤه، ربما مست كبده أو كليته، ثم لا يترف الرجل ولا يتألم، وإنما يسير ويتصرف تصرف السليم الذي لم تخدشه إبرة. هذا ما رأيته، وهذا ما أشهد عليه.

-٢-

مشهد الضرب الذي وصفته سابقاً كان أول مشهد حضرته ودققت فيه لا كمتفرج عادي. بل كشاهد متفحص. قبل ذلك سمعت عن (الضرب)حكايات لا تقبلها عقليتي العلمية التي أحملها كطبيب درس علوم التشريح والفيزيولوجية

منذ أربعين عاماً، وعاد بعدها إلى الحياة. ومنها حكاية الشيخ عبد الله الخليل التي ما يزال يرويها لنا شهودها من المسنين والتي جرت في منازل أسرتنا في البادية قبل أن أولد أنا. فقد أوقدت نار عظيمة ووضع فيها قضيب طويل وغليظ من الحديد، مدبب الرأس، حتى إذا احمر القضيب من الحرارة حمله الشيخ عبد الله بيديه بعد أن نضا عن ثيابه إلا السروال، وغرسه في جوفه عند السرة، فاخترق بطنه وخرج من ظهره. يقول الرواة أنهم ما يزالون إلى اليوم يشمون بأنوفهم رائحة الشواء المنطلقة من احتراق لحم الشيخ بالقضيب المتقد. بعد ذلك قام الشيخ، والقضيب المنغرس في جسده، ودار على الحاضرين حتى وقف أمام سرحان آغا، قائد الجندرمة الذي كان تكذيبه لحكايات الضرب سبباً لعقد تلك الحلقة. وطلب منه أن يسحب القضيب بيده. امتثل سرحان إلى لطلب الشيخ عبد الله. وقد شحب وجهه وارتعشت أوصاله من الرهبة، و لم يتمكن من إخراج القضيب إلا بعد أن احترقت أصابعه برغم لفه لها ببعض الثياب. دثر الشيخ بعدها بعباءة ظل جسده يتفصد عرقاً لفترة قصيرة، ثم لم يلبث حتى خرج من تحتها وجلس بين الحضور سليماً معافى.

هذه الحكاية الأخيرة التي سمعتها من أكثر من راو ممن شهدوا وقائعها بأعينهم. بعضهم قال لي إنه كان بين الذين روّحوا بأطراف أثوابهم على النار كي تزداد اشتعالاً. وكلهم أكد لي أنه بعد أن غرس الشيخ ذلك القضيب الملتهب في بطنه تواثب أولاده الصغر صبايا وبنات إلى النار يخوضونها ويتقلبون على جمرها كأنهم يتقلبون على بساط من عشب الربيع. بعد كل رواية لهذه الحكاية وأمثالها كنت أسأل: هل أصدق هذا؟ وما هو التحليل العلمي لهذا؟ لم أكن أقطع بقول. كنت أجيب أني أستصعب تصديق ما يروونه. ولكني لا أجرؤ على القول إنه غير ممكن الحدوث.. فأنا أعرف الناس بأن علمي الذي تعلمته لا يمكن أن يحيط بكل شيء في هذه الحياة. كما أنه لم يصل إلى درجة يجد فيها تعليلاً لكل شيء في هذه الحياة.

بأصابعي على نهايته النافذة من ظهر ذلك المريد. لقد ظل عجزي عن التعليل كما كان، وإن كانت صعوبة التصديق، بعد أن تحققت حسياً مما جرى، قد خفت وحل محلها اليقين.

بعد أول حادثة شهدت فيها "الضرب" بعيني، كثرت رؤيتي لأمثالها. كان الضاربون يقومون من جانبي، حينما يشتد قرع الدفوف ويغلي الحماس في الصدور، فيغرسون في خواصرهم الخناجر أو يبجون بطون أنفسهم بالسيوف. وكلما زارنا قريبنا السيد عايد، وهو شيخ ذائع الصيت يقيم في قرية مجاورة لدير الزور، كانت زيارته مناسبة يتبارى فيها الضاربون أمامه من أبنائه وأبناء عمومته المرافقين له، أو من المشايخ الحاضرين، وهو في مقدمة الضاربين. حتى ليظن الإنسان أن الحفل قد انقلب إلى مجزرة لا تنتهي إلا بموت واحد أو أكثر من هؤلاء المشايخ أو مريديهم.

على أن أحداً لم يمت أمامي حتى الآن مما جرى في أمسيات الضرب، كما أني لم أجد أحداً قد تأذى بمقدار خدش من طعنات تلك الآلات القاطعة الجارحة ومن جولاتها في الأحشاء. وفي إحدى المرات رأيت رجلاً اسمه علي ميت-وهذا اسمه منذ نبش قبره وأخرج منه بعد أن دفن خطأ لأنهم ظنوه مات بينما كان في غيبوبة – رأيت علي ميت هذا يغرس في إحدى عينيه سيخاً حديدياً، فيدخل هذا السيخ في كرة العين حتى يثبت فيها قائماً، ثم يقوم جائلاً بين الحاضرين والسيخ ثابت في داخل عينه، في بياض تلك العين. علي ميت ضعيف البصر، فاقد البصر في إحدى العينين والعين الأخرى مكسوة بسحابة بيضاء يرى فيها بصعوبة، وقد أدخل السيخ في عينه شبه السليمة هذه ودار بها دقائق كثيرة قبل أن ينزعه منها ويعود إلى مجلسه بين الحاضرين كأنه لم يفعل بنفسه شيئاً.

سيتساءل كثيرون أيمكن لهذا أن يكون صحيحاً؟ هل يجوز لي، أنا الطبيب ذو

جازمين إلا قول الناس أني كنت شاهداً لوقائعه. وطلب بعضهم أن يحضروا وقائع "الضرب"فأحضرتهم إياه. وفي ذات مرة سال بعض الدم من جرح أحد الضاربين فسارع زميلي الطبيب الذي حضر الأمسية ليتحقق بنفسه مما يجري، سارع زميلي لإسعاف الجريح فأبعده الرجل بيده وهو يقول: لا تفرح بمعالجتي.. هذا ليس شيئاً.

وحقاً لم يكن شيئاً مهماً، إذ توقف نزف الدم بسرعة. وقد وجدنا أنا وزميلي ذاك أن تعليل توقف الترف، أو انعدام الترف، مثل تعليل الجرأة على ضرب النفس وتحمل الألم، أمر سهل. ولكن كيف نعلل اختراق الآلات القاطعة للأحشاء في مناطق خطرة، مثل مناطق الكبد والكلية والأمعاء، دون أن تترك تمزقاً أو انتقاباً أو التهاباً؟

في الواقع لقد عجزنا عن التعليل وأقررنا على أنفسنا بذلك العجز، و لم نستطع في كل ما رأيناه أكثر من أن نكون عليه شهوداً.

* * *

كيف تصبح الحكاية قصة

تحت عنوان "حادثتا مرور" كتبت هذه القصة. إلا أني شفعتها بخاتمة يمكن اعتبارها بحثاً مختصراً عن طريقة كتابتي بعض قصصي التي تحتويها مجموعات، المنشور منها حتى الآن أربع عشرة. وقد كتبت هذا البحث استجابة لما يطرح عليّ من أسئلة حول كتابتي القصصية وطرائق عملي فيها. قد تنطبق هذه الطريقة بشكل أو آخر على ما يكتبه الآخرون في هذا المجال، وقد أكون مختصاً بها وحدي. وعلى كل حال، فإني أحسب أن بحثي الأكاديمي المختصر هذا سيزود قرائي والنقاد ببعض المعرفة بإحدى طرق إنتاجي الأدبي، ورجائي أن لا تفسد هذه المعرفة عليهم المتعة التي قد يحصلون عليها من قراءة هذا الإنتاج دون الاطلاع على بعض خوافي الأسلوب في صياغته.

حادثتا المرور

الحادثة الأولى

روى لي صديقي الدكتور أحمد هذا. قال: عدت من آخر مقر لعملي في خارج البلاد، بعد أن أحلت على التقاعد، على المعاش، كما يقول إخواننا المصريون. كنت مستريح الضمير، راضي النفس، على الرغم من بعض الأسى في النفس لفراقي الأجواء التي عشت فيها نحواً من أربعة عقود من الزمن، ولفراق الناس الذين عرفتهم، ولشعوري بأني سأعيش على هامش الحياة بعد أن كنت سابحاً نشيطاً في خضمها. لا بأس، كنت أقول لنفسي فقد كنت أتوقع حلول هذا اليوم، وأحمد ربي على أني وصلت إليه صحيح الجسم بالنسبة لكثير من أندادي، ناصع الصفحة أمام ضميري وأمام الناس. وكنت أشعر ببعض السرور، لأني سأملك وقتاً أنصرف فيه إلى هوايتي المفضلة، وهي القراءة في كل ألوان الثقافة، ثم الكتابة بصورة خاصة.

قبل أن أعود إلى بلدتي الصغيرة، أو هي قريتي الكبيرة مكثت أياماً في عاصمة بلادنا كأني أردت أن أتودع من جو الصخب والعلاقات المتشابكة ومعارف الكثر قبل انتقالي إلى جو الهدوء ومخالطة الأقارب ورفاق الصبا وأول الشباب. في هذه الأيام التي أقمت فيها في العاصمة كان يطيب لي التنقل في الشوارع متأملاً في جموع المشاة وأنا سائر بينهم، بينما كنت في السنين الطويلة الماضية لا أراهم إلا من وراء زجاج سيارتي الرسمية في تنقلاتي في البلاد التي كنت على رأس عملي فيها وفي واحد من تنقلاتي في الشوارع هذه وقعت تلك الحادثة التي أبكتني.

في البلاد التي كنت أنتقل بينها، وأكثرها بلاد غربية، كنت أجد أن المشاة مقدسون في اعتبارات المرور. أعني أن الأفضلية لهم في العبور والاجتياز وفي السير والانتقال، الأفضلية لهم على راكبي الآلات الميكانيكية في بلادي التي عدت إليها كنت أعرف أن الأمر ليس هكذا. القدسية، إذا كان الأمر يعتبر قدسية، هي بين المنتقلين في بلادي للأقوى، وممتطو الآلات المعدنية هم الأقوى بلا شك. شيء شبه طبيعي إذن أن يظل السائرون على أقدامهم، منتظرين على الرصيف في الشوارع والساحات يتطلعون إلى سيول السيارات والدراجات الهادرة تمر مسرعة أمامهم إلى أن يأذن الله فيصفر الشرطي لهم قائلاً إن الأقوياء قد مروا، وأن بمكنة الضعفاء ممتطي أرجلهم أن يعبروا من هذا الرصيف على ذاك. وحتى حين يتلقون الإذن من الشرطي أوحين ينفتح لهم ضوء أخضر يؤمن لهم العبور، فإن على المشاة أن يتلفتوا يميناً وشمالاً حذراً من أن يتحدى أحد من مفرطي القوة صفارة الشرطي أو خضرة الضوء فيقطع الطريق هادراً بسيارته مفرطة القوة مثله.

بالطبع ليس الأمر هكذا في البلاد التي تركتها حين أحلت على التقاعد ولا أريد أن أكثر الحديث عن العناية والاحترام اللذين بهما يعامل السائر على قدميه من ممتطي سياراتهم وآلياتهم الأخرى في تلك البلاد. ولكني أقول إني في الأيام القليلة

بين ما يحدث هنا وما يحدث هناك يصل إلى درجة ما رأيته في أصيل واحد من الأيام، أثناء مروري أمام بناء مؤسسة كبرى في العاصمة، وهي مؤسسة ترمز إلى رعاية الحق والقانون وإلى حسن إدارة البلاد.

في أصيل ذلك اليوم رأيت رجلاً في متوسط العمر، نظيف الهيئة، قد انحدر من الرصيف المقابل للرصيف الذي كنت أسير أنا عليه ليعبر الشارع أمام بناء تلك المؤسسة الكبرى. الشارع عريض، والسيارات التي كانت تقطعه قليلة، فكان الرجل يمشي غير مستعجل نحو الرصيف الآخر. ولكن حدث أن أقبلت سيارة مطهمة، مستعجلة، تصور ركابها أن الشارع كان فارغاً فساقوها بأقصى سرعتها إلى أن أدركوا أن هناك رجلاً كان يسير في الشارع على مهله. أوقفوا سيارتهم فجأة فانطلق من عجلاتها صوت صرير نبهني إليها، فوقفت في مكاني على الرصيف أنظر إليها وإلى ما جرى بعدها. ما جرى هو أن سائق السيارة أطلق زمورها بشدة داعياً الرجل إلى أن يخلي لها الطريق. إلا أن الرجل، لتهاون منه أو لعجز أو لمرض، ظل في مشيته البطيئة غير ملتفت إلى السيارة وإلى من فيها. حينئذ رأيت بابي السيارة الأماميين ينفتحان بعصبية وقوة، فينزل منهما السائق ومجاوره في الكرسي الأمامي ويسرعان إلى حيث بلغ الرجل العابر في مشيته. أسرعا إليه، وأمسكا به، ورفع كل منهما يده إليه، ثم نزل بتلك اليد صفعاً ولطماً ولكماً على وجهه ورأسه وعلى صدره وظهره.

نعم، هذا ما جرى أمام عيني. هل كان في المقعد الخلفي من تلك السيارة المطهمة ركاب؟ لست متأكداً من ذلك. فقد كان بصري مشدوداً إلى الرجل وأنا أراه يتلوى تحت وطأة الضربات الموجهة إليه، قبل أن يهوي منطرحاً عل الأرض، وقبل أن يعود الراكبان إلى مجلسيهما وينطلقا بسيارتهما، غير آبهين بالناس الذين توقفوا على الرصيفين المتقابلين يتأملون في ما حدث، دون أن تبدو من أحدهم

أنا كنت واحداً من أولئك الناس. لم أتدخل و لم تحدثني نفسي بأن أتدخل. كل ما جرى لي أني أحسست بأن أجفاني التهبت فوق مقلتي، ثم بالدموع تنهمر منها على خدي. لقد رحت أبكي. نعم بكيت وأنا أسائل نفسي: ألم يكن ممكناً أن أكون أنا هذا الرجل المطروح أمامي على الطريق؟ ألم يكن ممكناً أن أكون قطعت هذا الشارع متمهلاً، لتهاون أو لعجز أو لمرض؟ إذن كان ممكناً أن يتزل بي ما نزل بهذا المسكين، ولكنت مسكيناً مثله، لا أملك أي دفاع أو حماية من اعتداء هذين القويين، راكبي السيارة المطهمة! نعم كان هذا ممكناً كل الإمكان.. ولهذا يا صاحبي انهمرت دموعي، فبكيت في تلك اللحظات.

الحادثة الثانية

هي حادثة رواها لي قريبـــي أحمد آغا.قال لي:

لم أر الحادثة بعيني مع أنها جرت قريباً من منزلي في العمارة التي أسكن وأسرتي واحدة من شققها. أخبرني من شهدوا تفاصيلها وصدقها لي زوجتي وابني. لم تحضر زوجتي وابني الحادثة بذاتها بل شهدا بقايا آثارها في مكان وقوعها، قريباً من عمارتنا في مدينتنا الكبيرة، عند المفرق الذي يتقاطع به الشارع النازل مع شارع السبيل، وعند العمود المعلقة به أضواء المرور الثلاثة، الأحمر والبرتقالي والأخضر.

كان الوقت قريباً من الغياب. وفي الشارع النازل من حي المحافظة كانت تسير آلية بلدوزر ضخمة، سيارة جبارة من التي تمهد الطرق، منحدرة بسرعتها المتوسطة وبضجيجها الذي يصم الآذان. لحقت بالبلدوزر سيارة سوداء طويلة، مترفة، منحدرة كذلك من حي المحافظة وبسرعة كبيرة. لم يجد سائق هذه الأخيرة إلا أن يبطئ بها، فقد كان البلدوزر يملأ الطريق بهيكله الضخم، ولا بد من أن ينحاز به سائقه نحو اليمين كي يترك للعربات التي تتلوه ممراً كافياً لأن تسلكه وتتجاوزه. أطلق سائق السيارة المترفة زمور سيارته بقوة كي تفسح الآلية العملاقة له الطريق

لم يكن يسمع، في الدقائق الأولى، صوت الزمور الحاد لضجيج آليته هو الصاخب وقرقعتها المرتفعة، فظل يتابع سيره في منتصف الشارع. وأخيراً، وبعد أن مرت تلك الدقائق التي بدت طويلة ولا شك في حساب ركاب السيارة المترفة، انتبه سائق البلدوزر إلى أن صوتاً ينطلق خلفه يطلب منه أن ينحاز بآليته إلى اليمين، فانحاز. تجاوزت السيارة المترفة البلدوزر الضخم. وبدلاً من أن تسرع بعد أن أخلى لها الطريق، اعترضت البلدوزر حين أصبحت أمامه وتوقفت، مضطرة إياه إلى أن يتوقف خلفها. فتحت أبواب السيارة آنذاك وبرز منها سائقها وشخص آخر وتقدما من سائق البلدوزر الذي كان على مقعده المرتفع في آليته الضخمة فجذبه أحدهما بقوة انطرح منها على الأرض. تقدم منه الرجلان عند ذلك وانهالا عليه، وهو في انطراحه، ضربا.

انهالا عليه في الأول ركلاً بأقدامهما على جسمه المطروح. ثم مد أحدهما يده فأقامه من ضجعته على الأرض وأسند جذعه على هيكل البلدوزر وراءه وراح يكيل له الصفعات واللكمات على خديه ورأسه، يعينه في ذلك رفيقه الآخر. انبثق الدم من أنف سائق البلدوزر ومن جرح في جبينه، وربما من جرح آخر في إحدى وجنتيه. ولعل هذا الدم النازف الذي أحال وجه السائق إلى صفحة ملطخو بالأحمر القاني، أو تجمهر الناس على رصيفي الشارع المتقابلين، إضافة إلى تكاثر السيارات وراء البلدوزر المتوقف، هي الأمور التي جعلت الرجلين يتوقفان عن ركلهما وصفعهما ولطمهما لضحيتهما ويعودان إلى سيارتهما فيسوقانها مبتعدين بها عن البلدوزر. وعلى كل ما تلقاه سائق هذه الآلية، بدا عليه أنه لم يفقد الوعي. مسح بأطراف كوفية كانت ملفوفة على عنقه الدم الذي كان يغطي عينيه، وتحامل على نفسه فصعد الدرجة التي تفصله عن موقعه وراء مقود آليته التي مازال محركها يدور، وأمسك بذلك المقود، متهيئاً إلى أن يتابع سيره بها في الشارع.

السالكة الشارع المقاطع بالسير فيه. توقفت السيارة المترفة إذن أمام الضوء الأحمر، وكان على سائق البلدوزر المسكين، المدمى الوجه والمرضوض البدن أن يوقف آليته أيضاً وراء سيارة المعتدين عليه، في انتظار أن يشتعل الضوء الأخضر فيستأنف السير وراءها..

قلت السائق المسكين. ولكن هل كان مسكيناً حقاً ذلك السائق؟ يبدو أن لا.. ذلك أنه، والسيارة المترفة متوقفة أمامه، قرر أن لا يتوقف هو بآليته ذات الهيكل الضخم والمحرك الجبار. لقد استمر يسير. أو أن بلدوزره استمر بسيره، وبسرعة أكبر بكثير من سرعته المتوسطة التي كان ينحدرها في الشارع النازل، حتى لطم بمقدمته الضخمة الطاحنة مؤخرة السيارة السوداء الطويلة أمامه. وتعالت في الشارع، عند المفرق وفي حذاء العمود المعلقة عليه أضواء تنظيم المرور، الأحمر والبرتقالي والأخضر، تعالت ضجة تحطيم الزجاج والمعادن وصرخات عالية وكثيرة. صرخات كثيرة، بعضها منبعث من المارة المتجمهرين في جانبي الشارع، وبعضها من جوف السيارة التي أصبحت ألواح معدن ومزق نسيج وحطام بلور.

لم يكن مسكيناً إذن سائق البلدوزر. لعل من كانوا مساكين هم سائق السيارة المترفة والركاب الذين كانوا يمتطونها. كانوا مساكين بنفسياتهم التي ساقتهم إلى أن يتصرفوا تصرفهم الأهوج والمهين بحق إنسان بسيط، كل ما فعله أنه، وعن غير تعمد، تسبب بتأخيرهم لحظات في سيرهم إلى غاية لا يعلم غير الله قدرها من الطيبة والاستقامة. كما كانوا مساكين حين أوصلهم ذلك التصرف إلى تلك النهاية الأليمة. أما هو سائق البلدوزر، فقد كان حقاً مدمى الوجه، محطم الأعضاء، مجروح الكرامة، إلا أنه أبى على نفسه أن يكون مسكيناً، أترانا ننقم منه حدته في ردة فعله على ما آلم جسمه ومس كرامته، أم ترانا نقدّر إلى ما فعل ونعذره على فظاظة تصرفه وقسوة انتقامه؟

الأولى التي قصها عليّ صديقي الدكتور أحمد منذ سنوات، كأن عقلي الباطن يقارن بين وقائعهما وبين خاتمتيهما، باحثاً في تلك المقارنة عن جواب ما سئلت عنه. الصحيح أني لم أعثر على جواب مقنع، واكتفيت بأن هززت رأسي لقريبي متهرباً بذلك عن كل إجابة أو تعليق.

كيف تصبح الحكاية قصة؟

هاتان حكايتان بسيطتان لواقعتين حقيقتين الأولى رواها لي الصديق الدكتور أحمد، رحمه الله، وكان يومها متقاعداً من عمله الدبلوماسي الذي تنقل فيه بين بلدان أوروبية وعربية متعددة. شاهد هو هذه الواقعة بعينه حين كان يسير في شارع الصالحية في دمشق أما مبنى البرلمان، مجلس الشعب كما يسمى اليوم. والواقعة الثانية رواها لي قريبي أحمد آغا المقيم في حلب، والحكاية وقعت في هذه المدينة الكبيرة من مدن بلادنا. لم يشهد هو الواقعة بعينه، وإنما رواها له من شاهدها فأخبرني بها كما رويت له.

هما حكايتان بسيطتان كما قلت، رويتا لي بكلمات قليلة، ودون ما تفصيل أو تعليق. ولكني، كقاص، وجدت فيهما مادة لقصة واحدة، فكتبتها بهذا الشكل الذي تقرؤونه أو تستمعون إليه. ما الذي فعلته فتحولت به الحكاية إلى قصة؟

ما فعلته هو أني أدخلت نفسي في رواية الوقائع فتحدثت عنها بطريقتي كقاص لا بطريقة من رواياها لي، وهما كانا ناقلي خبر وليس كاتبي قصة. عشت بخيالي أحداث تلك الوقائع مجدداً. فرافقت الدكتور أحمد في سيره عل أرصفة شوارع العاصمة حتى وصلت معه إلى موقفه في الرصيف قبالة مبنى تلك المؤسسة الرسمية الرفيعة المستوى. وقبل ذلك عشت معه حياته الوظيفية متنقلاً بين بلدان العالم المختلفة في الشرق والغرب، كل أتعرف، وأعرّف قرائي معي، على نفسيته وعلى مستواه الفكري والاجتماعي، مما سيبرر ما يأتي من انبثاق الدموع من عينيه تأثراً

من علو صوت زمور تلك السيارة. تساءلت هل كان ذلك لتهاون، أو لغفلة، أو لمرض؟ وبمثل هذه المعايشة لأحداث الحكاية الأولى عايشت أحداث الحكاية الثانية، ونقلت المعايشتين إلى قارئي الحكايتين ليعيشوهما مثلي. إنهما معايشتان لم ينقلهما إلي راويا الحكايتين، ولا خطرت ببالهما تفاصيلهما. بل لعل أكثر هذه التفاصيل لم تدر بالدقة التي رويتها أنا، أو أنها لم تدر في الواقع مطلقاً. فهي من نسج خيالي القصصي، وإن لم يكن إيرادي لهما بقصد تزييف ذلك الواقع. النواة الأساسية للواقع ظلت على صحتها، والحواشي الهامشية هي وحدها المتخيلة والمبتدعة.

وحادثتا المرور هما، كما رأى القارئ، هما حكايتان ولكني رويتهما على أنهما قصة واحدة. بمقردهما كانت كل منهما حكاية، وباجتماعهما أصبحتا قصة. ذلك أني أردت بجمعهما أن أوحي إلى القارئ بمغزى واضح أن مضمر، يتضح أو يكمن في المقارنة بين نهاية كل منهما، حين بدأنا متشابهتين وانتهتا مختلفتين. ثم إن اختلاف النهايتين لا بد أن يحمل إلى القارئ إحساساً أو يثير فيه تفكيراً يختلفان كل الاختلاف عما يحس به أو يفكر فيه لقراءة الحكاية الواحدة منهما لوحدها.

نعم.هذا هو ما فعلته لتتحول الحكاية، أو الحكايات المتعددة، إلى قصة واحدة أو إلى قصص كثيرة. أو أن هذا ما يفرق ما بين الحكاية والقصة في التأليف والتركيب والغاية.

* * *

المضافة

تفرض كل بيئة على أبنائها ألواناً من السلوك تتلاءم مع مواصفات تلك البيئة صيانة لحياة الفرد واستجابة لغريزة بقاء النوع الذي ينتمي إليه. ينطبق ذلك على الحيوان الذي يلائم سلوكه مع ظروف بيئته بصورة فطرية، وعلى الإنسان الذي يستخدم لذلك الغرض عقله وخصائص تكوينه وقدرته على التغير والتطور.

وهكذا تفرض الصحراء على أبنائها السلوك الذي يعينهم على صيانة وجودهم في عيشهم في بقاع من الأرض شاسعة الأبعاد، فقيرة في مصادر الغذاء، قليلة الماء، والشمس فيها تشوي بحرها الوجوه والأجساد. أحد ضروب ذلك السلوك التعاون في تأمين المأوى والغذاء لمن هو في حاجة إليهما، ولا يملك القدرة عليهما. وهذا التعاون الضمني هو الضيافة في شكلها البدائي. فهو واجب اجتماعي، دوافعه الكامنة غريزية، ومن يقوم به يثبت لنفسه وللآخرين بصورة لا شعورية حسن انتمائه للمجتع الذي يعيش فيه. وكلما أمعن في أداء واجب الضيافة وضحى من أجله علا قدره في مجتمعه ووصف بالكرم، فسمي كريماً.

هذا هو الأصل والأساس في الضيافة. وقد استجاب العرب منذ قديم الزمان لأداء واجبها الذي اقتضته ظروف حياتهم الصحراوية، ووصلوا في استجابتهم له إلى الإفراط فيها فتحول الكرم إلى سخاء وندى وجود. ولا شك أنَّ عاملاً خاصاً كامناً في نفوس العرب هؤلاء دفعهم إلى الاستجابة بهذا الشكل. فعامل التعاون وحده لم يتمكن من جعل شعوب أخرى، تعيش في ظروف مشابهة لظروف حياة العرب، لم يتمكن من جعلها تؤدي واجب الضيافة بالشكل الذي يؤديه العرب، فتتصف بالكرم. فشعوب سهوب أواسط آسيا التي تقارب ظروف عيشها ظروف عيش العرب لا تعد الكرم من خصالها المحمودة، وإن شاركتها في حمد خصائص

وكما قلت فإن مواصفات البيئة هي التي تحدد نوع السلوك التعاوني الذي هو الوسيلة المؤدية إلى الوفاء بحاجة الكائنات العائشة فيها. في الصحراء اللاهبة، الفقيرة بالظل والماء والغذاء، يتبدى الكرم بالقرى. أعني بالإيواء والري والطعام. ويكون الكرم في بلاد الأسكيمو هو تزويد الغريب الوافد بما يحتاج إليه من طعام ومن دفء. ومن هنا جاء إكرام المضيف ضيفه في تلك البلاد بأن يدفع إليه زوجته، زوجة المضيف أعني، لتوفر إليه ما هو بحاجة إليه من الدفء الحميمي. وهو نوع من الإكرام لا يحتاج إليه بدوي الصحراء بيئياً ولا يتقبله أخلاقياً.

* * *

وتظل الضيافة صفة فردية يمارس الفرد واجباتها حسب قدراته وحسب دوافعه الذاتية من حب المواساة والعون، وأحياناً من حب الظهور واجتلاب المحمدة. وفي عهود البداوة الأولى، في زمن الجاهلية مثلاً، نجد أمراء مثل حاتم الطائي يأمر عبده في الليالي الباردة أن يوقد ناراً على مرتفع كي يهتدي التائه والمقرور والجائع إلى مترل يأوي إليه ويطعم فيه. يقول حاتم لعبده ذاك:

أوقد فإن الليل ليل قر

والريح يا موقد ريح صر

عسى يرى نارك من يمر

إن جلبت ضيفاً فأنت حر

بل إن الأفراد ليتسابقون إلى اجتلاب الضيوف مدفوعين إلى ذلك لا بعاطفة المواساة والرغبة في إسعاف الملهوف وحدهما، بل إلى اجتلاب الثناء وطيران السمعة بالكرم والسخاء. يقول الشاعر يصف قوماً كراماً:

نصبوا بقارعة الطريق خيامهم

يتسابقون إلى قرى الضيفان

شهرة بالكرم كان مقصداً مفضلاً على غيره لرواد الصحراء. يقول الفرزدق مفتخراً بشهرة جده غالب بن صعصعة:

وركب كأن الريح تطلب عندهم
لها ترة من جذبها بالعصائب
سروا يخبطون الليل وهي تلفهم
على شعب الأكوار من كل جانب
إذا آنسوا ناراً يقولون ليتها
وقد خصرت أيديهم نار غالب

في ذالك الزمن القديم، في الجاهلية وأول الإسلام. لم يكن بالمستطاع أن تخص واحدة من الخيام المنصوبة على قارعة الطريق أو من تلك المجتمعة في منزل العشيرة، فتسمى مضافة. في كل بيت من بقعة من بقاع الصحراء أو البادية أو السهل المعشب مفروض فيه أن تكون دار الضيافة مهيّأة لاستقبال القادم المنقطع أو المجتاز للصحراء وللبادية وللسهل. وحتى اليوم، في ما ظل باقياً من صحارى وبواد في بلاد العرب، تظل الخيمة الوحيدة مضافة للمار بها. أذكر أني في ربيع ١٩٥٣ اجتزت البادية التي تفصل الرقة عن تدمر وحيداً بسيارتي، في طريق أسلكه لأول مرة، وعبر سهول قفراء لم أقابل فيها إنساناً، إلا أن وصلت إلى الكوم. والكوم موقع في تلك البادية بين خرائب الرصافة وقرية السخنة. لاح لي على مبلغ الرؤيا تل يقوم على ذروته بيت شعر منفرد. ما قربت من ذلك التل وسمع من في البيت فوقه هدير سيارتي حتى رأيت فتاتين تبرزان منه لتتأملا السيارة القادمة. ورأيتهما تدخلان البيت وتخرجان منه فتمدان أمامه بساطاً متهيئين لاستقبال القادم، أو القادمين، في هذه الفلاة المنقطعة، وللقيام بواجب ضيافته أو ضيافتهم. لم تكن تلك مضافة

ثم تغيرت الأحوال وتطورت الظروف في البلاد التي نتكلم عنها. قامت في حواشي الصحارى والبوادي وفي قلبها تجمعات سكنية هي البلدان والمدن. وتحضر الكثير من البداوة فقطنوا الدور المسقوفة ذات الأبواب والنوافذ، لم يعد قاصدو المدن هذه منقطعين يبحثون عن ظل يلجأون إليه ولقمة زاد وجرعة ماء يتبلغون بهما بعد سفر مجهد في بادية مقفرة ومحرقة. إلا أن كثيراً من هؤلاء القاصدين يظلون غرباء على تلك المدن، وافدين إلى بلدة لا دار لهم خاصة فيها يأوون إليها ويعدون فيها الطعام الذي يأكلونه. وهذا ما دفع سكان التجمعات السكنية القريبة من البادية، المنتسبين قبل آماد قريبة إلى الحياة البدوية، هذا ما دفع هؤلاء السكان إلى الحفاظ على عادات الضيافة التي ورثوها من أسلافهم، وإلى الاستمرار بالقيام بواجب الغريب الطارئ على مجتمعهم. كل دار في هذا المجتمع مفتوحة الباب للوافد الذي يطرقه. إلا أن أمور معينة ورثت من سالفيها السمعة بكرم الضيافة، إلى جانب ملاءة في الثروة أو كفاية منها، هذه الدور ندبت نفسها لاستقبال الضيوف بوسائل وإمكانيات تفوق ما يتوفر للدور المفردة الأخرى. الدور المعينة هذه هي التي حملت، في أذهان الناس وفي مفاهيمهم، اسم المضافة خصيصاً.

لابد لي من القول إن أكثر تصوري في حديثي عن المضافات يستند إلى مواصفات مضافات الرقة، بلدتي. إنها مواصفات مستمدة من خصائص هذه البلدة النائية من كبريات المدن والقريبة كل القرب من البادية. فهي التجمع السكاني الوحيد المقصود من قبل البداة والقرويين في دائرة نصف قطرها مئة كيلومتر. إضافة إلى أن طباع سكانها لا تبعد عن طباع قاصديهم، انتساب هؤلاء السكان في أصولهم إلى قبائل بدوية أو عشائر نصف حضرية. هذا لا يعني أن أنحاء بلادنا السورية الأخرى لا تعرف المضافات. فالعلاقات القديمة والمستمرة بين الريف والحضر. بين البادية والمدينة، والأرومة العربية فالسكان في هذه وتلك وهاتيك،

المتعارف عليه فيها، فمن أسمائها، باختلاف ناحيتها، المنزول والديوان والأوضة والمقعد. وقد ألفت عنها في هذا المجال مؤلفات أذكر منها كتاب الأستاذ سعيد أبو الحسن عن المضافة في جبل العرب، وقد قرأت عنه و لم تتح لي قراءته مع الأسف.

وأنا أستمد تصوراتي وأفكاري عن المضافات، بالدرجة الأولى، من ذكرياتي القديمة عن مضافة أسرتي في بلدتي. فهي التي رسخت خصائصها في خاطري وذهني منذ الصغر. والأسر الكبيرة في الرقة كانت وما تزال، تحتفظ كل منها بمضافتها الخاصة. وواحدة من هذه المضافات المتعددة، ولعلها أشهرها، مضافة أسرة العجيلي. مكانها في وسط الحي المسمى باسم الأسرة وهو حي تسكنه عائلاتها وعائلات أخرى تمت إليها بصلة القربة والمصاهرة.

أول وعيي لمضافة أسرتنا، في أول صباي، أنها كانت مؤلفة من ساحة صيفية مربعة، ضلعها نحو خمسة أمتار، في زاويتها الشمالية الغربية موقد لتجهيز القهوة في الأصيل استعداداً لإدارتها على رواد المضافة الذين يبدأون وفودهم إليها من صلاة العصر. ويستمر توافدهم إليها حتى بعد أداء صلاة العشاء بساعات تقل حسب الظروف والمناسبات أو تكثر. في جنوبي تلك الساحة تقوم القاعة الشتوية للمضافة. وفي صدر القاعة موقد عريض تعلوه مدخنة، وتصطف على أرضيته فوق جمر النار الموقدة مجموعة أباريق القهوة وتسمى الدلال، وواحدتها دلّة، مبتدئة بإبريق ضخم قد يبلغ نصف متر في ارتفاعه يسمى المطبخ، ومنتهية بأصغر الأباريق، وهو الدلة التي يحملها الساقي ويدور بها على الجلوس، وتدعى المصب. في شمالي الساحة كان هناك أرضية يصعد من جانبها على درج إلى غرفة أخرى تعلوها. تلك الغرفة العليا كانت مهيأة لاستقبال الضيوف المتميزين، من موظفين كبار أو زوار قادمين من المدن الكبيرة، ممن لا يناسب النوع مع الضيوف البداة في الساحة الصيفية أو على الفرش المصفوفة واحداً بجانب الأخر في القاعة الشتوية.

الطارئين على البلدة، يدخلونها دون استئذان ليستريحوا ويتناولوا طعام العشاء، وهو الوجبة الرئيسية في ذلك الزمن، عند مغيب الشمس، ثم ليشاركوا في أحاديث الحضور وسمرهم. فإذا انفض أبناء البلدة من أولئك الحضور، فرشت للغرباء الفرش لينامو فيها إلى الصباح ، فينصرفون بعد تناول طعام الإفطار إلى قضاء حاجاتهم التي جاؤوا البلدة من أجلها. قد تكون لهؤلاء الغرباء صلة أو معرفة بالمضافة وأهلها، وقد لا تكون. كما قد تستغرق إقامتهم في البلدة ساعات قليلة أو أياماً متعددة، ليس لذلك أهمية عندهم أو عند مضيفيهم. وقل أن يوجه إلى أحدهم سؤال عمّا جاء به أو عن المدة التي يعتزم المكث فيها في البلدة، إلا إذا احتاج الضيف إلى معونة في أمر أو إرشاد في مشكلة. إنه ضيف، و الضيف لا يسأل ولا يستعجل.

وصفت فيما سبق مكان المضافة، وهو القسم المخصص لاستقبال روادها اليوميين يتحادثون فيه ويتسامرون، ولمبيت قصّادها من الغرباء سواء كانوا من المعارف أو البعداء، يلحق بهذا القسم الذي وصفته إسطبل واسع ومستودع ملحقان به، يقعان إلى شرقي الساحة الصيفية والغرف على جانبيها. يفصل بين القسمين ممر عريض يبدأ من باب المضافة المشرّع دوماً، لا تغلق درفتاه نهاراً ولا ليلاً. الإسطبل والمستودع كانا مهيأين لإيواء ناقلات ذلك الزمن. والناقلات في ذلك الزمن كانت من ذوات الأربع، يقدم عليها الضيوف من قراهم البعيدة، فيعهدون بها إلى خدم المنزل ليؤوها في الإسطبل إلى جانب دواب الأسرة، ومنها الخيول والحمير وجمل أو جملان، وليقدموا إليها ما يشبعها ويرويها.

* * *

واضح مما قلته آنفاً أن المضافة كانت، في الزمن الذي تحدثت عنه، مؤسسة كاملة لها نظمها غير المكتوبة ولها كذلك، تكاليفها غير الهينة. النظم هي التقاليد

مضافة أسرتنا، في أقدم ما أتذكره، كانت تحتل واجهة المنزل الكبير المتسع للشائب الذي كنت اسميه جدي. هو جدي حداد العلوش ابن عم أبي. وعلىالضبط فإنه هو ووالدي كانا ابني عم. وكان في الوقت نفسه عم والدتي. فهو من الناحية الأبوية بمنزلة عم لي ومن ناحية الأم بمنزلة جد. كان هو الشخصية البارزة في الأسرة التي قاربت، مع الزمن، أن تصبح عشيرة. أملاكه في البلدة، بين دور مسكونة وحوانيت مؤجرة، كانت كثيرة. وأملاكه من الأراضي الزراعية على شاطئ نهر البليخ كانت واسعة. فما كان يعييه من الناحية المادية أن ينفق على المضافة من حر ماله بوفرة وبكامل الرضا. وقد أهلته صفاته الشخصية ومنزلته الاجتماعية في تلك الأيام لأن يتوّلى رئاسة بلدية الرقة في السنوات الأخيرة من الحكم العثماني، ولأن تسند إليه مع رئاسته للبلدية مهمة مدير سوقيات الأرمن في المنطقة. حدث ذلك حين قام الأتراك بسوق قوافل الأرمن من نواحي الأناضول باتجاه طريق العراق بغية إبادتهم شيئاً وراء شيء خلال الطريق. بهذه الصفة الأخيرة، صفة مدير السوقيات، اكتسب حداد العلوش العجيلي شهرة بالعاطفة الإنسانية ولجرأة على استخدام هذه العاطفة حين كان يتولّى بحمايته من كتب لهم القدر من الأرمن أن يتوقفوا في الرقة. إذ كان يحول بالسلطة التي له دون متابعة سوقهم إلى حيث يترصدهم العذاب بالتجويع والمرض ثم الإبادة. وظل الأرمن يذكرون فضل هذا الرجل عليهم، فيسجلون اسمه في مؤلفاتهم التاريخية ويترددون عل بلدته متسائلين عن أخباره وأخبار أسرته، وما يزالون على ذلك إلى يومنا هذا.

إذاً فإن المنفق على هذه المؤسسة أبرز رجل في الأسرة، ومثل مضافة أسرة العجيلي كانت مضافات الأسر الأخرى في البلدة. وهذا لا يعني أن واجب الاستضافة مقصور على المضافة الرئيسية وحدها. فكل الدور في البلدة مقصودة من قبل من يعرف أهلها أو له علاقة بهم. لم يكن في البلدة، فيما سبق، فنادق أو

يستطيع الطارئ أن يدخله دون استئذان. وأذكر أن بجانب مضافة جدي حداد كانت دار ابن عمه عبد الهادي بحمد وفيها مضافته الخاصة، كأنها معين للمضافة الأولى، الطارئون على المضافة الثانية هذه كانوا من خاصة أصدقاء الأسرة، بينما كانت الأولى التي تستقبل كل من هبّ ودب من الضيوف.

هذه هي المضافة كما عرفتها في طفولتي وأول صباي. لها ضيوفها الطارئون الذين قد ينامون فيها ويأكلون ويشربون، ولها روادها المحليون من رجال الأسرة وجيرانها وأصدقائها من أبناء البلدة المقيمين فيها. لا بد لهؤلاء الأخيرين، بعد أن ينتهوا من عملهم اليومي، أن يقصد واحدهم إحدى المضافات، ليتناول فيها القهوة المرة، وليلف سيكارته بأصابعه فيدخنها مع القهوة. وما من أحد ممن لم يتجاوز عمر اليفاعة، فلم يعدّ بعد من الرجال، كان يدخن التبغ في تلك الأيام. وهناك دوماً قلة تدخن التنباك، فكان في المضافة عدد من الأراكيل مهيأة لهذه القلة. وتفتتح المضافة في العادة بعد أن يؤوب الناس من الجوامع وتأديتهم فيه صلاة العصر، وتظل تستقبل روادها حتى بعد صلاة العشاء بساعة أو بساعتين. هذا عدا عن شرب القهوة وتدخين التبغ والتنباك، كان الحضور يتداولون الأخبار الحاضرة ويستعيدون ذكرياتهم عن الأخبار الحاضرة ويستعيدون ذكرياتهم عن الأخبار الغابرة، ويتحدثون عن الجو وتقلباته وعن تأثيره في مواسم الزراعة وعلى مراعي الماشية. وبين حين وآخر تُعقد في المضافة محاكمة ويقام تحكيم. وبين حين وآخر كذلك تقام حفلة أذكار دينية، أو يتجمع الناس في قاعتها وساحتها ليستمعوا إلى تلاوة القرآن من شيخ قارئ أو من مغن للأناشيد الدينية زائر. في هذه الحالات الأخيرة يتعدى زمن الجلوس في المضافة الوقت المعتاد، فيستمر أحياناً حتى ساعة من الليل متأخرة.

أما جلسات المحاكمة والتحكيم فتعقد في المضافة لفض نزاع حول أرض أو دين

الأسرة رجل وتحد يعتبر هو القاضي أو المحكّم الذي يرتضيه المتخاصمون. فإذا توفي قام آخر مكانه. والعوارف في منطقة الفرات وفي كل البوادي عديدون، يقصدهم المتنازعون في أماكن بعيدة، وبعضهم له اختصاصه المعين. فمنهم من يحكم بحوادث القتل الفرد أو الجماعي، ومنهم من يقصد لحل خلاف حول ملكية الخيول الأصائل، أو دعاوى السرقة والاحتيال، وغير هذه وتلك. والعارفة في أسرتنا كان مقصوداً لشهرة السرة بالمعرفة بالشرع الديني والأعراف القبلية في آن واحد.

وجلسة المقاضاة في المضافة شيء طريف لمن يحضرها. إذ يتقدم كل خصم ببينته فيورد أدلته ويسمي شهوده، أمام مجموعة من الحضور الذين ليس لهم حق التدخل. فهم يكتفون بالاستماع، ولكنهم في الوقت نفسه يكونون مراقبين يحسب حسابهم في تقديرهم لحصافة العارفة وحسن متابعة لأقوال الخصمين ثم لسلامة حكمه في القضية المعروضة عليه. وذلك الحكم لا يرد، ولا يمكن للمحكوم أن يستنكف عن تنفيذه، على الرغم أن العارفة لا يملك سلطة يجبره بها على التنفيذ. وقد حضرت في صباي بضع جلسات من هذه المحاكمات، وحفظت بعضاً من كلمات التخاطب التقليدية التي كان الخصوم يفتتحون بها طرح قضاياهم، وأسلوب إدارة الجلسات من قبل العارفة، والمناقشات التي كانت تعقب إصدار الحكم وتعليقاته الحضور عليه.

أما حفلات الأذكار فكانت تقام في مناسبات معينة ومحدودة، مثل حفلة مولد يختتم بها عزاء، أو قدوم شيخ مشهور من مشايخ الطرق في وادي الفرات، وما يماثلهما. وتستخدم الدفوف في هذه الحفلات، فيقرع الشيخ فيها على الدف هو ينشد المديح النبوي أو مديح الأولياء في مقاطع تتخللها اللازمة التي يرددها المريدون ربما شارك الحضور في ترديدها. وأحياناً تنتهي الحفلة بعمليات الضرب، ضرب الشيش أو الأدوات القاطعة. وقد كتبت "أنا" عن هذه العمليات وما

البلدان. ومثل حفلات الأذكار حفلات تلاوة القرآن الكريم التي تقام في المضافة عندما يرد إلى بلدتنا الصغيرة قارئ مشهور. وكذلك حفلات الغناء. وهو غناء ديني تنشد فيه قصائد المديح النبوي وقصائد كبار الشعراء الصوفيين.

* * *

أروي كل هذا من مخزون ذكريات الصبا حين كان رئيس العائلة وصاحب المضافة جدي حداد، وحين كانت الرقة قرية كبيرة يتراوح عدد سكانها بين خمسة عشر ألفاً وعشرين ألف. توفي ذلك الجد في عام ١٩٣٣، وظلت المضافة مفتوحة بعد وفاته، يديرها أبناء أخيه، فقد كان أبناؤه صغاراً لم يبلغوا سن الرشد بعد. لم يتغير استقبال قاصديها ولا تغير القيام بواجبهم. ولكن التغير حدث في البلدة نفسها وفي الوادي المحيط بها، أو أنه بدأ يحدث في ذلك الزمن.

التغير الذي حدث، ونستطيع تسميته بالتطور، في الرقة ومحيطها، نتج عن أسباب عدة وتظاهر بمظاهر عدة. سهلت المواصلات، فلم تعد مقتصرة على الخيل والجمال، فانقرضت هذه أو كادت، وحلت محلها الرواحل الميكانيكية السريعة السير. أصبح بإمكان قاصد الرقة من مضارب عشيرته التي تبعد عشرين كيلومتراً، أو حتى مئة كيلومتر، أن يقضي مهمته في البلدة ويعود منها إلى أهله في يوم واحد. ثم إن قاصدي البلدة لم يعودوا من القرويين والبداة وحدهم. قد أدى تكاثر السكان وازدياد الفعاليات الاقتصادية، إلى تردد كثير من سكان المدن الكبير على البلدة، ممن لا يألفون دور الضيافة البدائية والنوم جماعات في مكان واحد وتناول الطعام عل الطريقة البدوية. بدأت لهذا تفتتح المطاعم والفنادق في البلدة، فيؤمها الحضريون أولاً، ثم أصبح أبناء المنطقة، ممن تمسك بهم حاجاتهم عن الرجوع في يومهم إلى القرى المجاورة، يأكلون في هذه المطاعم وينامون في تلك الفنادق. بهذا تضاءلت وظيفة المضافة كفندق ومطعم مجانيين، على مر السنين، حتى تلاشت أو

في الأيام العادية من بعد صلاة العصر إلى بعد صلاة العشاء. وفي أيام الأعياد والمناسبات الاجتماعية المختلفة تزداد ساعات دوام هذا النادي، فازداد قاصدوه، ولكنه يظل نادياً مجانياً، يقوم على إدارته والإنفاق عليه أحد رجال الأسرة البارزين، ويعدّ كل فرد في الأسرة عاملاً فيه وخادماً لرواده.

ولا بد من القول هنا إن تقليص وظيفة المضافة إلى هذا الحد لم يكن برغبة القائمين عليها. وإنما فرضته الظروف والتطورات الاجتماعية فرضاً. فعدا العوامل التي ذكرتها من التقدم الحضاري في المواصلات والتغير في نوعيات الوافدين على البلدة، حصلت بعض التغيرات في سلوك القاطنين في البلدة وما حولها، وفي أخلاقهم. أذكر مثلاً على ذلك مضافة أسرتنا ظلت أمداً طويلاً محافظة على ما كانت عليه من إبقاء مدخلها المفضي إلى ساحتها الخارجية وقاعتها الشتوية مفتوحاً ليلاً ونهاراً، تحسباً لقدوم ضيف طارئ في الليل. إلى أن اكتشفنا ذات صباح أن ثلاثاً من السجادات العجميات المفروشة بها القاعة قد سرقت في الليلة الفائتة. من ذلك اليوم أصبح باب القاعة الداخلية والباب الخارجي يغلقان ليلاً بالقفل والمفتاح. وزدنا على ذلك بعد عام أو عامين أن وضعنا على نوافذ تلك القاعة شبكاً حديدياً، لأننا اكتشفنا أن قناني البتوغاز أخذت تسرق منها، بعد أن يفتح السارق نوافذ تلك القاعة بسهولة.

* * *

نعم أصبحت المضافة اليوم مجرد نادٍ عائلي يتناول فيه رواد القهوة المرة في كل أمسية، ويدخنون فيه التبغ، وأحياناً الرجيلة. الرواد المترددون على هذا النادي هم أفراد الأسرة وأصدقائهم وجيرانهم وضيوف هؤلاء وأولئك. في أماسيه تدور الأحاديث كما كان يتداولها قاصدو المضافات القديمة، غير أن مواضيعها تغيرت بتغير أحوال المعيشة والمجتمع والسياسة، ويتبادل فيها الحاضرون الأخبار مدلياً كل

كان يترلها الرسميون الوافدون والقادمون الذين لم يتأمن لهم بعد المسكن المناسب. تحول ذاك وهذه إلى مبان مسكونة من قبل أفراد من الأسرة الذين تكاثروا واحتاجوا إلى مساكن خاصة بهم. كل ما أوردته عن المضافة أصبح من ذكريات الماضي البعيد، مما يراه أبناء الأجيال الجديدة والمبعدون عن معرفة تبدلات عيشنا، أموراً غريبة تكاد من غرابتها أن لا تصدق.

في إحدى زيارتي للعاصمة البلجيكية، بروكسل، تبادلت الحديث مع أفراد أسرة بلجيكية صديقة لي، في مترلهم، عن القهوة وطرق إعدادها. ذكرت لهم طريقة إعداد القهوة المرة في بلدتي، وكيف أننا نشربها في المضافة التي قربتها إلى تصورهم بتسميتها نادياً عائلياً. سألني بعض أفراد الأسرة عن كيفية الانتساب إلى هذا النادي ومقدار الاشتراك به، وفي أي الأيام يفتح وفي إيها يغلق. أفهمتهم أنه نادي مجاني، مفتوح الأبواب في كل أيام السنة لكل قاصد، قريباً كان أم غريباً. وحين عدت إلى مترل أصدقائي أولئك في يوم تال رأيت عندهم بعضاً من جيرانهم، وقد جاؤوا ليسمعوا بأذانهم خبر هذا النادي الذي يشرب فيه الناس القهوة مجاناً، دون دعوة، وفي كل أيام السنة. ضحكت أنا يومها وقلت لأصدقائي وجيرانهم: وأزيدكم أنّ قاصدي هذا النادي يستطيعون أن يتناولوا طعامهم وأن يشربوا وأن يناموا في ذلك النادي كل الأيام التي يريدونها.. ودون أن يدفعوا فلساً مقابل كل ذلك.

عندما قلت هذا، سمعت سيدة من جيران أصدقائي تلتفت إلى زوجها بجانبها وتقول له:

-ماذا نفعل نحن هنا يا عزيزي؟ تهيأ لنذهب إلى هذا النادي، في ذلك البلد!.

* * *

أشعار في عيادة الريف

منشد الموليّا الذي رويت أبياته في الحلقة الفائتة ليس الوحيد الذي قال شعراً في عيادتي، أو عنها. فالمرضى الذين شكوا لي بالشعر أمراضهم، أو الذين شكروا لي مساعدتي إياهم على الابلال من عللهم، كثيرون. ولعل معرفة الناس بأني كنت في ذات يوم شاعراً، أو بأني أقول الشعر بين الحين والحين هي التي دفعتهم إلى أن يقارضوني الكلام الموزون المقفى أكثر من غيري من الزملاء الأطباء. كثيرون سواي بين الأطباء تلقوا الشعر شكراً، أو أجراً على أتعابهم في معالجة المرضى. وأنا أعرف من زملائي من يعلق في مكتبه، أو في بهو منزله، قصيدة أو قصائد قيلت في مواهبه الطبية مكتوبة بخطوط جميلة ومحاطة بأطر مذهبة وأنيقة.

لست طبعاً من الذين يعلقون على جدران عياداتهم قصائد من هذا النوع، إلا أني أحتفظ بين أوراقي بكثير من أمثالها. جدران عيادتي عارية في العادة. وفي بعض الأحيان تعمد ممرضتي إلى تزين هذه الجدران، على هواها، بلوحات مما يصل إلى يدها من صور الدعاية الطبية أو بملصقات وزارة الصحة وأتدخل أحياناً لرفع هذه الصور والملصقات، لا كرهاً مني بالزينة الفنية وإنما لأسباب أخرى. حدث مرة أن علقت الممرضة على الجدار الرئيسي لغرفة المعاينة ثلاث لوحات في إطرها لوجوه أطفال نضرة، أطفال نستلة كما يسمون، وهي بعض اللوحات التي توزعها شركات حليب الأطفال دعاية لمنتجاتها. كان جمال وجوه الصغار في تلك الصور، ونضرة بشرتهم، وعلائم الصحة المتفجرة في تقاطيعهم، تجلب نظر النساء المترددات على العيادة فيقفن مأخوذات في تطلعهن إليها. وروى لي أحد ممرضيّ أن امرأة منهم قالت ذات يوم تحدث رفيقتها:"ما أجملهم من أولاد!. ترى من يكونون؟" فأجابتها الأخرى بقولها:"لا بد أنهم أبناء حكيمنا من نسائه الأجنبيات علق

يكن سهلاً إقناع تلك الامرأتين ومثيلاتهما بأنه لا ولد لي في البلاد التي أتردد عليها في أسفاري. وكل ما قدرت عليه هو أني نزعت تلك الصور عن الحائط لأتجنب الشبهات. ورحم الله امرأ جب الغيب عن نفسه..

ولأعد إلى الشعر. أرجع بين الحين والحين إلى هذه القصائد التي تكلمت عنها فأجدها تكفي لأن تملأ ديواناً كاملاً. وليطمئن القراء، فإن هذا الديوان لن ينشر في يوم من الأيام.. أولاً لأني لا أعتقد أن قراءة ديوان مثل هذا تهم كثيراً من الناس، وثانياً لأن القادرين على فهم أغلبية قصائده قليلون. أكثر هذه القصائد هي من نوع موليّا المنشد التي نقلتها فيما سبق، والتي احتجت إلى أن أترجمها كي تصبح مفهومة للقرّاء. فهي مقولة باللهجة الريفية التي يعسر فهمها على غير أبناء المناطق الفراتية. وأضرب مثلاً منها الموليّا التالية:

درست كل الكتب ومســـاهر الليلي
وربحت بكل العلم من دون العجيلي
وإني مـــا بيّا مرض إلا ردا حيـــلي
وعجزت عن وصفه بيهـــا شفا ليّا؟

قائل هذه المقطوعة الشعرية لم يأتني مادحاً، بل جاء يعاتبني بها مع لأني كل مزاياي لم أستطع أن أجد دواء لدائه الذي لا يراه مرضاً معقداً. فهو يقول، لا فضّ فوه:

" أنت درست كل الكتب ساهراً الليالي، ونجحت بكل العلوم دون أقرانك من بني العجيلي.. وأنا، ليس بي مرض إلا رداءة عزمي وحيلي.. فكيف عجزت عن وصفة بها لي الشّفاء؟..".

إنها كلمات بسيطة بعيدة عن التزويق غير أنها بسذاجتها البدوية تؤثر في النفس

أكثر من غيره وخيراً في غيره، بأن لمعرفته ولقدرته حدوداً ليس بمكنته تجاوزها. وهو في نفس الوقت لا يستطيع أن يصرح بهذه الدراية لمرضاه، لئلا يفقدهم الأمل الذي ساقهم إليه. مثل هذا الأمل غنته مريضة بدوية في بيتين أنشدتهما تسنجير فيهما بطبيبها من هموم المرض الذي نزل بها، إذ قالت:

غربي طاحونة عيّاش دق النجر بالليلي

وإني دخيل الدكتور عبد السلام العجيلي..

تقول هذه البدوية إن رنين النجر، وهو المهباج، الذي سمعته ليلاً غربي طاحونة عياش، هاج شكواها.. وإنها لتستجير بطبيبها الذي تثق به ليريحها من هم تلك الشكوى!.. ولقد أصبح هذان البيتان بعض غناء الفتيات في الأعراس ينشدنه في حلقاتهم وقد صرفن معانية من الشكوى الطبية إلى الشكوى من لواعج الهوى ومضايقات الحب. وحين أسمع الغناء باسمي في هذين البيتين في حلقات الدبكة، لا أملك نفسي عن الابتسام وأنا أرى كيف تحوّل ما قيل في مقدرتي الطبية إلى استجارة من العشاق بجاهي لأنصفهم من ظلم الأهل، أو من قساوة الظروف، أو من صدود المحبوبين عن المحبين..

وغير هذه المقاطع التي ذكرتها، تحتوي أوراقي مطولات من القصائد لا يخلو بعضها عن شاعرية تدعو إلى الإعجاب باتساع خيال ناظميها أو بدقتهم في وصف ما يشكون منه. من هذه القصيدة تكاد تكون معلقة، أروي للقارئ بعض أبياتها دون شرح. فمفرداتها فصيحة، غير أن الوزن لا يستقيم فيها إلا بقراءة هذه المفردات بإعرابها الخاص. قال الشاعر فيها:

أبدي بذكر الله العالي الفتاحْ

المحيي العظام وهي رميّمهْ

روى لي بعيني قبّاض الأرواح

قمت من فراشي ولا أدركت الهزيمة

الشهر كامل لا آكل ولا أرتاح

وجيت لعبد السلام روحي عديمة

جضعني للمعاينة وطوّل المشواح

وقف على الرجلين وكثّر بالعزيمة

وقفني على الكهربا ومن عينه دمع ساح

من حالي بالكسافة يبكي بهضيمة

الله يسعد عبد السلام عدد ما هبت الرياح

نوى عليّ الصديق من قلب سليمة

ثلث أيام غذاني التفاح

مثل سم الحيايا بقلبي نعيمه

الأبر بزرّي مثل ضرب الرماح

يوم حرب الزير المابوهيمه..

إلى آخر ما قال...

ولقد أثقلت على القارئ بهذه الأشعار البدوية التي يخفى عليه فيها النغم الموسيقي والمعنى المؤثر. إلا أني لا أريد أن أتركه قبل أن أنقل إليه قصيدة، لن يعنته فهمها، لأنها قصيدة فصيحة. ولا بد لي من الاعتراف بأن المناسبة التي قيلت فيها هذه القصيدة غابت عن ذاكرتي، كما غاب عنها اسم قائلها ورسمه. لست أذكر من المناسبة ومن الرجل إلا أنه موظف، وأظنه معلماً، غريب عن بلدتي، حلّ فيها زمناً. وقبل أن يرتحل عنها بعث بورقة فيها كلمات وأبيات من الشعر لا أدري بم استحققتها. فلست أذكر أني أعطيت هذا الشاعر، أو بذلت له لديه، شيئاً تجاوزت

"قال السيد المسيح لتلاميذه: مجاناً أخذتم ومجاناً أعطوا. ولكن في مدينة الرقة بلد الرشيد إنسان أخذ بثمن يعطي مجاناً، ألا وهو الدكتور عبد السلام العجيلي".

له في خدمة الإنسان مبدأ تقاضى أجره شكراً وحمداً
طبيباً حاذقاً وفتى نبيلاً وشهماً باذلاً في الخير جهداً
بلاد الشام تعرفه وزيراً لأجل سلامها ضحّى وفدى
إذا حمل اليراع أباح درّا كريماً ناظماً عقداً فعقدا
وما للدر ما يعلوا خلوداً ويعطي درّه للخلد خلدا
وترتعد المنابر بابتهاج على شرفاتها أما تبدى
خواطره ببطن الكتب نورٌ على مرّ العصور تزيد وقدا
إذا في حمده اسديت سطراً إلى والدي يدا مشفاء أسدى
فتى يأبى بكسب المال مجداً فيكسبه ثناء الناس مجداً
يجود بطبه وأجود شعراً وأحسب في كلا الجودين جودا

رأيت عيني الفرات وفعل عبد السلام فقلت من يا عين أندى!

ربما كان عليّ أن أعتذر عن إراد هذا المديح لشخصي الذي تضمنته هذه القصيدة، وأن أدفع عن نفسي تهمة تصديق المبالغات التي جاءت فيها. ولكن الحديث عن الشعر في العيادة الريفية انتهى بي إلى نبش ما رقد سنين طويلة في أدراجي لا يطلع عليه أحد. وما أكثر ما احتوته هذه الأدراج من أشعار، ومن حكايات، ومن أسرار..

* * *

أمسية اندلسية على شاطئ اللازوردي

في مساء يوم من أيام صيف فائت كنت أسير في مدينة نيس، في الشارع الكبير المنحدر من المحطة إلى " منتزه الإنكليز" وهو الشارع المحاذي للنهر في المدينة، حين تقدم مني رجل طويل أسمر في أوائل كهولته وسألني ناراً لسيكارته، ثم أردف سؤاله بقوله:

- هل السيد إسباني؟

فضحكت لأني سمعت هذا السؤال يلقي عليّ مراراً عديدة في كل بلد زرته من أوروبا، وأجبته:

- أنا عربي، من سورية..

قال بسرعة:

- هذا يوضّح الأمر.. ليس الفرق كبيراً. أما أنا فمن إسبانيا، اسمي مانويل مارتين أنريكيز.

فقدمت إليه نفسي بالمثل، وانتهى بنا التعارف إلى مشرب صغير أنيق على البحر ، نتأمل في انعكاس الأضواء في مياه الشاطئ اللازوردي ونتطلع إلى رواد البلاج في شفوف أواخر الصيف، ونتحدث حول فنجاني قهوتينا في التاريخ والأدب والسياسة.

وكان مانويل مارتين أنريكيز أستاذاً للأدب الأسباني في واحدة من مدارس نيس العالمية، فكان طبيعياً أن يكون للأدب نصيب كبير من حديثنا، تحدثنا في ضجة ارتفعت جديداً في الأوساط الأدبية حول سر مقتل فردريكو غارسيا لوركا،شاعر الأسبان الكبير، الذي قتلته إبان الحرب الأهلية قوات الثورة الوطنية في عنفوان شبابه وذروة عبقريته، فكان موته كارثة وطنية لإسبانيا وسبة سياسية للنظام

العبقري لم يكن السياسة، بل العوامل الأخلاقية. فقد كان غارسيا لوركا إنساناً نبيلاً مستقيم الخلق شديد الابتعاد عن حمأة الرذائل وعن الشذوذ الجنسي الذي انغمست فيه أواسط مرموقة في مجتمع بلدته غرناطة، بل كان لوركا حربا على هؤلاء الشاذين إن في أقواله أو في سلوكه المترفّع. وقد كان بعض البارزين في الثورة الجديدة على النظام الجمهوري، في تلك المنطقة من الأندلس، شديد الانغماس في الشذوذ الخلقي، فكانوا يضمرون في قلوبهم حقداً لا يشتفي على الشاعر الكبير، فاغتنموها فرصة ضربوه فيها ضربة خسة ولؤم في ظروف غامضة مريبة. لقد اتخذ مصرع غارسيا لوركا في حينه وإلى اليوم معنى سياسياً، وأخذ يرمز في أذهان الطبقة المفكرة والأوساط ذات الاتجاه اليساري على الأخص إلى الاضطهاد الفكري الذي قام عليه النظام الجديد في أسبانيا. وعلى الرغم من أن الرؤوس الكبيرة في هذا النظام تعرف السبب الصحيح الذي مات من أجله لوركا، فإنها لا تستطيع أن تقول الحقيقة دافعة عن نفسها تهمة قتل هذا الشاعر الكبير لاتجاهه اليساري ولانطلاقه الفكري، لأنها تقف حينذاك موقفاً أسوأ باعترافها بأن بعضاً من رجالها البارزين كانوا من سوء السلوك، ومن شذوذ الأخلاق، بحيث قضوا على مفخرة من مفاخر أسبانيا الحديثة لمجرد اتصاف حاملها بالخلق القويم والسجايا النبيلة.

قال مانويل مارتين أنريكيز: مهما يكن فإن فردريكو غارسيا لوركا قضى.. قضى كما قضى انيونية توريّس هيريديا. كأن فردريكو غارسيا لوركا كان يصف مصرعه الشخصي بقصيدته التي سماها "مصرع انتونيو أل كامبوريو".

وانطلق جليسي الأسباني يقرأ قصيدة لوركا التي يصف فيها مقتل انتونيو توريس هيريديا المعروف بـــ "أل كامبوريو"، على طريق اشبيلية:

بالقرب من مجرى غواديلكيفير

حول صيحة فحل، ندية كالزهر
كان يغرس في أفخاذهم
طعنات خنـــزير بري
ويتملص في الصراع
كأنه دلفين صابوني الملمس.
لقد أغرق في الدم العدوِّ
وشاحه الفاقع اللون
ولكنهم كانوا أربعة خناجر
وكان لا بد من أن يُصرع.
وحينما انقذت النجوم
أسنتها في الماء الكابي اللون
ترددت صيحات الموت
بالقرب من مجرى غواديلكيفير...
انتونيو توريس هيريديا،
يا كامبوريو ذا المعدن الصلب
يا أسمر في خضرة كالقمر
يا صوتاً على فحولته نديا كالزهر
من الذي سلبك حياتك
بالقرب من مجرى غواد يلكفير؟

- أبناء عمي هيريديا الأربعة

أولئك الذين يسكنون في بيناميخي..

وحليّ من عاج
وهذه البشرة المجبولة
من زيتون وياسمين.
- آه يا انتونيو أل كامبوريو
يا من تليق بامبراطورية
اذكر العذارء وصلّ لها فإنك تموت.

وانبثق دمه في ثلاث دفقات
ومات في منظر جانبي
كأنه رأس في قطعة نقود حية
لا يستطاع أبداً سكبها من جديد.
وكان ملاك ماراً فأراح رأسه
على وسادة
واشعل آخرون وهم مطرقون خجلاً
عند رأسه قنديلاً
ولما وصل أبناء هيريديا الأربعة
إلى بينا ميخي
كانت صيحات الموت قد تلاشت
بالقرب من مجرى غواديلكيفير.

وأنهى جليسي قراءة قصيدة لوركا وصوته يفيض موسيقى وتأثرا. فقلت له: إنك تحب شعر غارسيا لوركا كما يبدو! قال: ومن الذي يعرفه ولا يحبه؟ ثم سكت قليلاً وقال فجأة: هل تدري لماذا استوقفتك في الطريق؟ قلت: لتسألني ناراً

فضحكت لهذا الاكتشاف الغريب وقلت له: هل عرفت غارسيا لوركا شخصياً؟

قال: وكيف لا؟ ولذا قلت لك أن كل من يعرفه يحبه. أني ولوركا من بلد واحد.

قلت: أنت إذن من غرناطة؟

قال: نعم، من غرناظة..

فشعرت كانما هبت عليّ بذكره غرناطة نسمة من نسمات حدائق جنان العريف، أو أني رأيت تدفق الماء في نافورة قاعة الأسود في الحمراء، وكأن اليوم الذي رأيت فيه هذه المدينة الرائعة من الأندلس، وكان ذلك منذ خمسة أعوام مضت، كان ذلك اليوم لم يكن إلا الأمس. قلت لمانويل مارتين انريكيز:.

هل تعرف شاعراً أسبانياً اسمه فيلا سبيسا؟

فابتسم أستاذ الأدب الأسباني وهو يقول: أحسبك تريد أن تسألني عن قصيدته في غرناطة.. أتريد أن أقرأها عليك؟

فقلت له: بل أقرأ عليك أنا هذه القصيدة بلغتنا في ترجمة شاعرنا فوزي المعلوف.

قال: ذلك يسعدني، هاتها.

فمضيت أقرأ:

غرناطة، أواه غرناطة

لم يبق شيء لك من صولتك

هل نهرك الجاري سوى أدمع

تجري على ما دال من دولتك

* * *

ما عدت في النهر كسلطانة

جبهتها في مائه ساطعة

للقبة الحمراء في تاجها

وهج وللمئذنة الرائعة

آه على أمجادك الضائعة

شيعتها بالنظرة الدامعة

مرت مرور النهر من جسره

وأورثتك النوح في عزلتك

غرناطة، أواه غرناطة

لم يبق شيء لك من صولتك

* * *

الله حمراؤك تحسو الأسى

وحيدة في الروضة الحالية

لم يبق لا زهوة ندمائها

ولا صدى أعيادها الماضية

ولم يعد للحب فيها أنين

ينقله العود عن العاشقين

بينا يجيل البدر ألحاظه

باهتة في المرمر اللامع

بين أريج الزهر المنتشي

وبين شدو البلبل الساجع

إذ الجواري خاطرات على
سجادة جارية جارية
أروع ما في الشرق من رقصة
تنسجها أقدامها العارية
* * *
غرناطة، أواه غرناطة
ما أنت إلا خرب قابعة
تنقل أسراب السنونو إلى
إفريقيا أنباءك الفاجعة
هناك أبناؤك من بأسهم
باكون، لا باكون من يأسهم
عرّوا من الأغماد بيض الظبى
ووشحوا الخيل ببيض السروج
ويمموا البحر فلما بدت
منك على الأفق جبال الثلوج
خروا على أوجههم راكعين
وزفروا من قهرهم صارخين
* * *
غرناطة، أواه غرناطة
ضعت فيا للعظم الضائعة!
فيزفر الموج ويبكي لهم
لما يرى أعينهم دامعة..

ولما انتهيت من رواية قصيدة فيلا سبيسا رأيت مانويل مارتين أنريكيز يتطلع إلى البحر البعيد في نظر ساهم، كأنما كان تأثره برواية القصيدة العربية وهو لم يكن يفهم ألفاظها مثل تأثري برواية قصيدة لوركا، التي لم أكن أفهم ألفاظها ولكني ألمّ بمعناها وأطرب لموسيقاها. ولفنا بعد هذا صمت طويل لم يكن يصل إلينا فيه لغط رواد المشرب وضجة المصطافين في الشارع وحفيف الأمواج على الشاطئ القريب، إلا كغمغمة لا معنى لها ولا إزعاج فيها. وكنا أنا ومانويل مارتين أنريكيز منصرفين في هذا الصمت إلى خواطرنا: هو إلى غرناطة اليوم ومصرع فردريكو غارسيا لوركا المؤسي في بقعة مهجورة في سهول جزيرة الأندلس، وأنا إلى غرناطة الأمس وآثار حضارتها ومآسي ملوكها كأنها حوادث لم تفصل بيني وبينهما قرون بل فواجع من فواجع أمتنا في أيامنا هذه. أصحيح أن ما يفصل بيني وبين الأندلس بعيد في المدى والزمن؟ إذن لماذا يرى مانويل مارتين أنريكيز فيّ هذا الشبه الغريب من ابن غرناطة اليوم وفتاها الأغر فردريكو غارسيا لوركا؟ ولماذا أحس أنا بهذا الإحساس الغريب نحو فواجع عفت عليها القرون وعظائم الأحداث؟

لم أرَ مانويل مارتين أنريكيز بعد تلك الأمسية، فقد طرت في اليوم التالي عائداً إلى دمشق. ولكن لقائي لأستاذ الأدب الإسباني هذا كان خير زاد لمسافر آيب إلى بلده بعد غيبة طويلة. ففي الطائرة كنت، وإلى اليوم ما زلت، أردد وأستعيد في خاطري ووجداني تلك الأمسية الأندلسية التي تمتعت بها على الشاطئ اللازوردي.

* * *

رحلة إلى تدمر
اعرف بلادك

كي تعرف بلادك لك أن تختار بين طرق عديدة كلها، إذا أردت، في متناول يدك. بإمكانك مثلاً أن تجمع الصور التي تنشرها المجلات تحت هذا العنوان "اعرف بلادك"، وهي في غالب الأحيان صور جميلة تلعب فيها الأنوار والظلال لعباً محبباً إلى البصر ولكنها صور خداعة. وأنا شخصياً قد أسلك هذه الطريق لا لأعرف بلادي بل لأعرّفها إلى الناس. فقد تلقيت ذات مرة من صديقة سويدية، تسكن قرية شلفتاو، قريباً من دائرة القطب الشمالي، صورة قريتها. وكانت صورة بديعة لقرية أنيقة يبدو في وسطها منزل صغير لطيف وضعت صديقتي تحته إشارة بالحبر وكتبت عليها: هنا أسكن! وكان لا بد لي أن أبادلها صورة بصورة، فانتخبت من بين مجموعة من الصور التي أملكها لبلدتي الحبيبة، الرقة، صورة أخذت بعد يوم ممطر ظهر فيها شارع الرقة الرئيسي ممتداً باستقامة، وقد وقفت في آخره سيارة ركاب كبيرة بعد أن تركت عجلاتها على وحل الشارع أثرين متوازيين يبدوان، في الصورة، كأنهما ارتسام خط حديدي، وتبدو السيارة في آخرهما كأنها حافلة ترام، وعلى الدار –البيضاء التي تقف بقربها السيارة وضعت، كما وضعت صديقتي على دارها، إشارة بالحبر كتبت تحتها إن هنا عيادتي!.. وأرسلت الصورة وأنا واثق أن صديقتي السويدية ستحسب الرقة مدينة كبرى تخترقها حافلات الترام ويسير كل شيء فيها على الكهرباء. ومن هنا إلى أن تقرر صديقتي زيارتي أرجو أن يتحقق مشروع سد الفرات، وأن يتكهرب كل شيء في سورية، فيسير الترام في شوارع بلدي التي أرجو أن تستقيم في ذلك اليوم ويذهب اعوجاجها..

وهناك طريقة أخرى تعرف بها بلادك ربما كانت أقل من الطريقة السالفة كلفة

في ذلك يعود بعضه إلى مؤلفي ذلك البرنامج ويعود بعضه الآخر إلى مذيعيه. أما المؤلفون فمعذورون. فكيف تريد منهم أن يعرّفوك بشيء لا يعرفونه هم أنفسهم؟ سيذكرون لك رقماً خيالياً عن عدد أشجار الزيتون حول إدلب وهم واثقون من أنك لن تترك جلستك المريحة أمام المذياع لتستقل سيارتك فتعد تلك الأشجار. وتسمع المذيعة الكريمة تذكر أن عشيرة الأفاضلة التي تسكن في وادي الفرات تعد كذا من البيوت، فعليك أن لا تضحك. فإن العشيرة اسمها العفادلة، ولكن المصدر الأجنبي الذي ترجم منه واضع البرنامج معلوماته قد سبب اللبس. وهكذا أصبح العفادلة أفاضلة برغم أنوفهم، وأصبحت أنت تعرف بلادك معرفة خير منها الجهل.

أما الطريقة التي أحب أنا شخصياً أن أعرف بلادي بها فهي أن أجول في أنحائها وأخالط الناس، كل صنوف الناس، فيها. ولاشك في أن هذه طريقة عسيرة المسالك أحياناً، ولكني لم أنِ عن سلوكها ما أمكنني ذلك. ولقد جلت في بلادي على قدمي، وتنقلت بين أرجائها على حمار، وركبت فيها السيارة حين أمكنني ذلك. أما الطريق البحري فلم أسلكه إلا حين كان لي مشروع زراعي في جزيرة صغيرة وسط الفرات. ولما كنت ابناً للبادية، أرى الإنسان في البحر كما رآه عامل عمر بن الخطاب يوم كتب إليه يقول الإنسان فيه دود على عود، الداخل فيه مفقود والخارج منه مولود، لما كنت كذلك فقد أراحني الله حين أزال تلك الجزيرة ومشروعي الزراعي معها من الوجود، فعدت بذلك إلى قواعدي في البر سالماً.

رحلة بالسيارة

كنت، وما أزال، أحب السفر وحيداً؛ وقليلاً ما كان يتاح لي في أسفاري المتعددة. ولكن أصدقائي الذين كانوا يخافون عليّ وحشة الطريق وخطر الضلال على طرق دمشق وبيروت واللاذقية اختفوا كلهم حين أزمعت السفر إلى تدمر، بسيارتي، عبر البادية. فلم أجد إلا أن أسير قصدي وحيداً.

والبادية التي تفصل بين الفرات، حيث تقع الرقة، وبين تدمر، بادية مشهورة المعالم في التاريخ ولكنها ضائعة في الجغرافية. وأنا لم أسلك منها فيما سبق من الأيام إلا أربعين كيلومتراً تنتهي بالرصافة، رصافة هشام. أما بعد الرصافة فقد كنت أعتمد على ما قاله العارفون من أن الطريق واضحة المعالم، وعلى وثوقي بنفسي وبأني أتيه في بلادي.

وفي الحق كانت رحلتي مغامرة لم أدرك خطرها إلا حين تعثرت سيارتي، بعد الرصافة وقبل أن أبلغ "الكوم"، بكثبان من الرمال التي سفت على الطريق فأخفت معالمه. هناك بدأت، وأنا أسوق السيارة بكل سرعتها لئلا أترك لها مجال الغوص في الرمال، بدأت أحسب كم يستغرق من الوقت اجتياز خمسين كيلومتراً مشياً على القدم، وهي المسافة التي كانت تفصلني عن بويتات من الشعر -لقيتها عند بئر الرصافة. في تلك اللحظات شعرت بالحنين إلى الرعاة الذين لقيتهم على البئر يسقون شياههم ما استوقفوني ليستمعوا إلى راديو السيارة الذي كان يذيع تراتيل عيد الفصح، وقد كانت سفرتي في يومه. كان أولئك الرعاة يسمعون الراديو لأول مرة في حياتهم، فكانوا كلما هممت بالسير طلبوا مني أن أصبر ليتملوا من هؤلاء المغنين المختفين في علبة وراء لوحة السيارة. وكان للصبر حد. فلم أستجب لإلحاحهم وسقت السيارة مسرعاً حتى كدت أطرح أحدهم أرضاً. ترى كيف يستقبلونني حين أعود إليهم خائر القوى منهكاً بعد سير عشر ساعات لا توقف

عاد إليّ وثوقي بذاتي حين خرجت من تلك المتاهة الرملية صحيح الجسم – والسيارة. وكنت قد دخلت، بيني وبين نفسي، في حديث عن السياسة الدولية وأنا أتلمس الطريق التي بدأ الإنكليز شقها عبر البادية أيام الحرب، فلما هزم الألمان ظلت أكوام الحجارة عل الطريق تنتظر حرباً عالمية جديدة لتدك على الأرض. وكان الربيع، الذي تركته حول الرصافة يفرش الثرى بأبسطة سندسية، ضائع الأثر في هذه السهوب التي هي مزيج من الرضم والرحل لا تعثر فيها على نبات إلا على الشوك النامي في ظلال الصخور الكبيرة. ما أضيع الإنسان في البادية!.. لم تقع عيني في كل هذه المسافات الشاسعة، بين بئر الرصافة وبين "الكوم"، على حي غير فتاتين في قبة على رأس تل، لما وقعت أنظارهما على سيارتي مقبلة من بعيد سارعتا إلى إخراج بساط بال من القبة فرشتاه أمامها، وتهيأتا لاستقبال الضيوف الذين سلكوا في البادية طريقاً غير مسلوكة. ووقفت عندها محيياً مطمئناً منهما على أني حقاً على طريق الكوم إلى تدمر، وشربت من قهوتهما، ثم ودعتهما مقدراً كرمهما، والأعمال بالنيات.

وأخيراً انتهيت إلى "الكوم" والظهيرة في عزها. ولما رأى رئيس مخفر الهجانة هذه السيارة تقف أمام باب مخفره عجب من راكبها هذا الذي يسير بمفرده في البادية. ولعله ظن بي الظنون، ولكني لقيت بين من كانوا في سقيفة المخفر من عرفني فعرّف بي.

وتلت ذلك محاضرة طويلة عن خطر السفر وحيداً في هذه البقاع عرفت في الأخير مغزاها، ذلك أن بعض من في المخفر كان ينتظر منذ يومين مرور سيارة تنقله إلى " أرك" أو إلى"السخنة"، دون جدوى! .. واستأنفت السفر وأنا أردد قول صديقي إيليا أبي ماضي :

أو في سيارتي.. وكان الناس في هذه المرة ثلاثة من البدو، وتاجر من السخنة، وجندي من الهجّانة، وخروف لذلك الجندي، وكيس شعير لذلك الخروف !

الجبل الضاحك

يقول أينشتاين إن كل شيء في الوجود نسبي. ويشرح نظريته هـــذه في مجلـــدات عويصة المحتويات، ويجعلها في قانون واحد صيغته : قد = ك × ن^2

وليس شيء أكثر تصديقا" لهذه النظرية من أنك تنتهي في ذات يوم إلى أن تعتبر (السخنة) واحة وارفة الظلال، وأن تعد شرب الشاي في وقدة الظهيرة في مخفر حرس البادية فيها راحة ونعيماً. فلولا اختراقك البادية في يوم متأجج الحر لما لاحت لك السخنة بهذه الصورة .

نظرية النسبية تصدق في الجمال صدقها في العلوم الطبيعية. فحين تحلق في طيارة فوق أراضي السويد فإن الذي يخلب لبك هو هذه الأشكال الرائعة التي تبدو لعينيك من تداخل البحيرات والغابات والجبال تحت طيارتك. أما في بادية الشام فإن غاية الغابات في الجمال هو ذلك الجبل الذي يسمونه (الضاحك). إنه جبل قفر أجرد ينحدر سفحه إلى البادية المستوية في امتدادات مسننة ناصعة البياض كأنها الضواحك في ثغر صبي مرح. إنه حقاً جبل ضاحك! إنه يبتسم لك ابتسامة سعيدة في هذه الصحراء الوحشة العابسة. وإذا غابت عن عينيك ضواحكه حين تخلفّه وراءك فإن ذكراه تظل في نفسك، كأنها رجع قهقهات صديق خفيف الظل فارقته منذ قليل..

لا يفوق منظر الجبل الضاحك جمالاً في هذه الرحلة غير منظر واحد، هو منظر مغيب الشمس على تدمر. تظل الشمس على تدمر في الدقائق الأخيرة قبل الغياب من خلال المرتفعات الواقعة غربي المدينة. لا تسمح هذه المرتفعات إلا لحزم قليلة من الأشعة الذهبية بالمرور كأنها أشعة نور كشاف موجهة إلى مسرح. هذا المسرح

المدينة. إن ذلك منظر يجدر بالناس أن يحجوا إليه ليتملوا به دقائق كل يوم. وهو في رأيي، أجدر بالحج إليه من آثار زنوبيا وقبور الأسر التدمرية المنتشرة حول المدينة في أبراجها العتيقة. إن لحظة من الجمال الحي، في اعتقادي، تساوي أجيالاً من أساطير

القلعة العربية والأعرابي

تدمر بهياكلها، وقبور سراتها، وتماثيل ملوكها، موصوفة أدق الوصف في الكتب التي يتزود بها السائحون حين يزورونها. وقد تتشابه الأعمدة الضخمة التي رأيتها في تدمر وتلك التي رقيت إليها الأكروبول في أثينا أو التي جست بينها في روما القديمة. ولكني لن أنسى حين تسلقت الطريق إلى القلعة العربية غربي تدمر بسيارتي ثم اكتشفت فجأة أن الطريق تقف عمودية أمامي، اذهبي لم تتم بعد شقاً، وأن علي أن أرجع بالسيارة رجعة خطرة في مسافة طويلة بين واديين سحيقي القاع. هذا أهون ما تكلفنا إياه العروبة والسعي وراء معالم آثارها ! ولن أنسى كذلك دوراني على قدمي في الخندق المحيط بتلك القلعة أتلمس مرقى إليها فيه فلا أجد، ثم انتباهي إلى أني وحيد في هذه البقعة التي تزخر بالهوام والزواحف الخطرة، بعيداً عن كل حي. وضحكي من نفسي وأنا أتراجع لأودع تدمر في الطريق إلى حمص..

أكملت سفرتي وحيداً، كما أحب. ولاح لي في الطريق القفر شبح رجل يتهادى تحت نار الشمس المحرقة، عصاه على كتفه، وهو يسير غرباً. فوقفت عنده أسأله أين يريد. قال مشيراً بيده على عادة البدو التي أعرفها أنه يريد نزلاً وراء ذلك المرتفع ! وأنه لا يملك مالاً يعطيني إياه لأنقله إلى هناك، إذ إنه أنفق كل ما عنده حتى وصل إلى ابنه المجند في تدمر ليراه. فدعوته إلى الركوب إكراماً لذلك الابن المجند. وكنت أظنني أتيت عملاً فذاً حين اخترقت البادية وحدي، فأوقفني هذا البدوي عند حدّي وهو يروي لي تنقله وحده من بادية حلب إلى تدمر، لاحقاً بالقوافل، أو سائراً على قدميه بين منازل البدو لا يظله سقف سيارة ظليل، ولا

وانطلق في الصحراء التي لا حدود لها نحو مضارب يظن أنها هناك، وقفت أتأمل خطاه الواثقة في وقدة الظهيرة، فعادت بذلك إلى ذهني صورة ارتسمت في أفق هذه الصحراء منذ اثني عشر قرناً: صورة الآلاف من أمثال هذا البدوي يقودهم ذلك الجبار الذي لم تلد مثله الأمهات: خالد بن الوليد، حين اخترق البادية يتبع كلمة واحدة أرسلها إلى أخيه الذي استنجده: إياك أريد! فقطعها بسرعة البرق بعزم أمضى من السيف.. ولما عدت من تلك الصورة إلى عصري الذي أعيش فيه، بكل مثقلاته من الأسى، شعرت بالانكسار بل بضرب من المذلة حين ذكرتني زمجرة السيارة أنه إذا كانت معرفتنا قد تناهت إلى الاتساع فإن همتنا قد تضاءلت إلى الهمود .

ولكني مع ذلك استأنفت المسير ..

* * *

الطراد

جاء حمود العلي في صبيحة يوم العيد متأخراً عن موعدنا، فقد كنا على أن يأتي هو من القرية وأقدم أنا من البلدة منذ الفجر، فنلتقي عند الباب القديم بالقرب من المزار عند بزوغ الشمس، وقبل أن يصل المتسابقون إلى الحلبة وتملأ الطريق وفود الزائرات قبر الولي في الجبانة. وحسبت أول الأمر أن صاحبي قد تعمد التأخر ليكون في مجيئه في زينة العيد وعلى صهوة فرسه الشعيفية قبله أنظار الفرسان الذين تجمعوا في رأس الحلبة والفتيات اللواتي انتثرن على مرتفع السور القديم يتطلعن إلى الفرسان مظللات على أعينهن المثقلة الأجفان بالكحل بأكفهن المصبوغة بالحناء. ولكن حمود بيّن لي أنه لم يتأخر إلا خشية عمه الشيخ عبد الهادي الذي كان يكره أن يخرج ابن أخيه على الشعيفية في موسم يحتشد فيه الناس وتتبارى فيه الفرسان كموسم الطراد في صباح كل عيد.

لماذا كان الشيخ عبد الهادي يكره ظهور حمود العلي في المواسم المزدحمة على فرسه الشعيفية؟.. ذلك لأن الشيخ عبد الهادي كان يرى الشعيفية ما لا نراه نحن في هذه الفرس الأصيل. كنا نحن نحسد حمود العلي على الشعيفية: شقراء في لون النحاس المطروق أو لون الغمام الذي يظلل الشمس على الأفق وقت الغروب، دقيقة الرأس والأذنين ذكية العينين، تسيل معارفها متوهجة على عنقها ويكاد شليلها، ذيله، يمس الأرض من فرط طوله. وكان حمود العلي فارسها الذي خلق لها، يحبها وتحبه وتُعجز كل من يمتطي ظهرها غيره. فكنا إذا خرجنا في رفقة إلى البادية أو إذا تطاردنا في الربيع من مضارب أهلنا إلى النهر، أعطت الشعيفية كل ما عندها في يسر إذا كان حمود العلي فارسها، بينما تتخلف في الطراد وتبدو كفرس من أوساط الخيل إذا كان فارسها نجم أو بشير أو غيرهما من أهلها وأهل حمود

تسبح سباحة وليست تركض ركضاً. ولكن الشيخ عبد الهادي رغم ذلك كان يقول إنها فرس مشؤومة، لأن خطاً من الشعر ممتداً من أسفل منبت الرأس على العنق حتى الفرجة بين القائمتين الأماميتين كان واضحاً بارزاً على صدر الشعيفية. خطاً من الشعر الأسود القاتم شعراته حائلة اللون حذاء منبتها على الإهاب الأشقر. كان الشيخ عبد الهادي يقول إن هذه الفرس بها شقّ زيق، شق في قميصها، يمثّله خط الشعر هذا، وإنه علامة مشؤومة في الفرس تقتل به فارسها..

لم نكن نحن، لذات حمود العلي، نأخذ جداً ما كان يقوله الشيخ عبد الهادي عن شقّ زيق الشعيفية، بل كنا نعتقد أنه كان يخشى على ابن أخيه لا شؤم الشعيفية بل أعين الحساد حين يرون حمود العلي في عنفوان شبابه وحسن زينته على فرس جميلة كشعيفيته الأصيلة. والحق أن طلعة حمود العلي على فرسه في صبيحة يوم العيد هذا كانت مما يخشى عليه من الأعين المصيبة. وقد تحلقنا حوله منذ وصوله إلى رأس الميدان حيث باب السور القديم، لأننا في الحقيقة كنا ننتظر مجيئه كي نبدأ طرادنا. ولذا فمنذ وقفت الشعيفية على رأس الميدان خرجت الخيول الهجينة من الحلبة وآب الذين كانوا يتعادون على مهارهم دون سباق إلى مجمع المتسابقين وتهيأ كل فارس إلى أن يأخذ دوره في الطراد.

بدأنا على أن ينطرد ثلاثة من الفرسان، أنا وآخران، للشعيفية وفارسها حمود العلي. وكان ذلك مما يرضي حمود العلي ولا شك، فعلى تلعة من تلاع السور القديم كانت أفواج من الفتيات يتطلعن إلى الخيول وفرسانها وينتظرن الطراد، وكان من بينهن خود وأختها يازي.. وجميل أن يبدأ الطراد بشوط يكون فيه حمود العلي أمام عيني يا زي الطارد لا المطرود. ولذا فإن حمود العلي بدأ بعد أن مسح بكفه غرة الشعيفية وربت على معارفها بأن اعتلى متنها على تلك المعرقة، وهي السرج الذي كان قد اجتلبه لها من حمدان السرّاج والذي تسيل من حواشيه

مرمى أيديها عليها. ثم عاد إلينا ينتظر انطلاقنا نحن مطروديه الثلاثة ليلحقنا وليحاول، إذا استطاع محاذاتنا، أن يصيب بمطرقة الخيزران متون خيلنا، ثم ليسبقنا إذا أمكناه وأمكنته خيولنا من ذلك.

كانت فرسي، حمدانيتنا الزرقاء، أجود الخيول الثلاثة التي ستنطرد للشعيفية وأجدرها بأن تقف في صف واحد مع الشعيفية، بل أن تظل سابقة لها إذا تأخرت الشعيفية في الانطلاق، فحرصت على ألا أكون أول منطرد لحمود العلي وأن أتيح له بسهولة أن يضرب متني الفرسين الآخرين بخيزرانته.. ألم تكن يازي على التلعة تنظر إلى حمود العلي؟!.. فصففت نفسي أول الثلاثة إلى اليمين بحيث يكون الآخران على يساري، ولما كانت خيزرانته حمود العلي في يمناه فإنهما، حين يطردنا، هما اللذان يصبحان طريدته لا أنا. وما أسهل على الشعيفية أن تلحقهما وعلى حمود العلي أن يقرع بخيزرانته متني فرسيهما حينذاك. وعلى ذلك انطلقنا وحمود العلي واقف مكانه، في يسراه عنان الشعيفية، وفي يمناه خيزرانته الدقيقة المخضب رأسها بالحناء. ولعل جهد رفيقي كان في أن يهمزا بطن دابتيهما ويرخيا لهما العنانين منحنيين على عنقيهما ليفوتا الشعيفية بأطول مدى قبل أن تنطلق وراءهما. أما أنا فقد كنت، والحمدانية تنهب الأرض، ملقياً أذني إلى الصوت الذي سينطلق ورائي، صوت حوافر الشعيفية، مستعجلاً إياها أن تندفع وأن تدرك رفيقيّ، فإن في فوز حمود العلي فوز لي أنا خدنه وعشيره.

وأمضنّي أني أحسست بأن حمود العلي قد تأخر في الانطلاق وراءنا زمناً أطول مما يجب أن يفعل، فلولا أن كانت لي أنا أيضاً فتاة على تلعة السور القديم لأدرت رأسي إلى الوراء استبطاء للشعيفية وفارسها .. وأخيراً سمعت الأرض تدب ورائي فهدأ تربصي وانحنيت بدوري على عنق الحمدانية أعطيها عنانها وأمسّ بعقبيّ جانبيها ألمس الرفيق الذي تعهده مني وتعرف ما الذي أريده به منها .

وحفيف الهواء حذاء الأذنين وارتفاع الغبار حول الفرسان وصياح الناس وهمهمتهم، وبتردد أنفاس فتاتك التي تضع واحدة من يديها على صدرها وأخرى على شفتيها تمسك بها لسانها أن يهتف باسمك وهي ترمق عدو فرسك بك .وقد انقضى قدر كبير من هذا الزمن الذي أصفه لك قبل أن أسمع حافر الشعيفية قريباً مني وهو آت، وعجيب ذلك، عن يميني لا عن يساري .

كانت الحمدانية، فرسي ،قد فاتت رفيقيّ بمقدار وتركتهما لخيزرانة حمود العلي تلهب ظهريهما. ولكن سماع وقع حوافر الشعيفية عن يميني يعني أن حمود العلي قد آثر أن يهمل ذينك الفارسين ويطردني أنا، مع أني تعمدت أن لا أكون غريمه وأن لا أعرضه إلى طراد الحمدانية. ثار الدم فائراً إلى رأسي حين أدركت ذلك وملأت صدري نقمة على حمود العلي إذ أراد إذلالي حين أردت له الفوز سائغاً هيناً. وزاد من نقمتي عليه أنني لم أدرك ذاك إلا حين تبين لي، من سماع صوت حوافر فرسه إنه قد لحق بي أو أوشك. وتوهمت أنني أسمع حفيف الخيزرانة في يمنى حمود العلي وهو يتهيّأ إلى أن يهوي عليّ بها، فانفجر الغليظ في صدري وحملني على ما لم أفعله من قبل: فما كفاني أن لكزت بطن فرسي بعقبيّ لكزاً شديداً كأنها حصان من خيل السواري، بل أدرت خيزرانتي إلى ورائي فضربت بها كفل الحمدانية ضرباً شديداً متلاحقاً أريد أن تعرف به أن عليها أن تطير لا أن تعدو فحسب.. ألم أقل لك إنه كانت لي أنا أيضاً فتاة على السور؟ لقد فهمت الحمدانية مني فطارت، ورغم ذلك كان حرياً بي أن أندم على فعلتي بها من هذا الضرب المتلاحق، وأن يشغل ذلك بالي في ليالي عديدة، لولا أن ما حدث بعد تلك اللحظات قد غطى على ذاك وإنسانيه وبدّل من ضيقي ارتياعاً ومن غيظي ألماً ومن نقمتي بكاء. فإن وقع الحوافر الذي كان موشكاً على أن يحاذيني انقطع فجأة أو لفه صوت أصم رج الأرض ورائي وعلت له همهمة تلتها ضجة في الجموع المصطفة على تلاع السور،

تجول حول بقعة كان الغبار يتصاعد منها دقيقاً فاتراً، وفي وسطه كان حمود العلي مكبوباً على وجهه لا حراك به.

هذا ما حدث في صبيحة يوم العيد. كبت الشعيفية بأن زلت يمناها فانكبت لوجهها ثم انقلبت وهي في شدة العدو ثم قامت من كبوتها في مثل لمح البصر.. ولكنها بين هذا وذاك كانت قد ألقت فارسها بعيداً. كان حمود العلي مقذوفاً على الأرض ليس به من الحياة إلا أنين خافت ومسيل خيط من الدم عند ملتقى الشفتين.

ما جرى بعد ذلك لم يبق منه في خاطري إلا غمامة من الغبار والضجيج وأجساد الناس كانت تلف جسد أخي وعشيري حمود العلي في مطرحه وإلا رأس الشعيفية التي كانت تتشمم جسد الطريح وتجيل مشفرها على وجهه، بينما كانت معرقتها مائلة على واحد من جانبيها وعناها سائلاً ملقى طرفه على الأرض الغبرة كأنه جسد حية قتيل.

إذن فقد صدق قول الشيخ عبد الهادي في شؤم شق زيق الشعيفية فقتلت فارسها. ما كان تطيراً أصبح أمراً واقعاً. إلا أن الشيخ عبد الهادي لم يتخل مع ذلك عن الشعيفية على كثرة طلابها منه، فظلت في مربطه بين خيولٍ غيرها. تراه أنف من أن يبيعها بثمن بخس، وقد أبخست ثمنها شهرة شؤمها؟ أم أنه أحتفظ بها لأمر آخر؟ كل الذي أعرفه أنها ظلت ترعى وترتع بين خيول الشيخ عبد الهادي، لا يحب أن تمتطى لما تمتطى له الخيول الأصيلة في الطراد والأسفار، ولا يسمح بأن تستخدم كما تستخدم الخيول الهجينة في الحمل والأثقال. حتى لقد ضاق أحد رجال الشيخ عبد الهادي بها، يوماً من أيام الربيع في مضرب الشيخ في البادية، إذ اقتحمت الربعة وأخذت تتشمم الضيوف حتى دنت من دلال القهوة فأجالت رأسها حولها.. هنالك كان مجلس حمود العلي فارسها حين كان حياً.. حينذاك

مشؤومة؟ فصدقت الشعيفية مرة أخرى شهرة شؤمها وتناولت بفكيها كتف الرجل فلم تتركه إلا على شفا الموت..

كل هذا حدث منذ خمس سنوات أو تزيد. وقد وقفت صبيحة اليوم، صبيحة أول أيام العيد هذا، على رأس تلعة في أول ميدان الطراد، لا مطارداً ولكن واحداً بين المتفرجين على الذين أصبحوا يملؤون الميدان بعدنا، أنا وحمود العلي وأقراننا، ويتسابقون فيه في كل موسم.

تطلعت من موقفي على التلعة إلى المنخفض جنوبي الميدان فرأيت هناك الشعيفية ترعى العشب في المنخفض وترفع رأسها في كسل إلى المتبارين كلما علت لهم ضجة أو قرقعت حوافر خيولهم الأرض في جلبة أخر الشوط. منذ خمسة أعوام، منذ مصرع حمود العلي، والشعيفية التي أصبح عنانها ملقى لها على عنقها في مربط خيول الشيخ عبد الهادي تقف في هذا المنخفض كلما اجتمع الفرسان على جيادهم في ميدان الطراد لعيد أو عرس أو موسم، ترعى فيه وتتأمل في المتطاردين.

ما الذي وراء العينين الذكيتين في الرأس الدقيق الذي يعلو شق الزيق في صدر الشعيفية؟ أتراها تذكر حمود العلي لرؤية أقرانه وخلفائه في ميدانه الأثير عليه؟ أم تراها تبكيه وتبكي حظها أن ولدت وفي صدرها شق زيق لم تحدثه هي في أهابها؟ أم تراها تتبرأ من شؤم لحقها ظلماً.. فلكل جواد كبوة، وأيّ جواد كالشعيفية التي ما قصرت يوماً تحت فارسها ولا خيّبت في يوم له ظناً ما دام ظنه في مكنتها وفي طوقها؟!..

* * *

من تاريخ البوادي العربي
غزو الجزيرة

"كانت القبائل البدوية منذ أزمان تسبق البعثة المحمدية تتداول البوادي العربية من جزيرة العرب حتى شمال ما بين النهرين، عن طريق الغزو والمهادنة والتنازع والتحالف، في قصص تضم بين طياتها صوراً من الفروسية والأخلاق وألواناً من العبر امتلأت بها أسفار التاريخ القديم. وهذا فصل من تاريخ هذه القبائل في العصر الحديث جرت أحداثه في القرن الميلادي الأخير، لم يرو في كتاب ولكننا ننقله عن ألسنة الرواة من البداة ممن لا مرجع لهم إلا حافظتهم ومنقولاتهم عن الآباء والأجداد".

الوليمة:

كان الشيخ الجربا نزيلاً في جوار أمير عشائر طيّ وشيخ مشائخها في هذا السهل الفسيح المخصب، من سهول بادية الجزيرة، بين دجلة والفرات. ولم يكن أحد في مضارب طيّ يعرف شخصية الشيخ الجربا، فقد حرص هو على أن لا يعرفه أحد إلا كبدوي منقطع لا أهل له ولا عشيرة. ذلك أنه قدم من نجد بعد خصام بينه وبين أفراد عشيرته، عشيرة شمّر، خصام شديد لم يرد الشيخ الجربا أن تثور بسببه هو الضغائن وتثير الدماء فآثر على ذلك أن يهجر عشيرته، وهو شيخها الذي لا ينازعه في زعامته منازع، مغضباً حرداً ولكنه متجنب للشر وحاقن للدماء. فما زالت ترفعه في هجرته أرض وتخفضه أرض حتى انتهى به المطاف من نجد إلى هذه البقعة من الجزيرة العذبة الهواء الوفيرة الماء. وإلى هذا الحي من عشيرة طيّ فحلّ فيه جوار أمير العشيرة وشيخها، حيث نصب خباءه إلى جانب مضرب الأمير أميناً في ظله، متمتعاً بكرمه ورعايته.

أنها تضم الشيخ الجربا زعيم عشائر شمر وقائدها المغوار. وكانت حاشية الشيخ الجربا في مضربه الكبير ذاك في بادية نجد تضم أبناء الأعمام الدانين وعشرات العبيد، عدا الضيوف وذوي الحاجات. أما حاشيته في خبائه الصغير هذا في الجزيرة فكانت تتألف من زوجته ومن عبد واحد له، كان يزعم لمن يسأله عنه أنه ابن عم له من أم سودا. فما كان الشيخ الجربا يريد أن يعرّف أحداً على أنه سيد وأمير قبيلة. وكان يغادي مضافة أمير عشيرة طيّ ويماسيها كأنه نزيل لاجئ يحسبه الناس أحد بين صليب أو بني مسلمّ، وهم حثالة العشائر في الصحاري العربية مترلتهم كمترلة باهلة بين القبائل في القديم. ولكن للسيادة النفسية أمائر لا تستطيع المظاهر، ولو كانت متعددة، أن تخفيها أو تحجبها عن الأنظار. وقد كان الشيخ الجربا سيداً حتى أطراف أظافره ، فلم يفلح تنكره في أن يحول بين كرم خصاله ونبل محتده وبين الظهور. ففي ذات يوم دعا الشيخ الجربا جاره الكبير أمير طيّ وحاشيته إلى عشاء في خبائه الصغير. وقد أجاب الأمير دعوة جاره الفقير زيادة في التعطف عليه وإمعاناً منه في التفضل. وكان مع الأمير نفر من حاشيته والمقربين إليه أعجبوا كما أعجب الأمير نفسه بحس الوفادة وطيب الملاقاة اللتين وجدوهما من جارهم الوحيد والغريب، في هذا الخباء النظيف الحسن الهيئة، على فقر أهله وقلة ما يمتلكون فيه من متاع. فلما قدّم الطعام وكان أطيب طعام في بساطته وحسن تهيئته، تمركزت الأنظار، أنظار المدعوين، على الجفنة التي قدّم فيها الطعام، أعني الصينية، إن الصينية التي يقدّم فيها طعام الضيوف هي في عرف أهل البادية رمز من رموز الكرم في وجودها، ودليل على مكانة صاحبها وقدره بين العشائر في سعتها. وكانت الصينية التي قدّم فيها هذا الغريب الفقير العشاء لأمير طيّ وحاشيته صينية واسعة تفوق في سعتها، وفي عدد الحلقات التي تحمل بها، وفي غلظ هذه الحلقات. صينية أمير طيّ نفسه، سيد هذه البقاع وأهلها. كان التباين واضحاً يفقأ العين بين الصينية، وما

العين، غير أن طيب الطعام وبشاشة المضيف صرفا الأذهان عن هذا التباين فمرت الوليمة وكأن أحداً لم يفطن إليه أو أن من فطن إليه لم يأبه له.

الخاتون:

ولكن الوليمة كان لها ما بعدها. فقد خلا بأمير طيّ في أواخر تلك العشية بعض حاشيته الذين حضروا معه مأدبة الجار الغريب وقالوا له: أيها الأمير إن صاحبنا هذا الذي يعيش في جوارك ليس اِمرأً مغموراً ولا جاراً هيّن الأمر. لأمر ما نزل صاحب هذه الصينية الكبيرة التي تدل ملامحه على النبل وسجاياه على السيادة في جوارك مرتضياً على نفسه الهوان وسوء الحال. والرأي عندنا أن تقتله فتقطع خبره ، وإلا أتانا من جانبه شر لا قبل لنا به..

وكان رأياً نزل من نفس الأمير موضع الهوى.. فهو كذلك قد عاد من وليمة الليلة يدير الفكر في سر هذا النازل الغريب الذي فضحت طباع الكرم الأصيل فيه ما تظاهر به من فقر وضعف. لذلك فقد أجاب المشيرين عليه من أفراد حاشيته بما أسكن قلقهم من اعتزامه الفتك بهذا الطارئ في أقرب فرصة وعند أول مبرر يعرض اتقاء لما ليس يعرف من شرور تأتي منه أو بسببه. وسرّ أفراد الحاشية من عزم الأمير هذا ، وليس كلّهم. فلم تعد الرحمة مكاناً من قلب واحد منهم تساءل بأي ذنب يقتل هذا الوافد، العاجز، الوحيد، غير ذنب الكرم وحسن الخصال؟ لذلك فقد بكر إلى الشيخ الجربا في الصباح من قال له: أدرك نفسك أيها المسكين فإن الملأ يأتمرون بك والأمير ينوي قتلك.. ليس لك إلا أن تلجأ إلى الخاتون، وهي زوجة الأمير، فتطلب منها الحماية لنفسك، وإلا فالموت مصيرك!.

قال الراوي: ولم يجد الشيخ الجربا إلا أن يلجأ إلى الخاتون طالباً حمايتها من نوايا زوجها أمير طيّ. فأضفت عليه الخاتون تلك الحماية.. فحين دخل الأمير مخدعه بعد انفضاض الضيوف في المساء وجد في يد زوجته المحبوبة زجاجة صغيرة، سألها

فأهوى الأمير بكفه على زجاجة السم وقال للخاتون: على جارنا الأمان، ولكني لا أريده في جواري فإني أخشى منه شراً مستطيراً..

رسالة إلى شمّر:

شهد الناس في مضارب عشيرة طيّ في الصباح التالي جارهم الغريب وهو يطوي خباءه ويحمل أثقاله على جماله ويهجر منازلهم إلى البادية الفسيحة. عاد الشيخ الجربا يطوي الجزيرة وحيداً على فرسه إلا من زوجه في هودجها وعبده على ذلوله. وكان في تجواله يتنقل من سهل معشب إلى آخر أكثر عشباً وأوفر نبتاً فذكر في وحدته أهله وعشائره وذكر في خصب الجزيرة صحارى نجد وبواديها الماحلة القاحلة. قال لنفسه مرة، وقد ضرب خباءه في وادٍ ممرع تعددت أنواع النبت فيه وسالت منه المياه في كل اتجاه : حبذا لو أن عشائر شمّر، عشائري، رأت هذا الخير وعلمت أن ليس كل ربيع مثل ربيع نجد تأتي به مزنة ويذهب به إلى يوم شمس!.. وأخذ لساعته خُرْجاً ملأه من كل أصناف النبات في هذا الوادي المخصب، ثم دعا عبده وقال له: اقصد بهذا الخرج قومنا في جبال شمّر، فإذا حصلت بينهم انثره أمامهم وقل لهم فليدعوا الجدب وراءهم ولييممّوا بلاداً هذه خيراتها.. ولئن غضبت من قومي يوماً فإن ذلك لم يقتل من نفسي إرادة الخير لهم. عجل إليهم، وإني منتظرك في أطراف بادية العراق.

وهذا الذي حدث.. فإن العبد حين أتى نجد وجبال شمّر فيها ومجمع مشايخ شمّر في تلك الجبال، نفض الخرج بين أيدي المشايخ فكأنما نفضت لأعينهم ثمار الجنّة على الأرض. كان ما نفض الخرج عنه أعشاب يابسة وجذور نباتات حائلة اللون وأزهار ذابلة من حوذان وأقحوان وكعّوب ورمث وقيصوم، ولكن البدو الذين نثرت هذه النفايات اليابسة تحت أعينهم كانوا يعرفونها واحدة واحدة ويتخيلونها في أرضها تزهو خضرة وتتألق نضارة وتنطق بالخصب والريّ. هتفوا بالعبد: أين

الشيخ الجربا إليكم منها. مرعاها وفير وماؤها غزير وأهلها من قبائل طيّ قوم وادعون وفي خيرها ما يكفيهم ويكفيكم. فتهيأوا واتبعوني..

الرائد لا يكذب أهله:

سارت قبائل شمّر من نجد تقصد سهول الجزيرة. وللقبائل عادات وتقاليد في نزول المياه وورود المراعي متعارف عليها. فلما شارفت هذه القبائل أرض الجزيرة ضربت أخبيتها في سهل فسيح وكتب رؤساؤها الخمسة، ولم يكن الشيخ الجربا معهم فقد ظل على عزلته على تخوم البادية العراقية، كتب هؤلاء الرؤساء خمس رسائل حملها رائد منهم إلى أمير قبائل طيّ. كان في هذه الرسائل بعد التحية والسلام أنهم ضيوف على أمير طي في أراضيه يطلبون منه ما يطلبه الضيف من صاحب الدار: أن يرعوا غنمهم في جواره فإذا انقضى الفصل الماحل آبوا إلى نجد شاكرين.. ليسوا غزاة ولا أعداء. وإنما طالبو فضل الأمير. وحمل الرائد هذه الرسالة، وامتطى ناقته الذلول إلى منازل عشائر طيّ. فلما أشرف على منزل الأمير تبين من بعيد أن في المضارب حالا غير عادية. رأى جموعاً وسمع أصواتاً ما لبث أن تحقق من كونها أصوات عويل ونحيب وندب في سبع مناحات مقامة في الأرض الفضاء أمام مضارب العشيرة. قد تجمع كل من في الحي فيها وشارك بها. كانت بداية مزعجة تعوّذ الرائد من شؤمها بالله، فلما بلغ مضرب الأمير، أكبر المضارب، نزل عن ناقته وعقلها ثم قصد جناح الضيوف، فوجده مقفراً إلا من مدير القهوة الذي كان يجلس إلى موقدها مطرق الرأس كاسف البال، وقد كبّ دلال قهوته ودفن رؤوسها في رماد الموقد. قال الرائد بعد أن ألقى السلام وجلس: إني غريب يا أخا العرب ولست أدري أية مصيبة حلّت بنزل هذا الأمير ولكني أراها مصيبة فاجعة، فهل لك أن تفيدني أيّ فقيد يبكي هؤلاء الناس؟.. فأنّ مدير القهوة في مضافة أمير طيّ أنّة طويلة قبل أن يجيب بصوت يتقطع حزناً: اتركنا لبلوانا أيها

قال الراوي: حينئذ تطلّع الرائد إلى ما حوله حيث رأى المضارب مقفرة من أهلها الذين تجمعوا في سبع مناحات يبكي رجالها وتندب نساؤها، ثم مد يده إلى الرسائل الخمس التي كان يحملها في عيّه من مشائخ عشائر شمر الخمسة إلى أمير طيّ المفجوع بابنته الوليدة، فلما توثق من أن تلك الرسائل لم تزل في عبّه وثب مسرعاً إلى ناقته ففك عقالها واعتلى سنامها ثم أدار رأسها الدقيق إلى الجنوب، إلى مراح قبائل شمر على تخوم الجزيرة، ومضى ينهب الأرض.

عودة الرائد:

أحس الناس في مضارب عشائر شمر أن رائدهم قد أقبل، فبرزوا من أخبيتهم يستقبلونه وهم يتنبؤون بالخبر الذي يحمله إليهم من أمير طيّ. أما هو فقد أعرض بمطيته أمام المضارب، وذلك يعني أنه مرّ بها رواحاً ومجيئاً مرات عديدة كعادة الرواد في قدومهم من الأسفار البعيدة، ليراه كل من في الحي ويثبت وصوله. حتى إذا تجمع الناس يتقدمهم رؤساء القبائل الخمسة أناخ الرائد ناقته أمامهم وانحدر عن ظهرها خفيفاً، وتقدم إليهم حتى أصبح أمامهم، فأخرج من عبّه الرسائل الخمس وألقاها بأختامها غير مفضوضة، على الأرض وأمام الرؤساء.

صاح الناس وقد رابهم أن تعود رسائل مشائخهم إليهم دون أن تفض: ماذا وراءك يا أخا شمّر..

فقال الرائد: ورائي الخير. الجزيرة هي الجنة كما تصورتم وفوق ما تصورتم. ولكن لا حاجة لكم باستعطاف أميرها ولا بمسالمة أهلها وجدت أهلها في سبع مناحات يقرعون صدورهم حزناً على وليدة ابنة يومين.. فما دام هؤلاء هم أهل الجزيرة فهي لكم يا شمّر.. دونكم الجزيرة يا شمّر!

قال الراوي: وهكذا غيّرت قبائل شمّر رأيها في طريقة انتجاعها للجزيرة. كانت تلك القبائل تنوي أن تنزل الجزيرة برضا أهلها من عشائر طيّ وفي حماية أمير تلك

قيمة أغلى مما تستحق، وللموت في نفوسهم وقع أكبر مما يستحق، فذهبت حرمتهم. حرمة كيّ من نفوسها، نفوس شمّر. حينئذ قصدت قبائل شمّر أرض عشائر طيّ لا ضيوفاً يطلبون الرعاية، بل غزاة ينوون التملك بالحرب. وهذا هو ما حدث في تلك الأيام. فقد انطلقت جرود شمّر زاحفة من مراحها في تلك البقاع ودخلت الجزيرة غازية باطشة متملكة. ومنذ ذلك الحين تقلص نفوذ عشائر طيٍّ عن أرضها وتغلب نفوذ قبائل شمّر، ولا زال إلى اليوم متغلباً..

* * *

ملف الصور

الفهرس

١- أمير ثقافة.. وزير عصبة الساخرين	الدكتور رياض نعسان آغا وزير الثقافة
٢- جوهرة الفرات	د. علي القيّم
٣- إلى العجيلي والرقة	محمد نجيب السيد أحمد
٤- عاشق الرقة	د. حسين جمعة
٥- أروع بدوي عرفته المدينة	كوليت خوري
٦- بين إبراهيم وإسماعيل	محمد أبو معتوق
٧- الطبيب.. الأديب.. الإنسان	د. ماجد أبو ماضي
٨- الرائد لا يكذب على أهله	بشير العاني
٩- نموذج يستحق الاقتداء به	وليد إخلاصي
١٠-سأخالف وصيته	سعاد جروس
١١-أول من صمم علماً عربياً للبنان	مجلة الكفاح العربي
١٢-العجيلي في الرواية والقصة	محمد قرانيا
١٣-أيقونة المدينة	اسكندر حبش
١٤-كان أروع بدوي في المدينة	نبيل سليمان
١٥-الريادة الأسمى	محمد شويحنة
١٦-الطبيب والأديب المتميز	عيسى فتوح
١٧-الإنسان	سعاد مكارم
١٨-حالة نادرة عند الرجال	هاني الخيّر
١٩-رجل أوله كبرياء.. وأخره	د. بغداد عبد المنعم

شـــــهادات

الدكتور رياض نعسان آغا - حنا مينه - شوقي بغدادي - د. علي القـيّم - وليد إخلاصي - خيري الذهبي - إبراهيم صموئيل - ممدوح عـــزام - فيصـــل خرتش - أنيسة عبود - وفيق يوسف - إميلي نصر الله - جـــواد الصـــيداوي - عماد العبد الله - سوسن البطح - خليل صويلح - إدوار حشوة - عروة المهاوش - حسن.م.يوسف - نصر الدين البحرة - د. فؤاد المرعي – عباس بيضـــون – صباح قباني – يوسف الأبطح – موسى السيد – رياض طبره – خالد الخـــنين – عيد الدرويش – فوزات رزق – نجاح إبراهيم – عصام خليل – عبـــد الكـــريم الناعم – نور الدين الهاشمي – علاء الدين عبد المولى – د.رضوان قضماني – محمد نقشو – نبيل طعمة- ديانا جبور – دلال حاتم.

* * *

مختارات من أعمال العجيلي

١- الرقة في ذاكر الأجيال.

٢- اشهد يا طبيب.

٣- كيف تصبح الحكاية قصة.

٤- المضافة.

٥- أشعار في عيادة الريف.

٦- أمسية أندلسية على الشاطئ اللازوردي.

٧- رحلة إلى تدمر، اعرف بلادك.

٨- الطراد.

٩- من تاريخ البوادي العربي.